

شیخ ابوالعباس
احمد بن خالد الناصري

كتاب
الاستفصال

لأخبار دولة المغرب الأقصى

الدولة المرinية

الجزء الثالث

تحقيقه وتعليقه
الأساتذة

جعفر الناصري و محمد الناصري

دار الكتاب

الطباطبائي

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار الكتاب

ساحة المسجد الحمدي

الدار البيضاء

1418هـ/1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي

1399/96

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدولة المرinية

الخبر عن دولة بنى مرين ملوك فاس والمغرب وذكر أوليائهم وأصلهم

اعلم أن العلامة الرئيس أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله قسم جيل زناته إلى طبقتين، الطبقة الأولى هي التي كان منها مغراوة ملوك فاس، وبينو يفرن ملوك سلا، وقد تقدم الكلام على دولتهم مستوفى، والطبقة الثانية هي التي كان منهم بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط وبينو مرين ملوك فاس والمغرب الأقصى، وهؤلاء هم الذين تعلق الغرض الآن بذكرهم.

فاعلم أن جيل زناته في المغرب كما قال الرئيس المذكور جيل قديم معروف العين والأثر وهم لهذا العهد آخذون من شعار العرب في سكنا الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتقلب في الأرض وإيلاف الرحلتين وتخطف الناس من العمران والإباهة من الانقياد إلى النصفة، وشعارهم من بين البربر اللغة التي يتراءون بها وهي مشتهرة بتنوعها عن سائر رطانة البربر، ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب.

فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم، قوم بالتلول يجبار طرابلس وضواحي إفريقية وبجبال أوراس بقايا منهم سكروا مع العرب الهلاليين لهذا العهد، وأذعنوا لحكمهم، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناته، ومنهم بالمغرب الأقصى أمم آخر، وكان بنو مرين منهم قبل استيلائهم على ملك المغرب أحباء ظواعن بمجالات الفقر من فيجع إلى

سجلماة إلى ملوية، وربما يخططون في ظعنهم إلى بلاد الزاب ويدرك
نسابتهم أن الرياسة كانت فيهم في تلك العصور لمحمد بن ورزيز بن
فكوس بن كرماط بن مرين، ومربن يتصل نسبه بزانة بن يحيى أبي الجيل.

وكان لمحمد المذكور سبعة من الولد اثنان منهم شقيقان وهم حمامة
وعسكر وخمسة أبناء علات، وكان يقال لهم بلسان زناته تيربعين ومعناه
الجماعة.

ويزعمون أن محمد بن ورزيز لما هلك قام بأمره من قومه ابنه حمامة بن
محمد وكان الأكبر من ولده. ثم من بعده شقيقه عسكر بن محمد ثم من بعده
ابنه المخضب بن عسكر وهلك سنة أربعين وخمسة في بعض الحروب⁽¹⁾
التي كانت بين عبد المؤمن والمغاربة.

ثم قام بأمر بني مرين بعد المخضب ابن عمه أبو بكر بن حمامة بن
محمد إلى أن هلك فقام بأمرهم ابنه أبو خالد محيي بن أبي بكر ولم يزل
مطاعاً فيهم إلى أن استنفرهم يعقوب المنصور إلى غزوة الأرک بالأندلس
فشهدوها وأبلوا فيها البلاء الحسن، وأصابت محيي بن أبي بكر يومئذ
جراحات هلك منها بصحراء الزاب سنة اثنين وتسعين وخمسة وثمانين وكان من
رياسة عبد الحق ابنه من بعده ويقائهما في عقبه ما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن دخول بني مرين أرض المغرب الأقصى واستيلائهم عليه والسبب في ذلك

كان السبب في دخول بني مرين لهذا القطر المغربي أنه لما كانت وقعة
العقاب بالأندلس سنة تسعة وستمائة وهزم الناصر وهلك الجمhour من حامية
المغرب ورعاياه حتى خلت البلاد من أهلها ثم حدث عقب ذلك الوباء
العظيم الذي تحيف الناس إلا قليلاً وهلك الناصر سنة عشر بعدها فبايع

(1) انظر هذه الحروب في الذخيرة السنوية صفحة 18 وما بعدها طبع الجزائر.

الموحدون ابنه يوسف المستنصر وهو يومئذ صبي حديث لا يحسن التدبير، وشغلته مع ذلك أحوال الصبا ولذات الملك عن القيام بأمر الرعية فتضافرت هذه الأسباب على الدولة الموحدية فأضعفتها لحينها وأمرضتها المرض الذي كان سبباً لحينها، وكان بنو مرين يومئذ مواطنين ببلاد القبلة من زاب إفريقيا إلى سجلماسة، يتنقلون في تلك القفار والصحاري لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا تناهم الدولة بهضيمة ولا يؤدون إليها ضربة كثيرة ولا قليلة ولا يعرفون تجارة ولا حرثاً إنما شغفهم الصيد وطراد الخيل والغارات على أطراف البلاد.

وكانت طائفة منهم يتتجرون تخوم المغرب وتلوه زمان الرياح والصيف فيكتالون من أطراف البلاد ما يحتاجون إليه من الميرة ويرعون فيها تلك المدة أنعامهم وشأهم حتى إذا أقبل فصل الشتاء اجتمع نجعهم بأكرسيف ثم شدوا الرحلة إلى بلادهم فكان ذلك دأبهم على مر السنين.

فلما كانت سنة عشر وستمائة أقبل نجعهم على عادته للارتقاء والميرة حتى إذا أطروا على المغرب من ثناياه ألفوه قد تبدلت أحواله وياتت خيله ورجاله وفنيت حماته وأبطاله وعريت من أهلها أوطانه وخف منها سكانه وقطنه ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنتبه خصيصة المرعى غزيرة الماء واسعة الأكتاف فسيحة المزارع متوفرة العشب لقلة راعيها مخضرة التلول والرُّبُّى لعدم غاشيتها فأقاموا بمحاذيمهم وبعثوا إلى إخوانهم فأخبروهم بحال البلاد وما هي عليه من الخصب والأمن وعدم المحامي والمدافع، فاغتنموا الفرصة وأقبلوا مسرعين بنجعهم وحللتهم وانتشروا في نواحي المغرب وأوجفوا عليها بخيبلهم وركابهم واكتسحوا بالغارات والنهب بسيطها ولجرأت الرعايا إلى حضونها ومعاقلتها وتم لهم ما أرادوا من الاستيلاء على بسيط المغرب وسهله واتجاع موقع طله ووبله.

الخبر عن رياسة الأمير أبي محمد عبد الحق بن محيو المريني رحمه الله

لما دخل بنو مرين المغرب كان الأمير عليهم يومئذ عبد الحق بن

محيو بن أبي بكر بن حمامه بن محمد المريني، فكثر عيщهم وضررهم بالغرب وأفضل داؤهم وتضاعف على الرعية بلاؤهم فرفعت الشكايات بهم إلى الخليفة بمراكش وهو يومئذ يوسف المنتصر بن الناصر بن المنصور فجهز لهم جيشاً كثيفاً من عشرين ألفاً وعقد عليه لأبي علي بن وانودين وكتب له إلى صاحب فاس السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن يأمره بالخروج معه لغزوبني مرين والإثخان فيهم وعدم الإبقاء عليهم مهما قدر على ذلك.

واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف وببلاد بطوية فتركوا أثقالهم وعيالهم بحصن تازوطا من أرض الريف وصمدوا إلى الموحدين فالتقى الجمعان بوادي نكور⁽¹⁾ فكان الظهور لبني مرين على الموحدين فهزموهم وقتلوهم وامتلأت الأيدي من أسلابهم وأمتعتهم ورجع الموحدون إلى فاس يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشعلة لكثرة الخصب يومئذ واعتمار الفدن بالزرع وأصناف الباقي فسميت تلك السنة يومئذ بعام المشعلة وهي سنة ثلاثة عشرة وستمائة، ثم زحف الأمير عبد الحق في ذي الحجة من السنة المذكورة بجامعةبني مرين إلى رباط تازة⁽²⁾ حتى وقف بزياء زيتها فخرج عاملها لحربه في جيش كثيف من الموحدين والعرب والحسد من قبائل تسول ومكناسة وغيرهم فقتلت بنو مرين العامل المذكور وهزموا جيشه.

وجمع عبد الحق الأسلاب والخيل والسلاح وقسم ذلك كله في قبائل بني مرين، ولم يمسك منها لنفسه شيئاً وقال لبنيه: إياكم أن تأخذوا من هذه الغنائم شيئاً فإنه يكفيكم منها الثناء والظهور على أعدائكم.

(1) وتمت المعركة بحفص الوادي ما بين رباط تازا والمقرمدة (الذخيرة السننية ص 27 طبع الجزائر).

(2) راجع الذخيرة السننية في أخبار الدولة المرينية صفحة 31 طبع الجزائر.

حرب بني مرين مع عرب رياح ومقتل الأمير عبد الحق رحمه الله

لما انتصر بنو مرين على أعدائهم الموحدين حصل في نفوسبني عسكر بن محمد من عشيرتهم نفاسة عليهم وضاقت صدورهم من استقلالبني عمهم حمامه بن محمد بالرئاسة دونهم، فخالفوا الأمير عبد الحق وعشيرته إلى مظاهرة الموحدين وأوليائهم من عرب رياح، وكانت رياح يومئذ أشد قبائل المغرب قوة وأقراهم شوكه وأكثراهم خيلاً ورجالاً لحداث عهدهم بالعز والبداؤة، فأغراهم الموحدون يومئذ ببني مرين ليتصفوا لهم منهم واتفقت كلمتهم عليهم وسمعت بنو مرين بإقبال العرب والموحدين وبني عسكر إليهم، فاجتمعوا إلى أميرهم عبد الحق فقالوا له: ما ترى في أمر هؤلاء العرب المقبليين إلينا؟ فقال: يا معاشر مرين أما ما دمتم في أمركم مجتمعين، وفي آرائكم متفقين وكتم على حرب عدوكم أعواناً وفي ذات الله إخواناً، فلا أخشى أن القوى بكم جميع أهل المغرب، وإن اختلفت أهواؤكم وتشتت آراؤكم ظفر بكم عدوكم فقالوا له: «إنا نجدد لك الآن بيعة على السمع والطاعة وأن لا تختلف عليك ولا نفر عنك أو نموت دونك فإنها ضربنا إليهم على بركة الله» فنهض الأمير عبد الحق في جموع بني مرين فكان اللقاء بمقرية من وادي سبو على أميال من تافرطاس فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها وقتل فيها الأمير عبد الحق وكثير أولاده إدريس.

ولما رأيت بنو مرين ما وقع بأميرها وأبنه حميـت وغضـبت وأقسـمت بأيمـانها أـن لا يـدفنـ حتى يـأخذـوا بـشارـه فـصـمـموا العـزـمـ لـقتـالـ رـياـحـ واستـأنـفـوا العـجـدـ لـقـرـاعـهـمـ، وـصـبـرـواـ صـبـراـ جـمـيلـاـ فـنـصـرـهـمـ اللهـ عـلـىـ عـدـوـهـمـ فـهـزـمـواـ رـياـحـاـ وـقـتـلـواـ مـنـهـمـ خـلـقاـ كـثـيرـاـ وـشـرـدـوـهـمـ فـيـ الشـعـابـ وـالـأـوـدـيـةـ وـرـؤـوسـ الـهـضـابـ، وـاحـتـوـاـ عـلـىـ مـاـ كـانـ فـيـ مـحـلـتـهـمـ مـنـ السـلـاحـ وـالـخـيلـ وـالـأـنـاثـ، وـقـامـ بـأـمـرـ بـنـيـ مـرـينـ بـعـدـ هـلاـكـ عـبـدـ الـحقـ اـبـنـهـ عـشـمـانـ عـلـىـ مـاـ نـذـكـرـهـ إـنـ شـاءـ اللهـ.

بقية أخبار الأمير عبد الحق وسيرته

قالوا كان الأمير عبد الحق المرینی مشهوراً في قومه بالتقى والفضل والدين، موسوماً بالصلاح وصحة اليقين معروفاً بالورع والعفاف، موصوفاً في سيرته بالعدل والإنصاف يطعم الطعام ويكتفى الأيتام ويؤثر المساكين، ويحيث على المستضعفين وكانت له بركة معروفة ودعوة مستجابة موصوفة وكانت قلنسوته وسراويله يتبرك بها في جميع أحياه زناته، وكانوا يحملون فضلته وضوئه فيستشفون بها لمرضاهem وكان يسرد الصوم فلا يزال صائماً طول عمره في الحر والبرد لا يرى مفترأ إلا في أيام الأعياد، كثير الذكر والأوراد لا يفتر عنها فيسائر الحالات متحرجاً لأكل الحلال لا يقتات إلا من لحوم إبله وألبانها أو ما يعانيه من الصيد، معظمماً فيبني مرين مطاعماً فيهم يقفون عند أمره ولا يصدرون إلا عن رأيه.

حكى ابن أبي زرع عمن حدثه من الثقات: أنه قدم على أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق في وفد من أعيان فاس وفقهانها وذلك في رمضان سنة ثلاثة وثمانين وستمائة والأمير يعقوب يومئذ برباط الفتح يريد العبور إلى الأندلس يرسم الجهاد قال: فجرى في مجلسه ذكر والده الأمير عبد الحق فقال الأمير يعقوب: «كان الأمير عبد الحق رحمة الله صادق القول إذا قال فعل وإذا عاهد وفي لم يحلف بالله قط بارأ ولا حانثاً ولم يشرب مسکراً قط، ولا ارتكب فاحشة، تضع الحوامل ببركة إزاره متى عسرت عليهن الولادة وكان يسرد الصوم ويقوم أكثر الليل وإذا سمع بخبر صالح أو عابد قصد لزيارتة، واسترهب منه الدعاء شديد الخوف من الصالحين متواضعاً لهم، وكان مع ذلك سماً لأعدائه قاهراً لهم وما وجدنا إلا بركته وبركة من دعا له من الصالحين».

قالوا: وكان الأمير عبد الحق في ابتداء أمره قليل الأولاد فرأى ذات ليلة في منامه كان شعلة أربعة من نار خرجن منه فعملون في جو المغرب ثم احتوين على جميع أقطاره، فكان تأويتها تمليلك بنية الأربعه من بعده وهذا

مثل الرؤيا التي رأها عبد الملك بن مروان من بوله في المحراب أربع مرات فكان تأوي لها أن ولـي الخليفة أربعة من بنـيه الوليد وسليمان ويزيد وهشام . وكان للأمير عبد الحق تسعة من الولدـ: إدريس وهو أكبرـهم وقتل معه في حرب رياح وعثمان ومحمد وأبو بكر ويعقوب وهـلاء الأربـعة هـم الذين ولوا الأمـر بعدهـ، وعبد اللهـ وعبد الرحمنـ ويقال لهـ بلسانـهم رحوـ وزيـانـ وأبو عـيـادـ وبنـتـ هيـ العـاشرـةـ واللهـ أعلمـ.

الخبر عن رياضة الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق رحمة الله

لما فرغـ بنـو مـرينـ من حـربـ رـياـحـ ورجـعواـ من اـتباعـهـ اـجـتمـعواـ إـلـىـ الـأـمـيرـ أبيـ سـعـيدـ عـثـمـانـ بنـ عبدـ الـحقـ وـكـانـ أـكـبـرـ بـنـيـ أـبـيهـ بـعـدـ إـدـرـيسـ فـعـزـوهـ بـمـصـابـ أـبـيهـ وـأـخـيهـ وـبـايـعـوهـ عـنـ رـضـىـ مـنـهـمـ فـاجـتـمـعـتـ عـلـيـهـ كـلـمـتـهـمـ وـلـمـ فـرـغـ الـأـمـيرـ أـبـوـ سـعـيدـ مـنـ تـجـهـيزـ أـبـيهـ وـأـخـيهـ وـدـفـنـهـمـ أـقـسـمـ أـنـ لـاـ يـرـجـعـ عـنـ حـربـ رـياـحـ حـتـىـ يـثـارـ بـمـائـةـ شـيـخـ مـنـهـمـ فـسـارـ إـلـيـهـمـ وـأـثـخـنـ فـيـهـمـ حـتـىـ شـفـىـ نـفـسـهـ وـأـذـعـنـواـ إـلـىـ الطـاعـةـ وـلـاـذـواـ بـالـسـلـمـ، فـسـالـمـهـمـ عـلـىـ إـتـاوـةـ يـؤـدـونـهـ إـلـيـهـ كـلـ سـنـةـ.

ثـمـ ضـعـفتـ شـوـكـةـ الـمـوـحـدـينـ وـتـدـاعـيـ أـمـرـهـمـ إـلـىـ الـاخـتـلـالـ وـأـشـرـفـ مـلـكـهـمـ عـلـىـ رـبـوـةـ الـاضـمـحـلـالـ وـتـقـلـصـ ظـلـ حـكـامـهـمـ عـنـ الـبـدـوـ جـمـلـةـ وـفـسـدـتـ السـابـلـةـ وـاـخـتـلطـ الـمـرـعـىـ بـالـهـمـلـ .

فـلـمـ رـأـيـ الـأـمـيرـ أـبـوـ سـعـيدـ مـاـ عـلـيـهـ أـمـرـ الـمـوـحـدـينـ مـنـ الـضـعـفـ وـمـاـ نـزـلـ بـرـعـاـيـاـ الـمـغـرـبـ مـنـ الـجـورـ وـالـعـسـفـ جـمـعـ أـشـيـاـخـ مـرـينـ وـنـدـبـهـمـ إـلـىـ الـقـيـامـ بـأـمـرـ الـدـينـ وـالـنـظـرـ فـيـ مـصـالـحـ الـمـسـلـمـيـنـ فـأـسـرـعـواـ إـلـىـ إـجـابـتـهـ وـبـادـرـوـاـ لـتـلـيـةـ دـعـوـتـهـ .

فـسـارـ بـهـمـ أـبـوـ سـعـيدـ فـيـ نـوـاحـيـ الـمـغـرـبـ يـتـقـرـىـ مـسـالـكـهـ وـشـعـوبـهـ وـيـتـبـعـ تـلـوـلـهـ وـدـرـوـيـهـ وـيـدـعـوـ النـاسـ إـلـىـ طـاعـتـهـ وـالـدـخـولـ فـيـ عـهـدـهـ وـحـمـاـيـتـهـ، فـمـنـ أـجـابـهـ مـنـهـمـ أـمـنـهـ وـوـضـعـ عـلـيـهـ قـدـرـأـ مـعـلـومـاـ مـنـ الـخـرـاجـ، وـمـنـ أـبـيـ عـلـيـهـ نـابـذـهـ وـأـوـقـعـ بـهـ فـبـايـعـهـ مـنـ قـبـائلـ الـمـغـرـبـ هـوـارـةـ وـزـكـارـةـ ثـمـ تـسـوـلـ وـمـكـنـاسـةـ ثـمـ بـطـوـيـةـ وـفـشـتـالـةـ ثـمـ

سدراته وبهلولة ومديونة ففرض عليهم الخراج وفرق فيهم العمال، ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس ومكناة وتازا وقصر كنامة ضريبة معلومة يؤدونها على رأس كل حول على أن يكف الغارة عنهم ويصلح سبابتهم.

ثم لما كانت سنة عشرين وستمائة غزا بلاد فازاز ومن بها من ظواعن زناتة فأثخن فيهم حتى أذغنا للطاعة وقبض أيديهم عن إذابة الناس بالغارات والنهب في الطرقات.

ثم في سنة إحدى وعشرين بعدها غزا عرب رياح أهل أزغار وببلاد الهبط فأثخن فيهم حتى كاد يأتي عليهم ولم يزل ذله ذلك من تدوين بلاد المغرب وأقطاره حتى هلك باغتيال علچ له كان رياح صغيراً، فشب رسول له الشيطان الفتاك به فترصد غرته وطعنه بحرية في منحره فمات لوفته سنة ثمان وثلاثين.

وكان ذا نجدة وشجاعة وعزم وكرم وإيثار مكرماً للفقهاء وأهل الصلاح سالكاً في ذلك سنن أبيه رحمه الله.

الخبر عن رياضة الأمير أبي معرف محمد بن عبد الحق رحمه الله

لما هلك الأمير أبو سعيد قام بالأمر بعده أخوه أبو معرف محمد بن عبد الحق، فاقتفي سنن أخيه في تدوين بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم من باديته، وبعث الرشيد بن المأمون صاحب مراكش قائده أبياً محمد بن وانودين لحرببني مرين وعقد له على مكناة فأجحف بأهلها في المغارم، ثم نزل بنو مرين في بعض الأحيان بتواجيهها وأجلبوا عليها فنادي أبو محمد في عسكره وخرج إليهم فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبيين، وبارز محمد بن إدريس بن عبد الحق قائداً من قواد الفرنج فاختلفا ضربتين هلك العلچ بإحداهما وجرح محمد بالأخرى فاندلل جرحه وصار أثراً في وجهه لقب من أجله بأبي ضربة، ثم شد بنو مرين على الموحدين فانكشفوا ورجع بن وانودين إلى مكناة مفلولاً.

ويقي بنو عبد المؤمن من أثناء ذلك في مرض من الأيام وتشاكل عن الحماية ثم أومضت دولتهم إيماضة الخمود وذلك أنه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستمائة وولي أخوه علي وتلقب بالسعيد وبايده أهل المغرب انصرفت عزائمه إلى غزوبني مرين، وقطع أطماعهم عما سمت إليه من تملك المواطن فجهز عساكر الموحدين لقتالهم ومعهم قبائل العرب والمصامدة وجموع الفرنج فنهضوا سنة اثنين وأربعين وستمائة في جيش كثيف يناهز عشرين ألفاً، فسمع الأمير أبو معرف بآقالهم فاستعد لقتالهم وزحف إليهم فكان اللقاء بموضع يعرف بصخرة أبي بياش من أحواز فاس فدارت بينهم حرب شديدة وصبر الفريقيان، ولما كان عشي النهار قتل الأمير أبو معرف بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الفرنج تحاماً فعثر فرس أبي معرف به، وأمكنت العلاج فيه الفرصة فاغتنمها وطعنه فمات، فانهزمت بنو مرين وتبعهم الموحدون فاتخذوا الليل جملًا وأسرروا طول ليلهم بحللهم وعيالاتهم وأموالهم فأصبحوا بجبال غياثة من نواحي تازا فاعتاصموا بها أيامًا ثم خرجوا إلى بلاد الصحراء وولوا عليهم أبي بكر بن عبد الحق على ما ذكره، وكانت هذه الواقعة وهلاك الأمير أبي معرف عشية يوم الخميس تاسع جمادي الآخرة سنة اثنين وأربعين وستمائة.

الخبر عن دولة الأمير أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله

هذا الأمير هو الذي رفع من رايةبني مرين وسما بها إلى مرتبة الملك وكنيته أبو يحيى وهو أول من جند الجنود منهم، وضرب الطبول ونشر البنود وملك الحصون والبلاد واكتسب الطارف والتلاط. بایعه بنو مرين بعد مهلك أخيه أبي معرف في التاريخ المتقدم فكان أول ما ذهب إليه ورأه من النظر لقومه: أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبارته بينبني مرين وأنزل كلًا منهم بناحية منه سوغمهم إياها سائر الأيام طعمة لهم وأمر كل واحد من أشياخبني مرين أن يستركب الرجل ويستلحق الأتباع فحسنت حالهم وكثرت غاشيتهم وتوفرت جموعهم.

استيلاء الأمير أبي بكر على مكناسة وبيعة أهلها لابن أبي حفص بواسطته

ثم سار الأمير أبو بكر بمحلته فنزل جبل زرهون ودعا أهل مكناسة إلى بيعة الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص صاحب إفريقية لأنه كان يومئذ على دعوته وفي ولايته، وحاصرها وضيق عليها بمنع المرافق وتrepid الغارات إلى أن أذعنوا لطاعته، فافتتحها صلحًا بداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعيمها أبي الحسن بن أبي العافية وبيعثوا ببيعتهم إلى الأمير أبي زكرياء الحفصي، وكانت البيعة من إنشاء أبي المطراف بن عميرة المخزومي وكان من أعلام ذلك العصر ومشاهيره، ولـي القضاء لبني عبد المؤمن بمدينة سلا، ثم استقضوه بعدها بمكناـسة فشهد هذه القضية وكتب البيعة.

ولما فتح الأمير أبو بكر مكناسة أقطع أخيه يعقوب ثلث جبايتها جزاء له على وساطته وكان فتح مكناسة سنة ثلاثة وأربعين وستمائة، ثم آنس الأمير أبو بكر من نفسه الاستبداد ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الآلة لذلك وسمى بنفسه إلى مرتبة الملك وأعد له عدته وانتهى الخبر إلى السعيد صاحب مراكش بتغلب الأمير أبي بكر على مكناسة وصرفها لابن أبي حفص فوجم لها وفاوض الملاً من أهل دولته في أمره وأراهم كيف اقتطع الأمر عنهم شيئاً فشيئاً حتى لم يبق بيدهم إلا قرارة مراكش وما حولها بعد امتداد ظل ملوكهم على المغاربة وإفريقيا والأندلس.

ثم نهض السعيد من مراكش سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبني مرين أولاً، ثم تلمسان ويغمراسن بن زيان ثانياً ثم إفريقيا وابن أبي حفص آخرًا.

ولما وصل إلى وادي بهت عرض جيوشه وميزها واتصل الخبر بالأمير أبي بكر وهو بمكناـسة فخرج وحده ليلاً يتجمس الأخبار ويستطلع أحوال السعيد وجماعه فتقدـم حتى أشرف على محلـة السعيد من كثـب ولا علم

لأحد به فرأى ما لا طاقة له به ورأى من الرأي أن يتخلّى للسعيد عن البلاد ولا ينجزه الحرب فلتحق بمكناة واستدعيبني مرين من أماكنهم التي عين لهم، فتلاحقوا به وساروا إلى قلعة تازوطا من بلاد الريف فتحصّنوا بها.

وتقديم السعيد إلى مكناة فتلقاء أهلها خاضعين مستشفعين إليه بشيوخهم وصبيانهم فعفّا عنهم، ثم سار إلى فاس فنزل بظاهرها من ناحية القبلة وخرج إليه أشياخها فسلموا عليه وسأله الدخول إلى البلد فتكرم عليهم وأبى، ثم ارتحل إلى رباط تازا فنزل بظاهرها وهناك بعث إليه الأمير أبو بكر ببيعته فقبلها وكتب له ولقومه بالأمان وكان فيما خطبه به الأمير أبو بكر أن قال له: «ارجع يا أمير المؤمنين إلى حضرتك وأنا أكفيك أمر يغمر أسن وأفتح لك تلمسان» فشاور السعيد خاصته في ذلك فقالوا: «لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن الزناتي آخر الزناتي لا يسلمه ولا يخذله وإننا نخاف أن يصطدحا على حربك» فأسعفهم وكتب إلى الأمير أبي بكر يقول له: «أقم بموضعك وابعث إلى بحصة من قومك» فأمده بخمسة مائة منبني مرين وعقد عليها لابن عمه أبي عياد بن أبي يحيى بن حمامة.

وتقديم السعيد إلى تلمسان فكان من هلاكه على قلعة تامزردكت ما قدمناه في أخبار دولته، وكان الأمير أبو بكر لما نزل حصن تازوطا وأهل ذلك الحصن يومئذ هم بنو طاس بطن منبني مرين أجمعوا الفتى به غيرة ونفقة عليه فدس إليه بذلك بعض شيوخهم وأعلمه بما تواظوا عليه من غدره فارتاحل الأمير أبو بكر عنهم إلىبني يزنانس وكانوا نازلين يومئذ بعين الصفا فأقام هناك معهم حتى رجعت إليه الحصة التي كانت مع السعيد وأعلمه بمقتله وافتراق جموعه فانتهز الأمير أبو بكر الفرصة في فل الموحدين واعتراضهم بأكرسيف فاستلبهم وانتزع الآلة من أيديهم وأدار إليه كتيبة الفرنج والناشبة من الأغزار، واتخذ المركب الملوكى من يومئذ ثم أخذ السير إلى مكناة فدخلها واستولى عليها وأقام بها أياماً ثم نهض إلى أعمال وطاط وحصون ملوية فافتتحها ودخل جبالها وذلك أواخر صفر سنة ست وأربعين وستمائة.

استيلاء الأمير أبي بكر على فاس وبيعة أهلها لها

لما فرغ الأمير أبو بكر من فتح حصنون ملوية صرف عزمه إلى فتح فاس وانتزاعها من يدبني عبد المؤمن وكان العامل بها يومئذ السيد أبي العباس منبني عبد المؤمن فأناخ عليها الأمير أبو بكر بخيله ورجله وتلطف في مداخلة أهلها وضمن لهم جميل النظر وحميد السيرة وكف الأذى عنهم، فأجابوه ووثقوا بعهده وغناه وأتوا إلى ظله ورکعوا إلى طاعته وانتحال الدعوة الحفصية بأمره ونبذوا طاعةبني عبد المؤمن يأساً من صريختهم فبایعواه بالرابطة خارج باب الشريعة وحضر هذه البيعة الشيخ أبو محمد الفشتالي ونشدَّه الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذب عنهم وسلوك طريق العدل فيه فكان حضوره ملاك تلك العقدة والبركة التي يتعرف أثراها خلفهم في تلك البيعة.

ودخل الأمير أبو بكر مدينة فاس زوال يوم الخميس السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ست وأربعين وستمائة بعد موت السيد صاحب مراكش بشهرين، ولما دخل الأمير أبو بكر قصبة فاس أمن السيد أبي العباس عامل الموحدين بها وأخرجه من القصبة بعياله وأولاده ويعث معه سبعين فارساً يبلغونه إلى مأمهته فأجازوه وادي أم الربيع ورجعوا.

ثم نهض الأمير أبو بكر إلى منازلة تازا وبها يومئذ السيد أبو علي بن محمد أخو أبي دبوس فنازلها أربعة أشهر حتى نزلوا على حكمه فقتل بعضهم ومن على آخرين منهم وسد ثغورها وأقطع أخاه يعقوب بن عبد الحق رباط تازا وحصنون ملوية ورجع إلى فاس فأقام بها نحو سنة واستقامت له الأمور، وقدمت عليه الوفود وأمر القبائل بالتزول في البسائط وعمارة القرى والمداشر وأمنت الطرقات وتحركت التجار ورخصت الأسعار وصلح أمر الناس واغتبطوا بولايته.

انتقاض أهل فاس على الأمير أبي بكر ومحاصرته إياهم

لما استولى الأمير أبو بكر على المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرنا نهض في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وستمائة إلى معدن العوام من بلاد فازاز لفتح بلاد زناتة وتدمير نواحيها واستخلف على فاس مولاه السعواد بن خرباش من جماعة الحشم أخلافبني مرین وكان الأمير أبو بكر لما فتح فاساً استبقى من كان فيها من عسكربني عبد المؤمن من غير نسبهم على الوجه الذي كانوا عليه من الخدمة مع الموحدين، وكان من جملتهم طائفة من النصارى نحو المائتين، وعليهم قائد منهم يقال له شريد الفرنسي فكانوا من حصة السعواد هنالك، فوُقعت بينهم وبين شيعة الموحدين من أهل فاس مداخلة وعزم الفاسيون على الفتنة بالسعواد وتحويل الدعوة إلى المرتضى فاجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمن المغيلي وفاضبوه في ذلك فوافدهم على رأيهم، فاستدعوا شريداً وقالوا له: «قتل هذا الأسود وتبسيط البلد حتى نكتب إلى المرتضى فيبعث إلينا من يقوم بأمرنا» فأجابهم إلى ذلك وكان ميله إلى الموحدين وهواد معهم لكونه صنيعهم وكان الذي مشى في هذه الثورة وتولى كبرها المشرف ولد القاضي المذكور وابن جشار وأخوه وابن أبي طاط وولده.

فلما كانت صبيحة الثلاثاء الموفي عشرين من شوال سنة سبع وأربعين وستمائة طلع الأشياخ المذكورون إلى القصبة للسلام على السعواد على عادتهم في ذلك فدخلوا عليه بمجلس حكمه وهاجوه ببعض المحاورات فغضب وانتهروه فوثبوا به ونادوا بشعارهم وكان شريد الفرنسي واقفاً في عسكره أمام القصبة قد واطأهم على ذلك فاقتجم على السعواد فقتله وقتل معه أربعين من رجاله واحتز العامة رأسه ورفعوه على عصا وطافوا به في أسواق البلد وسککها واقتحموا القصر فانتهيوا وسبوا الحرم ونصبوا النصراني لضبط البلد ويعثروا ببيعتهم إلى المرتضى صاحب مراكش واتصل الخبر بالأمير أبي بكر وهو منازل بلاد فازاز فأفرج عنها وأخذ السير إلى فاس فأناخ عليها بعساكره وشمر لحصارها وقطع المادة عنها.

وبعث أهل فاس إلى المرتضى بالصريح فلم يرجع إليهم قولاً ولا ملك لهم ضرراً ولا نفعاً ولا وجد لكشف ما نزل بهم حيلة ولا وجهاً، سوى أنه استجاش على الأمير أبي بكر بغماسن بن زيان صاحب تلمسان وأمله لكشف هذه النازلة عمن انحاش إلى طاعته فأجابه بغماسن إلى ذلك وطبع أن يكون ذلك سبباً له في تملك المغرب وسلمأً للصعود إلى ذروة ملكه فاحتشد لحركته ونهض من تلمسان للأخذ بحجزة الأمير أبي بكر عن فاس وأهلها.

وأتصل بالأمير أبي بكر خبر نهوضه إليه لتسعة أشهر من منازلته فاساً، فجمر الكتائب عليها وصمد إليها قبل فصوله عن تخوم بلاده فلقى بوادي ايسلي من بسيط وجدة فتزاحف القوم وكانت ملحمة عظيمة هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد إبراهيم بن هشام منبني عبد الواد.

ثم انكشفت بنو عبد الواد ونجا بغماسن بن زيان إلى تلمسان برأس طمرة ولجام وترك محلته بما فيها فاحتوى عليها الأمير أبو بكر وإنكفاً راجعاً إلى فاس للأخذ بمختنقها فوصل إليها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وستمائة وأنماخ عليها بكلكله واستأنف الجد وأرهف الحد وشدد في الحصار وأيُّس أهل فاس من إغاثة المرتضى وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ولم يجدوا ولبيجة من دون مراجعة طاعةبني مرين فسألوا الأمير أبي بكر الأمان فبدله لهم على غرم ما أتلفوا له بالقصر من المال يوم الثورة وقدره مائة ألف دينار فتحملوها وأمكنته من قياد البلد فدخلها في الثالث والعشرين من الشهر المذكور فأقام بها إلى رجب الموالي له وطالهم بالمال فسوفوه وتلروا في المقال.

فلما رأى ذلك منهم قبض على جماعة من أشياخها وأمنائها وأنقلهم بالحديد وطالهم بالمال والأثاث الذي انتبهوه من القصر فقال له شيخ يعرف بابن الخيا: «إنما فعل الذنب منا ستة فكيف تهلكنا بما فعل السفهاء متى؟ ولو فعل الأمير ما أشير به عليه لكان صواباً من الرأي» فقال: «وما ذلك؟» قال: «تعتمد إلى هؤلاء التفرستة الذين سعوا في الفتنة فتأخذن رؤوسهم وتشرد بهم من خلفهم ثم تأخذنا نحن بغرم المال» فقال: «العمري لقد أصبت».

ثم أمر بالقاضي المغيلي وابنه وابن أبي طاط وابنه وابن جشار وأخيه فقتلوا ورفعت على الشرفات رؤوسهم وأخذ الباقين بغنم المال طوعاً وكراهاً قال ابن خلدون: «فكان ذلك مما عبد رعية فاس وقادها لأحكامبني مرين وضرب الرهب على قلوبهم فخسعت منهم الأصوات وانقادت منهم الهمم ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمض يد في فتنة» وكان مقتل النفر المذكورين خارج باب الشريعة يوم الأحد الثامن من رجب المذكور.

استيلاء الأمير أبي بكر على مدينة سلا ثم ارجاعها منه وهزيمة المرتضى بعد ذلك

لما أكمل الله للأمير أبي بكر فتح مدينة فاس واستوسع أمربني مرين بها رجع إلى ما كان فيه من منازلة بلاد فازاز فافتتحها ودوخ أوطان زناة واقتضى مغارتهم وحسم علل الشairين بها، ثم تخطى ذلك إلى مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين وستمائة فملكها وتاخم الموحدين بشرها، واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق وعقد له على ذلك الثغر وضم الأعمال إليه.

ويبلغ الخبر بذلك إلى المرتضى بمراكش فأهمه الشأن وأحضر الملا من الموحدين وفاوضهم واعتزم على حرببني مرين وسرح العساكر سنة خمسين وستمائة فأحاطت بسلا ثم افتتحوها وعادت إلى طاعة المرتضى وعقد عليها لأبي عبد الله بن يعلو من مشيخة الموحدين ثم أجمع المرتضى النهوض بنفسه إلىبني مرين فبعث في المداير والقبائل حاشرین فأهرعت إليه أمم الموحدين والعرب والمصامدة وغيرهم وفصل من مراكش سنة ثلاثة وخمسين وستمائة في نحو الثمانين ألفاً، ووالى السير حتى انتهى إلى جبال بهلولة من نواحي فاس وصمد إليه الأمير أبو بكر في عساكربني مرين ومن اجتمع إليهم من ذويهم.

والتقى الجمuan هناـلـك وصـدقـهـم بـنـوـمـرـيـنـالـجـلـادـفـاخـتـلـمـصـافـ
الـمـوـحـدـيـنـ وـانـهـزـمـتـ عـسـاـكـرـ الـمـرـتـضـىـ وـأـسـلـمـهـ قـوـمـهـ وـرـجـعـ إـلـىـ مـرـاكـشـ
مـفـلـوـلـاـ،ـ وـاسـتـولـىـ بـنـوـمـرـيـنـ عـلـىـ مـعـسـكـرـهـ وـاسـتـابـاحـواـ سـرـادـقـهـ وـاتـهـبـواـ فـسـاطـيـطـهـ
وـغـنـمـوـاـ جـمـيـعـ ماـ وـجـدـوـ بـهـاـ مـنـ الـعـالـىـ وـالـذـخـرـىـ وـاسـتـاقـوـاـ سـاـنـرـ الـكـرـاعـ
وـالـظـهـرـ،ـ وـامـتـلـأـتـ أـيـدـيـهـمـ مـنـ الغـنـائـمـ وـاعـتـزـ أـمـرـهـمـ وـانـبـسـطـ سـلـطـانـهـمـ وـكـانـ يـوـمـاـ
لـهـ مـاـ بـعـدـهـ،ـ وـفـيـ الـقـرـطـاسـ أـنـ انـهـزـامـ جـيـشـ الـمـرـتـضـىـ فـيـ هـذـهـ الـمـرـةـ كـانـ عـنـ
جـوـلـانـ فـرـسـ بـيـنـ أـخـيـتـهـمـ لـيـلاـ فـحـسـبـواـ أـنـ بـنـيـ مـرـيـنـ قـدـ أـغـارـوـاـ عـلـيـهـمـ فـانـهـزـمـوـاـ
لـاـ يـلـوـونـ عـلـىـ شـيـءـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ.

ثـمـ غـزاـ الـأـمـيـرـ أـبـيـ بـكـرـ بـعـدـ هـذـاـ بـلـادـ تـادـلـاـ فـاسـتـابـاحـ حـامـيـتـهاـ مـنـ بـنـيـ جـاـبـرـ
عـرـبـ جـشـمـ وـاسـتـلـحـمـ أـبـطـالـهـمـ وـأـلـانـ مـنـ جـدـهـمـ وـخـضـدـ مـنـ شـوـكـتـهـمـ وـفـيـ
خـلـالـ هـذـهـ الـحـرـوـبـ كـانـ مـقـتـلـ عـلـيـ بـنـ عـثـمـانـ بـنـ عـبـدـ الـحـقـ وـهـوـ اـبـنـ أـخـيـ
الـأـمـيـرـ أـبـيـ بـكـرـ شـعـرـ مـنـ بـفـسـادـ الـدـخـيـلـةـ وـالـإـجـمـاعـ لـلـتـوـثـبـ عـلـىـ الـأـمـرـ فـدـسـ
لـاـبـنـهـ أـبـيـ حـدـيدـ مـفـتـاحـ بـنـ أـبـيـ بـكـرـ بـقـتـلـهـ فـقـتـلـهـ فـيـ جـهـاتـ مـكـنـاسـةـ سـنـةـ إـحـدـىـ
وـخـمـسـيـنـ وـسـمـيـةـ وـالـلـهـ تـعـالـىـ أـعـلـمـ.

استيلاء الأمير أبي بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة

لـمـ كـانـ سـنـةـ خـمـسـ وـخـمـسـيـنـ وـسـمـيـةـ نـهـضـ الـأـمـيـرـ أـبـيـ بـكـرـ إـلـىـ مـحـارـبـةـ
يـغـمـرـاسـنـ بـنـ زـيـانـ وـسـمـعـ بـهـ يـغـمـرـاسـنـ فـنـهـضـ إـلـيـهـ أـيـضاـ،ـ فـكـانـ الـلـقـاءـ بـأـبـيـ
سـلـيـطـ فـاقـتـلـوـاـ وـانـهـزـمـ يـغـمـرـاسـنـ وـاعـتـزـ أـمـرـ الـأـمـيـرـ أـبـيـ بـكـرـ عـلـىـ اـتـبـاعـهـ فـثـنـاهـ عـنـ رـأـيـهـ
فـيـ ذـلـكـ أـخـوـهـ يـعـقـوبـ بـنـ عـبـدـ الـحـقـ لـعـهـدـ تـأـكـدـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ يـغـمـرـاسـنـ فـرـجـعـ.

وـلـمـ اـنـتـهـىـ إـلـىـ الـمـقـرـمـةـ مـنـ أـحـواـزـ فـاسـ بـلـغـهـ أـنـ يـغـمـرـاسـنـ قـصـدـ
سـجـلـماـسـةـ وـدـرـعـةـ لـمـداـخـلـةـ كـانـ لـهـ مـنـ بـعـضـ أـهـلـهـاـ وـعـورـةـ أـطـمـعـتـهـ فـيـ مـلـكـهـاـ
فـأـسـرـ الـأـمـيـرـ أـبـيـ بـكـرـ السـيـرـ بـجـمـوعـهـ إـلـىـ سـجـلـماـسـةـ فـدـخـلـهـاـ قـبـلـ وـصـوـلـ
يـغـمـرـاسـنـ إـلـيـهـاـ بـيـوـمـ،ـ ثـمـ جـاءـ يـغـمـرـاسـنـ حـتـىـ نـزـلـ خـارـجـهـاـ بـبـابـ تـاـحـسـنـتـ
وـسـقـطـ فـيـ يـدـهـ وـيـشـ منـ غـلـبـةـ الـأـمـيـرـ أـبـيـ بـكـرـ عـلـيـهـاـ وـدارـتـ بـيـنـهـمـاـ حـربـ تـكـافـأـ

الغريقان فيها وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الأمير أبي بكر، وانقلب يغمراسن إلى بلده وعقد الأمير أبو بكر على سجله ماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن واستعمل على الجباية عبد السلام الأولي وجعل مسلحة الجندي بها لنظر أبي يحيى القطرياني وملكه قيادتهم وانكفاً راجعاً إلى فاس والله تعالى أعلم.

وفاة الأمير أبي بكر رحمة الله

لما رجع الأمير أبو بكر من حرب يغمراسن على سجله ماسة أقام بفاس أيامًا ثم نهض إلى سجله ماسة أيضًا متقدداً لشغورها فانقلب منها علياً ووصل إلى فاس فتوفي بقصره من قصبتها أواسط رجب سنة ست وخمسين وستمائة ودفن داخل باب الجيزين من أبواب عدوة الأندلس بزاية الشيخ أبي محمد الفشتالي حسبما أوصى بذلك وتصدى للقيام بالأمر بعده ابنه عمر على ما نذكره.

الخبر عن دولة أبي حفص الأمير عمر بن أبي بكر بن عبد الحق رحمة الله

لما مات الأمير أبو بكر رحمة الله اشتمل العامة منبني مرين على ابنه أبي حفص عمر فباعوه ونصبوه للأمر وتباروا في خدمته، ومالت المشيخة وأهل العقد والحل إلى عميه يعقوب بن عبد الحق وكان غائباً عند مهلك أخيه بتازا فلما بلغه الخبر أسرع لللحق بفاس وتوجهت إليه وجوه الأكابر، وأحسن عمر بميل الناس إلى عميه يعقوب فقلق لذلك وأغراه أتباعه بالفتنة بعمه فاعتتصم بالقصبة، ثم سعى الناس في الإصلاح بينهما فتفادى يعقوب من الأمر ودفعه إلى ابن أخيه على أن تكون له بلاد تازا وبطوية وملوية التي كان أقطعه إياها أخوه من قبل، فانفصلوا على ذلك وخلص الأمر لعمر واستمر بفاس أشهراً إلى أن غالب عليه عممه المذكور حسبما نقص عليك.

الخبر عن دولة السلطان المنصور باش يعقوب بن عبد الحق رحمة الله

هذا السلطان جليل القدر عظيم الشأن وهو سيدبني مرين على الإطلاق وستسمع من أخباره الحسنة ما يستغرق الوصف ويستوقف السمع والطرف وهو رابع الإخوة الأربع الذين ولوا الأمر بالمغرب من بني عبد الحق وكانت أمها وأسمها أم اليمن بنت علي البطوي رأت وهي بكر كأن القمر خرج من قبليها حتى صعد إلى السماء وأشارق نوره على الأرض فقصت رؤيابها على أبيها فسار إلى الشيخ الصالح أبي عثمان الوريacky فقصتها عليه فقال: إن صدقت رؤيابها فستلده ملكاً عظيماً فكان كذلك. ولما انفصل الأمير يعقوب بن عبد الحق عن ابن أخيه عمر بولاية تازا وما أضيف إليها اجتمع إليه كافة بني مرين وعدله فيما كان منه من التخلّي عن الملك وحملوه على العود في الأمر ووعدهم من أنفسهم المظاهرة والنصر إلى أن يتم أمره فأجابوا وبايعوه وصمد إلى فاس فierz الأمير عمر للقاء.

ولما تراءى الجماعان خذل عمر جنوده وأسلموه فرجع إلى فاس مفلولاً ووجه الرغبة إلى عممه أن يقطعه مكناسة وينزل له عن الأمر، فأجابه إلى ذلك ودخل السلطان يعقوب مدينة فاس فملكها سنة سبع وخمسين وستمائة ونفذت كلمته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم الريبي وما بين سجلمامسة وقصر كتمة واقتصر عمر على إمارة مكناسة فتولاها أياماً ثم اغتاله بعض عشيرته فقتلواه ل نحو سنة من إمارته فكفى الأمير يعقوب أمره واستقام سلطانه وذهب التنازع والشقاق عن ملوكه.

وكان يغمراسن بن زيان لما سمع بموت قرنه الأمير أبي بكر سما له أمل في الإجلاب على المغرب فجمع لذلك قومه من بني عبد الواد واستظهر بيني توجين ومغراوة ووعدهم ومناهم وأطعهم في غيل الأسد، ثم نهض بهم إلى المغرب حتى إذا انتهوا إلى كلدامان صمد إليهم الأمير يعقوب ففليهم وردهم على أعقابهم ومر يغمراسن في طريقه بتافرسية من بلاد بطوية فأحرق

وانسف واستباح وأعظم التكاثة ورجع الأمير يعقوب إلى فاس واقتفي مذهب أخيه الأمير أبي بكر في فتح أمصار المغرب وتذويخ أقطاره وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنفاذ مدينة سلا من أيدي نصارى الإصينيول فكان له بها أثر جميل وذكر خالد رحمة الله.

استيلاء نصارى الإصينيول على مدينة سلا وإيقاع السلطان يعقوب بهم وطردهم عنها

كان يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق قد استعمله عمه الأمير أبو بكر بن عبد الحق على مدينة سلا لما ملكها كما ذكرناه ولما استرجعها الموحدون من يده أقام يتقلب في جهاتها متربصاً للفرصة وإمكانها فيها ولما بويع عمه السلطان يعقوب بن عبد الحق آسفته بعض الأحوال منه فذهب مغاضباً حتى نزل عين غبولة وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعدهم ذريعة لما أسر في نفسه من التوبيخ على الأمر فتمت له الحيلة وملك سلا وركب عاملها أبو عبد الله بن يعلو البحر فارأى إلى آزمور وخلف أمواله وحرمه، فتملك يعقوب بن عبد الله ذلك وتمكن من البلد وجاهر بالخلع، وصرف إلى منازعة عمه السلطان يعقوب وجوه العزم وتمكنت الوحشة بين اليعقويين.

وداخل يعقوب سلا تجار الحرب من الإصينيول في الإمداد بالسلاح فتباروا في ذلك وكثرت سفن المترددين منهم إليها حتى كثروا أهلها وزاد عددهم فعزموا على الثورة بها واهتبوا فيها غرة عيد الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمائة عند اشتغال الناس بعيدهم وثاروا سلا في اليوم الثاني من شوال فوضعوا السيف في أهلها وقتلوا الرجال وسبوا الحرم وانتهبو الأموال وكان الحادث بها عظيماً وضيّطوا البلد وتحصن يعقوب بن عبد الله برباط الفتح.

وطار الصريح إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق وهو يومئذ بمدينة تازا

دخلها أوائل شعبان من السنة المذكورة لاستشراف أحوال يغمرASN بن زيان فوصل إليه الخبر في اليوم الرابع من شوال المذكور فنهض السلطان يعقوب من فوره بعد أن صلى العصر بتازا من ذلك اليوم فأسرى ليته تلك في نحو الخمسين فارساً ومن العد صلى العصر بظاهر سلا فكان قطعه مسافة ما بينهما في يوم وليلة، وهذا أمر خارق للعادة بلا شك أظهره الله على يد هذا السلطان لصدق عزمه وحسن نيته وإلا فالمسافة ما بين تازا وسلا ست مراحل أو أكثر، ثم تلاحت به جيوش المسلمين من القبائل المتطوعة من جميع آفاق المغرب فحاصر النصارى بها وضيق عليهم ووالى القتال عليهم بالليل والنهار حتى اقتحموا عليهم عنوة لأربع عشرة ليلة من حصارها وأثخن فيهم بالقتل ونجا من نجا منهم إلى سفنهم فنشروا قلوعهم وذهبوا يلتقطون ورائهم، ثم شرع السلطان يعقوب رحمة الله في بناء سور الغربي من سلا الذي يقابل الوادي منها فإنها كان لا سور لها من تلك الجهة من أيام عبد المؤمن بن علي فإنه كان قد هدم أسوار قواعد المغرب مثل فاس وسبتة وسلا حسبما قدمنا الخبر عنه في دولته ومن هذه الثلثة كان دخول النصارى إلى سلا فشرع السلطان يعقوب رحمة الله في بنائه فبناءه من أول دار الصناعة قبلة إلى البحر جوفاً وكان رحمة الله يقف على بنائه بنفسه ويناول الحجر بيده ابتعاء ثواب الله وتواضعه وسعياً في صلاح المسلمين حتى تم السور المذكور على أحسن وجه وأكمله.

ودار الصناعة المذكورة في هذا الخبر هي الدار التي كانت تصنع بها الأساطيل البحرية والمراتك الجهادية يجلب إليها العود من غابة المعمرة فتصنع هنالك ثم ترسّل في الوادي وكان ذلك من الأمر المهم في دولة الموحدين حسبما سلف قال في الجندة: «دار الصناعة بسلا بناتها المعلم أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج من أهل إشبيلية وكان من العارفين بالحيل الهندسية ومن أهل المهارة في نقل الأجرام ورفع الأنقال بصيراً باتخاذ الآلات الحربية الجافية» اهـ.

وأما يعقوب بن عبد الله الثائر فإنه خشي بادرة السلطان يعقوب بن

عبد الحق فخرج من رباط الفتح وأسلمه فضيبيطه السلطان وثقفه ثم نهض إلى بلاد تأمسنا فاستولى عليها وملك مدينة آنفـ وهي المسمـة الآـن بالدار البيضاء، فضيبيـتها ولحقـ يعقوـب بن عبد الله بـ حصن عـلودـان من جـبال غـمارـة فـامتـنـعـ به وـسـرـحـ السـلـطـانـ اـبـنهـ أـبـاـ مـالـكـ عبدـ الـواـحـدـ وـعلـيـ بنـ زـيـانـ لـمنـازـلـهـ وـسـارـ هوـ إـلـىـ لـقـاءـ يـغـمـراـسـنـ فـلـقـيـهـ وـعـقـدـ معـهـ الـمـهـادـنـةـ وـافـتـرـقـاـ عـلـىـ السـلـمـ وـوـضـعـ أـوـزـارـ الـحـربـ وـرـجـعـ السـلـطـانـ إـلـىـ الـمـغـرـبـ فـخـرـجـ عـلـيـ بـنـوـ أـخـيـهـ إـدـرـيـسـ عـلـىـ مـاـ نـذـكـرـهـ.

خروج بنى إدريس بن عبد الحق على عهم السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمـهـ الله

قد تقدم لنا أن الأمير عبد الحق المريني كان له تسعه من الولد أكبرهم إدريس وقتل مع والده في حرب رياح وكان لإدريس هذا عـدة أولـادـ بـقاـواـ فيـ كـفـالـةـ أـعـماـمـهـ وـلـمـ أـفـضـيـ الأـمـرـ إـلـىـ السـلـطـانـ يـعـقوـبـ وـكـانـ أـوـلـادـ إـدـرـيـسـ قدـ مـلـكـواـ أـمـرـ أـنـفـسـهـمـ وـاشـتـدـتـ شـكـيمـتـهـمـ فـنـفـسـوـاـ عـلـيـ ماـ آـتـاهـ اللهـ مـنـ الـمـلـكـ وـرـأـواـ أـنـهـ أـحـقـ بـهـ مـنـ لـأـبـاهـمـ هـوـ الـأـكـبـرـ مـنـ وـلـدـ عبدـ الحقـ كـمـاـ مـرـ فـخـرـجـواـ عـلـىـ عـهـمـ يـعـقوـبـ وـلـحـقـواـ بـقـصـرـ كـتـامـةـ وـتـابـعـواـ اـبـنـ عـهـمـ يـعـقوـبـ بنـ عبدـ اللهـ عـلـىـ رـأـيـهـ وـاجـتـمـعـواـ إـلـىـ كـبـيرـهـ مـحـمـدـ بنـ إـدـرـيـسـ بنـ عبدـ الحقـ وـانـضمـ إـلـيـهـ مـنـ كـانـ عـلـىـ رـأـيـهـ مـنـ عـشـيرـتـهـ وـمـوـالـيـهـ وـاعـتصـمـواـ بـجـبـالـ غـمـارـةـ فـنـهـضـ إـلـيـهـمـ السـلـطـانـ يـعـقوـبـ وـتـلـطـفـ بـهـمـ حـتـىـ اـسـتـنـزـلـهـمـ وـاسـتـرـضـاهـمـ وـعـقـدـ لـعـامـرـ بنـ إـدـرـيـسـ مـنـهـمـ سـنـةـ سـتـينـ وـسـتـمـائـةـ عـلـىـ عـسـكـرـ مـنـ ثـلـاثـةـ آـلـافـ فـارـسـ أوـ يـزـيدـونـ مـنـ الـمـتـطـوـعـةـ مـنـ بـنـيـ مـرـيـنـ وـأـغـزـاهـمـ الـأـنـدـلـسـ لـجـهـادـ الـعـدـوـ بـهـاـ وـحـلـهـمـ وـفـرـضـ لـهـمـ فـيـ الـعـطـاءـ وـشـفـعـ بـهـذـهـ الـفـعـلـةـ الـحـسـنـةـ عـمـلـهـ فـيـ وـاقـعـةـ سـلاـ وـهـوـ أـوـلـ جـيـشـ عـبـرـ الـبـحـرـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ مـنـ بـنـيـ مـرـيـنـ فـكـانـ لـهـمـ فـيـ الـجـهـادـ وـالـمـرـابـطـةـ مـوـاـقـفـ مـذـكـورـةـ وـمـقـامـاتـ مـحـمـودـةـ تـبـعـ الـخـلـفـ فـيـهـاـ السـلـفـ وـدـامـ ذـلـكـ فـيـهـمـ بـرـهـةـ مـنـ الـدـهـرـ وـقـامـواـ عـنـ أـهـلـ الـمـغـرـبـ وـالـأـنـدـلـسـ بـهـذـاـ الـوـاجـبـ الـعـظـيمـ رـحـمـهـ اللهـ وـجـزـاهـمـ عـنـ الـمـسـلـمـينـ خـيـراـ.

وأما يعقوب بن عبد الله صاحب سلا فإنه أقام خارجاً بالتواحي متقدلاً في الجهات إلى أن قتله طلحة بن محلبي من أولياء السلطان يعقوب على ساقية غبولة من ناحية رباط الفتح سنة ثمان وستين وستمائة فكفى السلطان يعقوب أمره.

حصار السلطان يعقوب حضرة مراكش ونزوح أبي دبوس منها إليه وهلاك المرتضى بعد ذلك

لما فرغ السلطان يعقوب من شأن الخارجين عليه من عشيرته أجمع رأيه لمنازلة المرتضى والموحدين في دارهم وحضرتهم ورأى أنه أوهن لشوكتهم وأقوى لأمره عليهم، فبعث في قومه وحشد أهل مملكته واستكمل التعبئة وسار سنة ستين وستمائة حتى انتهى إلى جبل جيليز فشارف دار الخلافة ونزل بعقرها وأخذ بمخنقتها وخفقت ألويته على جنباتها، وعقد المرتضى على حربه لأبي دبوس إدريس بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن فعبأ كثابه ورتب مصافه ويرز لمدافعتهم ظاهر الحضرة فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها هلك فيها الأمير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق ففت مهلكه في عضدهم وارتحلوا عنها إلى أعمالهم واعتبرضتهم عساكر الموحدين بوادي أم الربيع وعليهم يحيى بن عبد الله بن واتودين فاقتتلوا في بطن الوادي وانهزمت عساكر الموحدين هزيمة شنعاء وتركوا الأموال والأثاث فاحتوى بنو مرین على ذلك كله وهي واقعة أم الرجال.

ثم سعى سماسة الفتنة عند الخليفة المرتضى في ابن عمّه وقائد حربه أبي دبوس بأنه يطلب الأمر لنفسه وشعر هو بالسعادة في جانبه فخشى بادرة المرتضى ولحق بالسلطان يعقوب سنة إحدى وستين وستمائة عند دخوله إلى فاس من محاصره مراكش فأقام عنده ملياناً ثم سأله الإعانة على أمره بعسكر يمدّه به وألة يتخذها لملكه وما يصرفه في ضرورياته، على أن يشركه في

الفتح والغنية والسلطان فأمده السلطان يعقوب بخمسة آلاف من بنى مرین وبالمستجاد من الآلة والكافية من المال وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل مملكته وغيرهم أن يكونوا معه يداً واحدة حتى يبلغ مراده في فتح مراكش، وسار أبو دبوس في الكتاب حتى شارف الحضرة ودس إلى أشياعه من الموحدين بأمره فشاروا بالمرتضى فكان من فراره إلى آزمور ونزلوه على صهره ابن عطوش ومقتله على يده ما قدمنا ذكره في دولته، واستتب أمر أبي دبوس بمراكش وثبت قدمه بها فبعث إليه السلطان في الوفاء بالمشارطة فاستكشف واستكثرو ونقض العهد وأساء الرد فنهض إليه السلطان يعقوب في جموع بنى مرین وعساكر المغرب فخام عن اللقاء واعتصم بالأسوار فزحف إليه السلطان يعقوب وحاصره أيامًا ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزروع وينسف الأقوات وعجز أبو دبوس عن مدافعته فاستجاش عليه بيغمراسن بن زيان ليفت في عضده ويشغله بما وراءه فكان ما ذكره.

وقعة تلاع بين يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان

لما نزل السلطان يعقوب حضرة مراكش وربض على تراثه للتثبت عليها لم يجد أبو دبوس ملجاً من دون الاستظهار عليه بيغمراسن بن زيان ليأخذ بحجزته عنها فبعث إليه بالصريح في ذلك وأكذ العهد وأسنى الهدية فشرم يغمراسن لاستنقاؤه وجذب السلطان يعقوب عنه من خلفه بشن الغارات على ثغور المغرب وإيقاد نار الفتنة بها، فهاج عليه من السلطان يعقوب ليث عادي وأرهف منه حدةً ماضياً فأفرج للوقت عن مراكش ورجع عوده على بدئه يريد تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان فنزل فاساً وتلوم بها أيامًا حتى أخذ أهبة الحرب وعدة النزال ثم نهض إلى تلمسان متتصف محرم سنة ست وستين وستمائة وسلك على أكرسيف ثم على تافرطاست.

وتزاحف الفريقيان بوادي تلاغ وعباً كل منهما كتائبه ورتب مصافه ويرز النساء في القباب سافرات على سبيل التحرير والتحرير والتجم القتال وطال القراع والنزال، ولما فاء الفيء وما النهار وكثرت حشود بني مرین جموع بني عبد الواد ومن إليهم انكشفوا ومنحوا العدو أكتافهم وهلك في الحومة أبو حفص عمر بن يغمراسن بن زيان وكان كبير أولاده وولي عهده وهلك معه جماعة من عشيرته، ولما انهزم بنو عبد الواد بقي يغمراسن في ساقتهم حامياً لهم من بني مرین أن تركبهم من خلفهم فكان رداء لهم إلى أن وصلوا إلى بلادهم، وكانت وقعة تلاغ يوم الاثنين الثاني عشر من جمادی الأخيرة من السنة المذكورة ورجع السلطان يعقوب إلى مكانه من حصار مراكش والله غالب على أمره.

فتح حضرة مراكش ومقتل أبي دبوس وانقراض دولة الموحدين بها

لما قفل السلطان يعقوب من حرب يغمراسن صرف عزمه إلى غزو مراكش والعود إلى حصارها كما كان أول مرة فنهض إليها من فاس في شعبان سنة ست وستين وستمائة ولما عبروا وادي أم الريح بث السرايا وشن الغارات وأطلق الأعنة والأيدي للنهب والعبيث فحطموا زروعها وانتسفوا آثارها وتقرى نواحيها كذلك بقية عامه، ثم غزا عرب الخلط من جشم بتادلا فأثخن فيهم واستباحهم، ثم نزل وادي العبيد فأقام هنالك أيام ثم غزا بلاد صنهاجة فاستباحها ولم يزل ينقل ركابه في أحواز مراكش ويجوس خلالها إلى آخر ذي القعدة من سنة سبع وستين وستمائة فاجتمع أشياخ القبائل من العرب والمصامدة عند أبي دبوس وقالوا له: «يا مولانا كم تبعد عن حرب بني مرین وقد ترى ما نزل بنا في حريمنا وأموالنا منهم فاخبر بنا إليهم لعل الله يجعله سبب الفتح فإنهم قليلون وجمهورهم ذوو الشوكة منهم قد بقوا

برباط تازا لحراسة ذلك الشغر من بني عبد الواد ولم يزالوا يفتلون له في الذورة والغارب حتى أجابهم إلى رأيهم فاستعد للحرب ويرز من حضرة مراكش في جيوش ضخمة وجموع وافرة، فاستجره السلطان يعقوب بالفارار أمامه ليبعد عن مدد الصريخ فيستمken منه، فلم يزل أبو دبوس يسعى خلفه حتى نزل ودفعوا فحيثئذ كر عليه السلطان يعقوب فالتحمت الحرب واحتل مصاف أبي دبوس وفر يسابق إلى مراكش وأين منه مراكش فأدركته الخيول وحطمه الرماح فخر صريعاً واحتز رأسه وجيء به إلى السلطان يعقوب فسجد شكرأ الله تعالى وذلك يوم الأحد ثاني محرم سنة ثمان وستين وستمائة، ثم تقدم السلطان يعقوب نحو مراكش وفر من كان بها من الموحدين إلى تينملل وباعوا إسحاق أخي المرتضى فبقي ذباله هنالك إلى أن قبض عليه سنة أربع وسبعين وستمائة وجيء به في جماعة من قومه إلى السلطان يعقوب فقتلوا جميعاً وانقض أمر بني عبد المؤمن والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ثم خرج الملا وأهل الشورى من الحضرة إلى لقاء السلطان يعقوب ففرح بهم وأمنهم ووصلهم، ودخل مراكش في عسكر ضخم وموكب فخم يوم الأحد التاسع من محرم المذكور وورث ملك آل عبد المؤمن وتملاه واستوسق أمره بالمغرب وتطامن الناس لباسه وسكنوا لظل سلطانه، وأقام بمراكش إلى رمضان من سنته ثم أغزا ابنه الأمير أبا مالك عبد الواحد بن يعقوب بلاد السوس فافتتحها وأوغل في ديارها ودوخ أقطارها ورجع إلى أبيه واستمر السلطان يعقوب بمراكش يصلح شؤونها إلى رمضان من سنة تسع وستين وستمائة فخرج بنفسه إلى بلاد درعة فأوقع بعربيها الوقعة المشهورة التي خضدت من شوكتهم ورجع لشهرين من غزاته، ثم أجمع الرحلة إلى دار ملكه بفاس فعقد على مراكش لمحمد بن علي بن يحيى من كبار أوليائهم ومن أهل خولته وكان من طبقة الوزراء وأنزله بقصبة مراكش وجعل المسالح في أعمالها لنظره وعهد إليه بتذويغ الأقطار ومحو آثاربني عبد المؤمن وفصل من مراكش قاصداً حضرة فاس في شوال من السنة المذكورة والله تعالى أعلم.

مراسلة السلطان أبي عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصي للسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمهما الله

كانت دولة بنى أبي حفص أصحاب تونس وإفريقيا فرعاً من دولة بنى عبد المؤمن وشعبة منها حسبما نبهنا عليه غير مرة، ولما ضعفت دولة بنى عبد المؤمن بمراكب والمغرب كان صاحب إفريقيا أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد الهاشمي يأمل الاستيلاء عليها والتملك لها ويتنمى ذلك لو ساعده القدر لأنّه كان يرى أنه أولى بتلك الحضرة من غيره حتى من بنى عبد المؤمن لأنّها أرض سلفه وموطن أصله وعشيرته لأنّ عمالة مراكش لم تعرف إلا للمصادمة من قديم الزمان وقبيلة هناتنة هي صميمها وذوّابتها فبها ونحوه كان بنو أبي حفص يتطاولون إلى ملك مراكش، ولما نبغ بنو مرين بالمغرب وغلبوا على الكثير من ضواحيه كانوا يدعون إلى أبي زكرياء الحفصي تأليفاً لأهل المغرب واستجلاباً لمرضاتهم وإيتاناً لهم من ناحية أهوانهم إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم فلو دعوا إلى غيرها من أول الأمر لحاصلوا عنها حيصة حمر الوحش، ولما لم يمكن بنى مرين أن يدعوا إلى بنى عبد المؤمن لأنّهم أقتلهم وإياهم ينزععون ولهم يحاربون ويجالدون دعوا إلى طاعة الحفصيين الذين هم فرع منهم والدعوة إلى الفرع كالدعوة إلى أصله، فلم تنفر نفوس أهل المغرب عنها وإنما كان بنو مرين يسررون من ذلك حسواً في ارتقاء ولهذا لما استقل السلطان يعقوب بالأمر وتمكن له السلطان بالمغرب قطع دعوة الحفصيين حالاً بعد أن كان أولاً يدعوا إليها هو وإخوهه من قبله وكان بنو أبي حفص ينشطون لذلك وبهادون بنى مرين ويمدونهم بالمال والسلاح وغير ذلك ولما عزم السلطان يعقوب على منازلة مراكش كتب إلى أبي عبد الله محمد المستنصر بالله بن أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص يخبره بذلك ويستمدّه حتى

كانه نائب عنه لا غير وأرسل بكتابه مع ابن أخيه عامر بن إدريس بن عبد الحق في جماعة من وجوه دولته فأكرم المستنصر وفادتهم، ثم لما فتح السلطان يعقوب مراكش واستولى عليها بعث إليه المستنصر بهدية فيها من أصناف الخيل الجياد والسلاح والثياب الرفيعة ما اختاره واستحسنها وبعث بذلك مع جماعة من وجوه دولته أيضاً وفيهم الكاتب أبو عبد الله محمد الكناني فتلطف الكاتب المذكور في ذكر المستنصر على منبر مراكش حتى تم له ذلك بمحضر وفد الموحدين فعظم سرورهم وانقلبوا إلى صاحبهم بالخبر واتصلت المودة والمهادنة بين المستنصر والسلطان يعقوب سائر أيامهم، ولما هلك المستنصر وريبع ابنه أبو زكرياء يحيى المدعو بالواشق اقتفي سن أبيه في ذلك فبعث إلى السلطان يعقوب بهدية حافلة مع قاضي بجاية أبي العباس الغماري سنة سبع وسبعين وستمائة فعظم موقعها من السلطان يعقوب وكان لأبي العباس الغماري هذا بالمغرب ذكر تحدث الناس به دهراً وقطع السلطان يعقوب لأول أمره الدعوة إلى الحفصيين كما قلنا والله تعالى أعلم.

عقد السلطان يعقوب ولادة العهد لابنه أبي مالك بسلا وما نشا عن ذلك من خروج قرابتة عليه

كان السلطان يعقوب حين خرج من مراكش بعد فتحها قاصداً حضرة فاس دار ملكبني مرين اجتاز بمدينة سلا فأراح بها أياماً فطرقه مرض وعك منه وعكاً شديداً، فلما أبل من مرضه جمع قومه وعقد العهد لأكبر أولاده أبي مالك عبد الواحد بن يعقوب لما علم من أهليته لذلك وأخذ له البيعة عليهم جميعاً فأعطوهها طواعية وعز ذلك على القرابة منبني عبد الحق وهم أولاد سوط النساء بنو إدريس بن عبد الحق وبنو عبد الله بن عبد الحق وبنو رحو بن عبد الحق وإنما قيل لهم أولاد سوط النساء لأن هؤلاء الثلاثة منبني عبد الحق كانوا أشقاء أمهم اسمها سوط النساء، فلما بايع السلطان

يعقوب لابنه أبي مالك بولاية العهد آسفهم ذلك لأنهم كانوا يرون أنهم أحق بالأمر حسبما سلف فارتدوا على أعقابهم وقلعوا لعمهم ظهر المجن وعادت هيف إلى أدianها وأسرروا من ليتهم من سلا ولم يصبحوا إلا بجبل علودان من بلاد غمارة عش خلافهم ومدرج فنتهم وكان ذلك في عيد الفطر من ستة تسع وستين وستمائة وانضم إليهم بنو أبي عياد بن عبد الحق وشائعوهم على رأيهم، فخرج السلطان يعقوب في أثرهم وقدم بين يديه ابنه الأمير يوسف بن يوسف في خمسة آلاف فأحاط بهم وأخذ بمخنقوهم ولحق به أخوه أبو مالك في عسکره ومعه مسعود بن كانون شيخ سفان ثم لحق بهم السلطان يعقوب في عساكره فحاصرهم ثلاثة ولما رأوا أن قد أحبط بهم سألوا الأمان فبذلته لهم وأنزلتهم ومسح صدورهم واسترضاهم واستل سخائthem ووصل بهم إلى حضرته فسألوا منه الإذن في اللحاق بتلمسان حياء مما ارتكبوه من الخلاف فأذن لهم فأجازوا البحر إلى الأندلس وخالفهم عامر بن إدريس لما آنس من ميل عمه إليه فبقي بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد إلى قومه بعد منازلة السلطان يعقوب لتلمسان حسبما نذكره عن قريب.

قال ابن خلدون: «واحتل هؤلاء القرابة منبني عبد الحق بأرض الأندلس على حين أقر من الحامية جوها واستأسد العدو على ثغورها وتحلبت شفاهه لاتهامها، فباءوها أسوداً ضاربة وسيوفاً ماضية معودين لقاء الأبطال وقراع الحتف والتزال مستغلظين بخشونة البداوة وصرامة العز ويسالة التوحش فعظمت نكايتهم في العدو واعترضوا في صدره سجي دون الوطن الذي كان طعنة له في ظنه وارتدوه على عقبه ونشطوا من همم المسلمين المستضعفين وراء البحر ويسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيهم وزاحموه أمير الأندلس في رياستها بمنكب قوي فتجاذبوا لهم عن خطبة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدو من أغياصهم وغيرهم من أمم البربر وثافنوه في مستقر عزه وساهموه، في الجباية بفرض العطاء والديوان فبذلهم واستعدوا على العدو وحسن أثرهم فيه حسبما تلمع بالبعض من ذلك إن شاء الله.

هجوم النصارى على العرائش وتيشمس من ثغور المغرب

لما كان المحرم من سنة ثمان وستين وستمائة هجم النصارى على مدينة العرائش وتيشمس من ثغور العدوة المغربية فقتلوا رجالها وسبوا نسائها وانتهبو أموالها وأضرموا ناراً ورجعوا عودهم على بدهم فركبوا أجنانهم ولحقوا ببلادهم ولم تزلهم شوكة السلطان يعقوب لأنه كان مشغولاً بفتح مراكش في التاريخ المذكور ولم يبين في القرطاس هؤلاء النصارى من هم.

وقعة إيسلي بين السلطان يعقوب ابن عبد الحق ويغمراسن بن زيان

لما أنعم الله على السلطان يعقوب بامتداد ظل ملكه في أقطار المغرب ونواحيه ونفوذه كلته في حواضره وبواديه وتم له الصنع بفتح مراكش ووراثة كرسى بني عبد المؤمن بها وعاد إلى فاس كما قلنا تحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن بن زيان وما آسفه به من تخذيل عزائه ومجادبته عن قصده ورأى أن وقعة تلاعج لم تشف صدره ولا أطفأت نار موجده فأجمع أمره لغزوه ونشطه لذلك ما صار إليه من الملك وسعة السلطان، فحشد جميع أهل المغرب وعزّم على استئصاله وقطع دابرها فعسكر بفاس وبعث ولده أبي مالك إلى مراكش في جماعة من خواصه حاشرين في مدانهما وضواحيها، فاجتمع عليه من قبائل العرب والمصامدة وصنهاجة وبقايا عساكر الموحدين بالحضورة وحامية الأقصى من جند الفرنج وناشبة الغزو، استكثر من ذلك كله واحتفل السلطان يعقوب بفاس كذلك، ثم نهض منها غرة صفر سنة سبعين وستمائة فسار حتى نزل وادي ملوية فأقام عليه أياماً حتى لحقه ابنه أبو مالك في جموعه وتواترت لديه أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا الذين هم سفيان والخلط والعاصم وينو جابر ومن معهم من الأثيج وقبائل ذوي حسان والشبانات من معقل أهل السوس الأقصى وقبائل رياح أهل أزغار وببلاد الهبط، فعرض هناك عساكره وميزها ورتبيها فيقال إنها بلغت ثلاثين ألفاً

وارتحل يريد تلمسان.

ولما انتهى إلى أنكاد قدمت عليه رسول ابن الأحمر ووفد أهل الأندلس يستصرخونه على العدو ويسألونه الإعانته والنصر ويخبرونه بأنه قد كلب عليهم وشره لاتهام بلادهم فتحركت همته رحمة الله للجهاد ونصر المسلمين وإغاثة المستضعفين منهم، ونظر في صرف الشواغل عن ذلك وجنجح للسلم مع يغمراسن وعزم عليها واستشار الملاً من أشياخ العرب، وبني مرين في ذلك فصوّروا رأيه لما كانوا عليه أيضاً من إثمار الجهاد ومحبته، فبعث السلطان يعقوب جماعة من أشياخ القبائل إلى يغمراسن يدعونه إلى الصلح والاجتماع الكلمة وقال لهم في جملة قوله: «إن الصلح خير كلهم فإن جنح يغمراسن إليه وأناب فذاك إلا فأسرعوا إلى الخبر» فسار الأشياخ إلى يغمراسن فوافوه بظاهر تلمسان وقد أخذ أحبته واستعد للقاء وحشد قبائل زناتة المجاورين له في تلك البلاد من بني عبد الواد وبني راشد وأحلافهم ومغاروة من عرب بني زغبة فبلغوه الرسالة وعرضوا عليه مقالة السلطان يعقوب فأبى واستكبر وصم عن سماع قولهم وموعظتهم وقال: «أبعد مقتل ولدي أصالحه، والله لا كان ذلك أبداً حتى أثار به وأذيق أهل المغرب النكال من أجله» فرجعت الرسل إلى السلطان يعقوب بالخبر، وتزاحف الفريقان فكان اللقاء على وادي إيسلي من بسيط وجدة وعباً السلطان يعقوب كتائبه ورتب مصافه وجعل ابنه عبد الواحد في الميمنة وابنه يوسف في الميسرة ووقف هو في القلب، ودارت بينهم رحى الحرب وركدت مليتاً وهلك في الحومة أبو عنان فارس بن يغمراسن بن زيان في جماعة من بني عبد الواد، وهلك عامة عسكر الفرنج الذين كانوا معهم لثباتهم بثبات يغمراسن فطاحتهم رحى الحرب وتقبض على قائدتهم برنيس وانهزم الباقيون، ونجا يغمراسن في فله حامياً لهم ومدافعاً عنهم من خلفهم، ومر في هزيمته بفساططيه فأضر بها ناراً تفادياً من حصرة استيلاء العدو عليها وانتهبت بني مرين باقي معسكره واستبيحت حرمه وارتحل السلطان يعقوب من الغد في أثره حتى إذا انتهى إلى وجدة وقف عليها فأمر بهدمها فتسارعت أيدي الجند إليها وجعلوا عاليها

سافلها وألصقوا بالر GAM جدرانها وتركوها قاعاً صفصفاً، وكانت هذه الواقعة متتصف رجباً من سنة سبعين وستمائة.

ثم تقدم إلى تلمسان فنزل عليها وحاصرها أياماً وأطلق الأيدي في ساحتها بالنهب والعيث ثم شن الغارات على المسائط فاكتسحها سبياً ونسفها نسفاً وهلك في طريقه إلى تلمسان وزير عيسى بن ماساي وكان من عليه وزرائه وحمة ميدانه وله في ذلك أخبار مذكورة، وكان مهلكه في شوال من السنة المذكورة وقدم عليه وهو محاصر لتلمسان الأمير أبو زيان محمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية كبيربني توجين من زناته في جيش كثيف من قومه مباهاياً ببنوده وطبلوه وألة حربه، وكان قدومه هنا بقصد مظاهرة السلطان يعقوب على يغمراسن وتلمسان لعداؤه كانت بينهما فأكرم السلطان يعقوب وفادته واستركب الناس للقاء واتخذ رتبة السلاح لمباهاته واستمر الحصار على تلمسان، وعظمت نكبة بني توجين فيها بتحريض الرباع وانتساف الجنات وقطع الشمار وإفساد الزرع وتحريق القرى والضياع لما كان يغمراسن يعاملهم في بلادهم بمثل ذلك أو أكثر، ولما امتنعت تلمسان على السلطان يعقوب وأيس من فتحها لحصانتها واشتداد شوكة حاميتها عزم على الإفراج عنها وأشار على الأمير محمد بن عبد القوي بالقفول إلى مأمهه قبل أن ينهض هو عن تلمسان ووصله وقومه وملأ حقائبهم من التحف وجنب لهم مائة من الخيل المقربات الجياد بمراكبها وأراح عليهم ألف ناقة حلوب وعهم بالخلع الفاخرة والصلات الوافرة واستكثروا لهم من السلاح والفارازات والفساطيط وحملتهم على الظهور وارتحلوا إلى منجاتهم ومقرهم من جبل وانشريس، وتلوم السلطان يعقوب عليهم أياماً ريشما وصلوا حذراً عليهم من يغمراسن أن ينتهز الفرصة في اتباعهم، ثم أقلع السلطان عن تلمسان وثنى عنانه إلى المغرب فوصل إلى رباط تازا في أول يوم من ذي الحجة من السنة المذكورة فعيده بها عيد النحر ثم ارتحل إلى فاس فدخلها فاتح سنة إحدى وسبعين وستمائة فأقام بها إلى اليوم الحادي عشر من صفر فتوّفي ولده وولي عهده الأمير أبو مالك عبد الواحد بن يعقوب فأسف لفقده ثم

صبر واحتسب ثم نهض^(١) إلى مراكش فدخلها أوائل ربيع الثاني من السنة المذكورة فأقام بها شهراً حتى أصلح من شأنها ثم نهض إلى طنجة وسبتة على ما نذكره.

فتح طنجة وسبتة وما كان من أمر العزفي بهما

قد تقدم لنا في دولة أبي حفص عمر المرتضى أن الفقيه أبو القاسم العزفي استبد عليه بسبتة وتوارث ذلك بنوه من بعده وكان هؤلاء العزفيون من بيوتات سبتة وأهل الرياسة والعلم والدين فيهم، ولما ضعف أمربني عبد المؤمن بال المغرب استقل الفقيه أبو القاسم بن أبي العباس العزفي برياستها وضبطها وانتظم في طاعتهسائر أعمالها، ولما كانت سنة ثلاثة وستين وستمائة بعث الفقيه المذكور أجفانه إلى مدينة أصيلا فهدموا أسوارها ونقضوا قصبتها لأنه خاف عليها من خلائقها أن يملكونها العدو ويتمكنون بها، واستمرت أموره في سبتة ونواحيها على الشداد وكانت طنجة تالية لسبتة في سائر أحوالها وكانتا معاً من أحسن بلاد المغرب فدخل صاحب طنجة وهو أبو الحجاج يوسف بن محمد الهمداني المعروف بابن الأمير في طاعة أبي القسم المذكور، ثم انتقض عليه لم مضي سنة من طاعته واستبد وخطب لابن أبي حفص صاحب إفريقية ثم للخليفة العباسي صاحب بغداد ثم نفسه، وسلك في طنجة مسلك العزفي في سبتة ولبשו على ذلك ما شاء الله، حتى إذا ملك بنو مرین المغرب وافتتحوا معاقله وحصونه وهلك الأمير أبو بكر بن عبد الحق وابنه أبو حفص عمر من بعده فتحيز بنوه في اتباعهم وحشتمهم إلى ناحية طنجة وأصيلا فأوطنوا

(١) قال في الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرinية ما نصه: فلما انقضى شهر صفر الذي توفي فيه له ولده أبو مالك ارتحل أمير المسلمين إلى حضرة مراكش فوصل إلى رباط الفتح في الثاني عشر من ربيع الأول فأخذ البيعة لولده الأمير أبي يعقوب على بنى مرین بولاية العهد بها لولده الأمير أبي يعقوب ثم سار إلى مراكش فدخلها في نصف ربيع الآخر فقعد بها أياماً ثم ارتحل إلى بلاد السوس الخ... وهذا خلاف ما عند المؤلف هنا فراجع ذلك من 154 طبع الجزائر.

ضاحيتها وعاثوا في نواحيها وضيقوا على أهل طنجة حتى شارطهم ابن الأمير على خراج معلوم على أن يكفوا الأذية ويحموا المحوزة ويصلحوا السابلة فاتصلت يده بيدهم وترددوا إلى البلد لاقتضاء حاجاتهم، ثم مكرروا وأضمرروا الغدر فدخلوا في بعض الأيام متأنقين السلاح وفتكتوا بابن الأمير غيلة، فثارت بهم عامة أهل طنجة واستلهموهم لحيتهم في مصرع واحد سنة خمس وستين وستمائة، واجتمعوا على ولده فباعوه وبقيت في ملكته خمسة أشهر. ثم استولى عليها أبو القاسم العزفي فنهض إليها عساكره من الرجل برأ وبحراً وملكيها وفر ابن الأمير فلحق بتونس ونزل على المستنصر الحفصي واستقرت طنجة في إيالة العزفي فضبطتها وقام بأمرها وولي عليها من قبله وأشرك الملا من أشرافها في الشورى.

ولما استولى السلطان يعقوب على حضرة مراكش ومعها دولة آل عبد المؤمن منها وفرغ من أمر عدوه يغمراسن هم بتلك الناحية وأحب أن يضيفها إلى ما بيده ليصفو له أمر المغرب الأقصى كله فنهض إلى طنجة ونازلها مفتتح اثنين وسبعين وستمائة لأنها كانت في البسيط دون سبتة فكان أمرها أسهل فحاصرها نحو ثلاثة أشهر فامتنعت عليه وينس منها وعزم على الإفراج عنها في بينما هو يقاتل في عشي اليوم الذي عزم على النهوض في غده إذا بجماعة من رماتها قاموا على برج ورفعوا لواء أبيض ونادوا بشعاربني مرين، وذلك لخلاف وقع بينهم داخل البلد فتسارع الجندي إليهم فملقوهم البرج فتسورووا إليه الحيطان وقاتلوه سائر ليتلهم إلى الصباح ثم تكاثرت جيوشبني مرين واقتحموا البلد عنوة ونادي منادي السلطان يعقوب بالأمان فلم يهلك من أهلها إلا نفر يسير من رفع يده للقتال وشهر السلاح ساعة الدخول، وكان ذلك في ربيع الأول سنة اثنين وسبعين وستمائة، ولما فرغ السلطان يعقوب من طنجة لاذ بالطاعة على أن يبقى ممتنعاً بحصنه ويؤدي للسلطان العزفي أيام ثم لاذ بالطاعة على أن يبقى ممتنعاً بحصنه ويؤدي للسلطان خراجاً معلوماً كل سنة فقبل السلطان منه ذلك وأفرجت عنه عساكره وعاد إلى فاس والله غالب على أمره.

فتح سجلماسة وما كان من أمرها

قد ذكرنا ما كان من استيلاء الأمير أبي بكر بن عبد الحق على سجلماسة ودرعة وأنه عقد على مسلحتها لأبي يحيى القطراني الذي كان السبب في فتحها عليه، ولما هلك الأمير أبو بكر استبد القطراني المذكور بسجلماسة ثم غلبه عليها المرتضى وقت القطراني بواسطة القاضي ابن حجاج حسبما تقدم ذلك كله ثم غالب عليها بعد حين يغمراسن بن زيان بواسطة عرب المنيات منبني معقل أهل الصحراء وعقد عليها لعبد الملك بن محمد عبد الواديالمعروف بابن حنينة نسبة إلى أمه وهي اخت يغمراسن بن زيان ولما فتح السلطان يعقوب بلاد المغرب وانتظمها في مملكته وجه عزمه إلى افتتاح سجلماسة وانتزاعها من أيديبني عبد الواد المتعلين عليها فنهض إليها في رجب سنة اثنين وسبعين وستمائة في جموعبني مرین وقبائل المغرب من العرب والبربر، ونازلتها ونصب عليها آلات الحصار من المجنحات والعرادات وغير ذلك.

قال ابن خلدون: «ونصب عليها هندام النفق القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها» اهـ كلامه. قلت وفيه فائدة: أن البارود كان موجوداً في ذلك التاريخ وأن الناس كانوا يقاتلون به ويستعملونه في محاصراتهم وحروفهم يومئذ وفيه رد لما نقله أبو زيد الفاسي في شرح منظومته الموضوعة في العمل الجاري بفاس قال: «كان حدوث البارود سنة ثمان وستين وسبعمائة حسبما ذكره بعضهم في تأليف له في الجهاد وأنه استخرج حكيم كان يعمل الكيمياء ففرق له فأعاده فأعجبه فاستخرج منه هذا البارود» اهـ. وصرح الشيخ أبو عبد الله بناني في حاشيته، على مختصر الشيخ خليل بأن حدوثه كان في وسط المائة الثامنة وهو غير صواب لما علمت من كلام ابن خلدون أنه كان موجوداً قبل ذلك بنحو مائة سنة ويغلب على ظني أن لفظ الستمائة تصحيف بالسبعمائة فسرى الغلط من ذلك والله أعلم.

وأقام السلطان يعقوب على حصار سجلماسة حولاً كاملاً وكان سفهاؤها يصعدون فوق الأسوار ويعلبون بالسب والفحش إلى أن هتك المنجنيق ذات يوم طائفة من سورها فدخلت من هنالك عنوة بالسيف وعاث الجندي في أهلها^(١) فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية وأتى القتل على عاملها عبد الملك بن حنيفة ومن كان بها من أشياخبني عبد الواد وعرب المنبات وكان فتحها آخر صفر وقيل يوم الجمعة ثالث ربيع الأول سنة ثلاثة وسبعين وستمائة وكميل بفتحها للسلطان يعقوب فتح بلاد المغرب وتمشت طاعته في أقطاره فلم يبق فيه أهل حصن يدينون بغير دعوته ولا جماعة تحiz إلى غير فنته.

أخبار السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني في الجهاد وما كان له بالأندلس من الذكر الجميل والغفران الجليل رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان للعدو الكافر على المسلمين في وقعة العقاب من الظهور والغلبة وأن تلك الواقعة كانت سبب ضعف المسلمين بالمغرب والأندلس واستيلاء العدو الكافر على جل ثغورها وحصونها، ولما ضعف أمر الموحدين بالمغرب استبد السادة منهم بالأندلس وصاروا إلى المنافسة فيما بينهم واستظهار بعضهم على بعض بالطاغية وإسلام حصون المسلمين إليه في سبيل تلك الفتنة فمشت رجالات الأندلس بعضهم إلى بعض وأجمعوا على إخراج الموحدين من أرضهم فشاروا بهم لوقت واحد وأخرجوهم وتولى كبير ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي ثم من بعده محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ونازع ابن هود الرياسة بالأندلس، ولا تسأل عما ذهب في منازعهما من حصون المسلمين الكثيرة وبلادهم العديدة الشهيرة التي منها قرطبة وإشبيلية قاعدة أرض الأندلس كان كل واحد من هذين الشائرين يتقرب إلى الطاغية بما غالب عليه من ذلك ليعينه على صاحبه

(١) الذي في الذخيرة السنوية صفحة 158 أن السلطان يعقوب أمن سائر أهلها وعفا عنهم ونظر في مصالحهم ورفع مظالمهم وأصلح أحوالهم وبلادهم.

والأمر الله وحده، وانقرض أمر ابن هود عن أمد قريب واستمرت دولة ابن الأحمر في عقبه إلى آخر المائة التاسعة ولما استتب أمر ابن الأحمر بالأندلس عقد السلام مع الطاغية على أن ينزل له عن جميع بسائط عرب الأندلس فنزل له عنها أجمع ولجاً بال المسلمين إلى سيف البحر معتصمين بأوuarه ومتسبين بمعاقله وحصونه، واختار ابن الأحمر لنزوله مدينة غرناطة واتخذها كرسى مملكته وابتني بها لسكناه حصن الحمراء.

وكان ابن الأحمر هذا يدعى بالشيخ وكان قد عهد إلى ولده القائم من بعده محمد المعروف بالفقيه لانتهائه طلب العلم في صغره وأوصاه إذا نابه أمر من العدو أو وصل إليه مكروه أن يستنصر عليه ببني مرين ويدرأ بهم في نحره ويجعلهم وقاية بين العدو وبين المسلمين، فلما تكالب الطاغية على بلاد الأندلس بادر محمد الفقيه إلى العمل بإشارة والده وأوفد^(١) مشيخة الأندلس كافة على السلطان يعقوب رحمة الله فلقه وفدهم منتصراً من فتح سجل مسامة فتبادروا للسلام عليه وألقوا إليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين وثقل وطأته فحياً وفدهم واستبشر بمقدمهم وبادر لإجابة داعي الله وإيصال الجنة وكان السلطان يعقوب رحمة الله منذ أول أمره مؤثراً عمل الجهاد كلماً به مختاراً له لو أعطي الخيار علىسائر أعماله حتى لقد كان اعتمذ على الغزو إلى الأندلس أيام أخيه الأمير أبي بكر وطلب إذنه في ذلك فلم يأذن له فكان في نفسه من ذلك شغل وله إليه صاغية، فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزيته وأيقظوا همته فأعمل في الاحتشاد وبعث في التفير ونهض من فام في شوال سنة ثلاثة وسبعين وستمائة فوصل إلى طنجة وأقام هناك وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عليهم وأجزل أعطياتهم وعقد عليهم لابنه أبي

(١) راجع نص الكتاب الذي جاء به مشيخة الأندلس من ابن الأحمر إلى السلطان يعقوب يستنهضه فيه للجهاد في كتاب الذخيرة السنوية صفحة 159 طبع الجزائر. وراجع أيضاً جواب السلطان يعقوب على كتاب ابن الأحمر في الذخيرة السنوية أيضاً صفحة 162.

زيان وأعطيه الرأية واستدعى من العزفي صاحب سبة السفن لإجازتهم فوافاه بقصر المجاز منه عشرون أسطولاً فأجاز العسكري المذكور ونزل بطريف في السادس عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة فأراح الأمير أبو زيان بطريف ثلاثة، ثم دخل دار الحرب وتغل فيها وأجلب على ثغورها وبسائطها وأمتلات أيديهم من المغانم وأثخنوا بالقتل والأسر وتخريب العمران ونسف الآثار حتى نزل بساحة شريش فخام حاميتها عن اللقاء وتحصنوا بالأسوار وقفل الأمير أبو زيان إلى الجزيرة الخضراء وقد امتلات أيدي عسكره من الأموال وحقائبهم من السبي وركابهم من السلاح والأثاث ورأى أهل الأندلس أن قد ثاروا بعام العقاب بعد أن لم تنصر لهم راية من ذلك اليوم إلى الآن والله غالب على أمره.

الجواز الأول للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد

ثم اتصل الخبر بالسلطان يعقوب رحمة الله أن العدو قد أخذ في الاستعداد وعز على الخروج إلى بلاد المسلمين فاعتم على الغزو بنفسه، وخشى على ثغور بلاده من عادية يغمراسن صاحب تلمسان فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب في وفد منبني مرين لعقد السلم مع يغمراسن والرجوع للاتفاق والمواعدة ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد فأكرم موصله وموصل قومه، وبادر إلى الإجابة والألفة وأوفد مشيخةبني عبد الواحد على السلطان يعقوب لعقد السلم وبعث معهم الرسل وأسنى الهدية وجمع الله كلمة الإسلام وعظم موقع هذه السلم من السلطان يعقوب لما كان في نفسه من الميل إلى الجهاد وإيشار مبرورات الأعمال، فبث الصدقات شكرأ لله تعالى على ما منحه من التفرغ لذلك، ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجماع ودعا المسلمين إلى جهاد عدوهم وخاطب في ذلك سائر أهل المغرب من زناتة والعرب والموحدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجمع قبائل البربر من المرتزقة والمتقطعة وأهاب بهم وشرع في عبور البحر فأجازهم من فرضة قصر المجاز في صفر

سنة أربع وسبعين وستمائة واحتل ساحل طريف وكان السلطان يعقوب حين استنصره ابن الأحمر وأوفد عليه مشايخ الأندلس اشترط عليه السلطان يعقوب النزول عن بعض التغور بساحل الفرصة لاحتلال عساكره بها فتجاهى له عن رندة وطريف.

ولما أحس الرئيس أبو محمد بن أشقيلوة بإجازة السلطان يعقوب قدم إليه الوفد من أهل مالقة ببيعتهم وصريخهم وكان أبو محمد بن أشقيلوة وأخوه أبو إسحاق من أصحاب ابن الأحمر وكانا مستوليين على مالقة ووادي آش وقاما ووقعت بينهما وبين ابن الأحمر منافسة فخرجا عن طاعته، ولما عبر السلطان يعقوب إلى الأندلس بادر أبو محمد بن أشقيلوة إليه واتصل به وأمحضه الود والنصح وسابق ابن الأحمر في ذلك ونازعه في بروم مقدمه والإذعان له وربما صدرت من ابن أشقيلوة في حق ابن الأحمر جفوة بمحضر السلطان يعقوب أدت إلى بعض الفساد وانصرف ابن الأحمر مغضباً للسلطان من أجل ذلك.

ولما احتل السلطان بناحية طريف ملايت كتائبه ساحة الأرض ما بينها وبين الجزيرة الخضراء، ثم نهض إلى العدو قبل أن يسبق إليهم الخبر فدخل دار الحرب وانتهى إلى الوادي الكبير فقد هنالك لولده الأمير يوسف على خمسة آلاف من عساكره قدمها بين يديه ثم تبعه على أثره وسرح كتائبه في البساط وخلال المعاقل تنسف الزروع وتحطم الغروس وتخرب العمran وتنهب الأموال وتكتسح السرح وتقتل المقاتلة وتسبى النساء والذرية حتى انتهى إلى حصن المدور وبيسة وأبدأ واقتحم حصن بلمة عنوة، وأتى على سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها.

ووقف السلطان يعقوب رحمه الله والأرض تموج سبياً إلى أن عرس باستجة من تخوم دار الحرب وجاءه النذير باتباع العدو آثاره لاستنفاذ أسراه واسترجاع أمواله وأن زعيم الفرنج وعظمتهم نونه خرج في طلبهم في أمم النصرانية من المحتمل إلى الشيخ فقدم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفاً من الفرسان أمامها وسار يقتفيها من خلفها حتى إذا أطلت رايات العدو من ورائهم كان

الرمح ورتب المصفاف وجرد السيف وذكر اسم الله وراجعت زناته بصائرها وعزائمها وتحركت هممها وأبلت في طاعة ربها والذب عن دينها وجاءت بما يعرف من بأسها ويلائتها في مقاماتها وموافقتها فلم يكن إلا كلا ولا حتى هبت ريح النصر وظهر أمر الله وانكشفت جموع النصرانية وقتل الزعيم نونه وكان هذا اللعين زعيم النصرانية بالأندلس قد قدمه الفتن على جيشه واستعمله على حربه وفوض له في جميع أموره وكان النصارى قد سعدوا بطائره وتيمنوا ببنقيبه لأنه لم تهزم له قط راية وكان وبالأ على بلاد الإسلام كثير الغارات عليها حتى جمع الله بينه وبين السلطان يعقوب فأراحه من تعب الحرب وكد الغارات وألحقه بأمه الهاوية، ومنح المسلمين رقاب الفرنج واستحر فيهم القتل حتى بلغت قتلهم عدد الألف وجمعوا من رؤوسهم ماذن أذنوا عليها لصلاتي الظهر والعصر، واستشهد من المسلمين ما يناظر الثلاثين^(١) أكرمهم الله تعالى بالشهادة وأثراهم بما عنده ونصر الله حزبه وأعز أولياءه وأظهر دينه، وبدأ للعدو ما لم يكن يحتسبه بمحاجة هذه العصابة عن الملة وقيامها بنصر الكلمة وبعث السلطان يعقوب رحمه الله برأس الزعيم نونه إلى ابن الأحمر فيقال إنه بعثه سرًا إلى قومه بعد أن طيبه وأكرمه ولدية أخلصها لهم، ومداراة وانحرافاً عن السلطان يعقوب ظهرت شواهد ذلك عليه بعد حين.

واعلم أن هذا الزعيم يسميه كثير من المؤرخين دون نونه لفظة دون معناها في لسانهم السيد أو العظيم أو ما أشبه ذلك فلذا أسقطناها.

وقفل السلطان يعقوب من غزاته هذه إلى الجزيرة الخضراء منتصف ربيع من السنة المذكورة فقسم في المجاهدين الغنائم وما نفلوه من أموال عدوهم وبسياهم وأسرابهم بعد الاستئثار بالخمس ليت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه في مصارفه، ويقال كان مبلغ الغنائم في هذه الغزوة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفاً من السبي ومن الأسرى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثون ومن الكراع أربعة عشر ألفاً وستمائة، وأما الغنم فاتسعت عن الحصر

(١) ذكر في الذخيرة السنية أن عددهم أربعة وعشرون صفحة 173 طبع الجزائر.

كثرة حتى لقد زعموا أنه قد بيعت الشاة الواحدة بدرهم وكذلك السلاح . وأقام السلطان يعقوب بالجزيرة أياماً ثم نهض في جمادى الأولى من السنة المذكورة غازياً إشبيلية فجاس خلالها وتقرى نواحيها وأقطارها وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها . وعاث في عمرانها وأوغل في مسیره حتى وقف على بابها وزعمت طبوله في جوها وخفقت ألويته على جنباتها ولجمات الفرنج إلى الأسوار واعتمدوا على الحصار ولم يخرج إليه منهم أحد ، ثم ارتحل إلى شريش فأذاقها من وبال العيش والاكتساح مثل ذلك أو أكثر ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته فيبعث الفرنجية من سبيه بها بمثقال ونصف لكثرة السي حيثنٰ^(١) .

ودخل فصل الشتاء فنظر السلطان يعقوب في اختطاط مدينة بفرضية المجاز من العدوة لنزول عسكره متبنداً عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العسكر وجفائهم وتخير لها مكاناً ملاصقاً للجزيرة فأوزع بناء المدينة المشهورة بالبنية ، ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب من سنته أعني سنة أربع وسبعين وستمائة فكان مغييه وراء البحر ستة أشهر واحتل بقصر مصمودة وأمر ببناء السور على باديس مرفاً السفن ومحل العبور من بلاد غمارة ثم رحل إلى فاس فدخلها في النصف من شعبان من السنة المذكورة .

فتح جبل تينملل ونبش قبور بني عبد المؤمن

على يد الملياني عفا الله عنه

قد تقدم لنا أن جبل تينملل كان حصناً للموحدين وملجأ لهم إذا نابهم مكروه وكان مسجده مزاراً عظيماً لهم لأنه مدفن إمامهم وملحد خلفائهم فكانوا يعكفون عليه ويلتمسون بركة زيارته ويقدمون ذلك بين يدي غزوائهم

(١) ذكر في الذخيرة السنوية أن السلطان يعقوب كتب بهذا الفتح لبلاد العدوة وقرى كتابه على المتأبر وكذلك كتب الفقيه أبو القاسم العزفي رسالة إلى فقهاء المغرب وصلاحه بشرح هذه الغزاة فانظرها هناك صفحة 175 طبع الجزائر .

قرية يتقررون بها إلى الله تعالى، ولما استولى السلطان يعقوب على مراكش فر من كان بها من الموحدين إلى الجبل المذكور واعتصموا به وبابوا إسحاق أخا المرتضى وأملوا منه رجع الكراة وإداله الدولة واستمر الحال على ذلك إلى هذه السنة فنهض عامل مراكش من قبل السلطان يعقوب وهو محمد بن علي بن محلي أحد خولته ونازل الجبل المذكور وحاصره مدة ثم اقتحمه عنوة وافتض عذرته وفك ختامه وتقبض على خليفة الموحدين إسحاق وابن عمه السيد أبي سعيد بن أبي الربيع ومن معهما من الأولياء وجنبا إلى مصارعهم بباب الشريعة من مراكش فضررت أنفاسهم وصلبت أشلاؤهم وكان فيمن قتل منهم الكاتب القبائلي وأولاده.

وعاثت عساكر بني مرين في جبل تينمل واكتسحوا أمواله ونبشوا قبور خلفاء بني عبد المؤمن واستخرجو أشلاءهم وكان فيها شلو يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور فقطعت رؤوسهم وتولى كبر ذلك أبو علي بن أحمد الملياني، كان أبو علي هذا ثار على الحفصيين بمدينة مليانة فجهزوا إليه عساكره وأجهضوه عنها ففر إلى السلطان يعقوب فقبله وأوأه وأقطعه بلد أغمات إكراما له، فحضر هذه الواقعة في جملة العسكر وارتكب هذا الفعل الشنيع ورأى أنه قد شفى نفسه باستخراج هؤلاء المخلائق من أرماسهم والعبث بأشلاءهم وقد أنكر الناس عامة والسلطان يعقوب خاصة هذه الفعلة منه ولم يرضوها ومع ذلك فقد تجاوز له السلطان يعقوب عنها تأنيساً لغريته ورعايا لجواره ولما توفي السلطان يعقوب وولي بعده ابنه يوسف سعى إليه في الملياني هذا فنبكه على ما نذكره إن شاء الله.

ولما وصل السلطان يعقوب من غزونه إلى فاس انتقض عليه طلحة بن محلي أحد أخواله وتمتنع بجبل آصروا من بلاد فازاز فسار إليه السلطان يعقوب وحاصره به فأناب إلى الطاعة ونزل على الأمان⁽¹⁾ وذلك في منتصف

(1) وطلب من السلطان أن يبيع له التوجه إلى المشرق وأداء فريضة الحج وأسعفه ووصله بمال جليل وخيل عتاق وما يحتاج إليه. الذخيرة السنوية صفحه 186 طبع الجزائر.

رمضان سنة أربع وسبعين وستمائة وفي ثاني يوم من شوال من هذه السنة ثارت العامة باليهود بفاس بسبب حدث أحدثوه فقتلوا منهم أربعة عشر يهودياً ولو لا أن السلطان ركب بنفسه ورد العامة عنهم لكان إياها.

بناء المدينة البيضاء المسمة اليوم بفاس الجديد

لما فتح جبل تينملل ومحيت منه بقية آل عبد المؤمن وتمهد ملك المغرب للسلطان يعقوب واستفحـل أمره وكثـرت غاشـيـته رأـيـ أن يـخـطـتـ بـلـدـاـ يـنـسـبـ إـلـيـهـ وـيـتـمـيزـ بـسـكـنـاهـ وـيـنـزـلـ فـيـهـ بـحـاشـيـتـهـ وأـوـلـيـاـهـ الـحـامـلـيـنـ لـسـرـيرـ مـلـكـهـ،ـ فأـمـرـ بـيـنـاءـ الـمـدـيـنـةـ الـبـيـضـاءـ مـلـاـصـقـةـ لـمـدـيـنـةـ فـاسـ عـلـىـ ضـفـةـ وـادـيـهـ الـمـخـتـرـقـ لـهـاـ،ـ مـنـ جـهـةـ أـعـلاـهـ وـشـرـعـ فـيـ تـأـسـيـسـهـ ثـالـثـ شـوـالـ مـنـ سـنـةـ أـرـبـعـ وـسـبـعـينـ وـسـتـمـائـةـ،ـ وـرـكـبـ السـلـطـانـ بـنـفـسـهـ فـوـقـ عـلـيـهـ حـتـىـ خـطـتـ مـسـاحـتـهـ وـأـسـتـ جـدـرـانـهـ وـجـمـعـ الـأـيـديـ عـلـيـهـ وـحـشـرـ الصـنـاعـ وـالـعـمـلـةـ لـبـنـائـهـ وـأـحـضـرـ لـهـ أـهـلـ النـجـامـةـ وـالـمـعـدـلـيـنـ لـحـرـكـاتـ الـكـوـاكـبـ فـاخـتـارـوـاـ لـهـاـ مـنـ الطـوـالـعـ مـاـ يـرـضـيـونـ أـثـرـهـ وـيـحـمـدـونـ سـيـرـهـ وـأـسـتـ فـيـهـ وـكـانـ فـيـ أـوـلـاـنـكـ الـمـعـدـلـيـنـ إـمـامـ شـهـيرـانـ أـبـوـ الـحـسـنـ بـنـ الـقـطـانـ^(١)ـ،ـ وـأـبـوـ عـبـدـ اللهـ بـنـ الـحـبـاكـ الـمـقـدـمـانـ فـيـ الصـنـاعـةـ فـكـمـلـ تـشـيـدـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ عـلـىـ مـاـ رـسـمـ رـحـمـهـ اللـهـ وـكـمـاـ رـضـيـ،ـ وـنـزـلـهـ بـحـاشـيـتـهـ وـذـوـيـهـ سـنـةـ أـرـبـعـ وـسـبـعـينـ الـمـذـكـورـةـ،ـ وـاـخـتـطـ النـاسـ بـهـاـ الدـوـرـ وـالـمـنـازـلـ وـأـجـرـيـتـ فـيـهـاـ الـمـيـاهـ إـلـىـ الـقـصـورـ،ـ وـكـانـ مـنـ أـعـظـمـ آـثـارـ هـذـهـ الـدـوـلـةـ وـأـبـقـاهـ عـلـىـ الـأـيـامـ.

قال ابن أبي زرع : ومن سعادة طالعها أنه لا يموت فيها خليفة ولم يخرج منها لواء قط إلا كان منصوراً ولا جيش إلا كان ظافراً.

ثم أمر رحمة الله ببناء قصبة مكناسة فشرع في بنائها وبناء جامعها في السنة المذكورة ثم استوزر صنيعته أبا سالم فتح الله السدراتي وأجرى له رزق الوزارة على عادتهم .

ثم كافأ يغمراسن بن زيان على هديته التي كان بعث بها إليه قبل إجازته

(1) في الذخيرة السنوية بدل ابن القطان أبو الربيع سليمان الغياثي صفحة 187 طبع الجزائر.

إلى الأندلس فبعث إليه فسطاطاً رائقاً كان صنع له بمراكب وثلاثين من البغال الفارهة ذكراناً وإناثاً وغير ذلك مما ينادي به ملوك المغرب.

وفي سنة خمس وسبعين وستمائة أهدى إليه الأمير محمد بن عبد القوي التوجيني صاحب جبل وانشريس أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة ورأى أنها على قلة عددها أحفل هدية وفي نفسه أثناء هذا كله من أمر الجهاد شغل شاغل يخطئ إلية سائر أعماله حسبما نذكره إن شاء الله.

الجواز الثاني للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد

لما قفل السلطان يعقوب من غزوته الأولى واستنزل الخوارج وثقف التغور وهادي الملوك واختلط المدينة البيضاء لنزوله كما ذكرنا، خرج فاتح سنة خمس وسبعين وستمائة إلى جهة مراكش لسد ثغورها وتثقيف أطرافها وتوغل في أرض السوس وبعث وزيره فتح الله السدراتي في العساكر فجاس خلالها ثم انكفا راجعاً وهناك خاطب السلطان يعقوب رحمة الله قبائل المغرب كافة بالغير إلى الجهاد فتلقاها عليه فلم يزل يحرضهم وهم يسوفون إلى أن دخلت سنة ست وسبعين بعدها، ولما رأى تلاقى الناس عليه نهض إلى رباط الفتح وتلوم به أياماً في انتظار الغزاة فأبطؤوا عليه فخف في خاصته وتقدم في حاشيته حتى انتهى إلى قصر المجاز، وقد تلاحق به الناس من كل جهة لما رأوا من عزمه وتصميمه فأجاز بهم البحر واحتل بطريف آخر محروم من السنة المذكورة، ثم ارتحل إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى رندة، فوافاه بها الرئيس أبو محمد عبد الله بن أبي الحسن علي بن اشفيولة صاحب مالقة وأخوه أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن برسم الجهاد معه.

ثم ارتحل السلطان من رندة فاتح ربيع الأول من السنة المذكورة حتى انتهى إلى إشبيلية فurus عليها يوم المولد النبوى وكان بها يومئذ ملك العجلالقة ابن أذفونش فلم يجد بدأ من الخروج إليه بعد أن خام عن اللقاء أولاً فبرز في جموعه وصفها على ضفة الوادي الكبير من ناحية السلطان وأظهر من أبهة الحرب ما قدر عليه فكانت جيوشه كلها في الدروع السوابغ والبيض اللوامع

والسيوف البواتر وغير ذلك من آلات الحرب التي يكاد شعاعها يدهش البصر وزحف إليه السلطان يعقوب رحمة الله بعد أن صلى ركعتين ودعا الله تعالى ووعظ الناس وذكرهم فرتب مصافه وجعل ولده الأمير يوسف في المقدمة وزحف على التعبية فاقتتلوا مليأ، ثم انهزمت الفرنج فتساقط بعضهم في الوادي وإنحدر آخرون مع ضفته وتصاعد آخرون كذلك واقتحم المسلمون عليهم وسط الماء وقتلوهم في لجته حتى صار الماء أحمر وطفت جيفهم من الغد عليه فكان فيهم عبرة لمن اعتبر، وبات السلطان والمسلمون تلك الليلة على صهوات خيولهم يقتلون ويأسرون وأضربوا النيران بساحة إشبيلية حتى صار الليل نهاراً وباتت الفرنج على الأسوار ينفحون في القرون ويحترسون طول ليتهم.

ثم ارتحل السلطان من الغد إلى جبل الشرف وبئر السرايا في نواحيه فلم يزل يتقرى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها ودخل حصن قطانية وحصن جليانة وحصن الفليعة عنوة وأثخن في القتل والسببي ثم ارتحل بالغائم والأثقال إلى الجزيرة الخضراء فدخلها في الثامن والعشرين من ربيع الأول المذكور فأراح بها وقسم الغائم في المجاهدين ثم خرج غازياً مدينة شريش متتصف ربيع الآخر فنازلها وأذاقها نكال الحرب ووبالحصار وقطع الزياتين والأعناب وسائر الأشجار وأباد خضراءها وحرق ديارها وأثخن فيها بالقتل والأسر وكان السلطان يعقوب يباشر قطع الشجر والثمر بيده وسرح ولده الأمير يوسف من معسكره في سرية للغارة على إشبيلية وحصون الوادي الكبير فبلغ في التكاكية واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليانة والقناطر ثم صبح إشبيلية فاكتسحها وإنكفاً راجعاً بالمعاذن والسببي إلى السلطان يعقوب فسر بمقدمه وقفلوا جميعاً إلى الجزيرة الخضراء فأراح السلطان بها أياماً وقسم في المجاهدين غنائمهم ثم جمع أشيخ القبائل وندبهم إلى غزو قرطبة وقال: «يا عشر المجاهدين إن إشبيلية وشريش وأحوازهما قد ضعفت وربادت ولم يبق لكم بها كبير نفع ولا نكاكية وإن قرطبة وأعمالها بلاد حصينة عامرة وعليها اعتماد الفرنج ومنها معاشهم ومادتهم فإن غزوتموها واستأصلتم خضراءها مثل ما فعلتم بإشبيلية وشريش كان ذلك سبب ضعف النصرانية بهذا القطر» فأجابوا

بالسمع والطاعة فدعا لهم وفرق فيهم الأموال والخلع وخاطب ابن الأحمر يستنفره للجهاد معه وقال: «إن خروجك معى إلى قرطبة يكون لك مهابة في قلوب الفرنج ما عشت سوى ما تستوجبه من الله تعالى من الشواب في ذلك».

ونهض السلطان إلى قرطبة فاتح جمادى الأولى من سنة ست وسبعين المذكورة فوافاه ابن الأحمر بناحية شدونة فأكرم موصله وشكر خفوفه إلى الجهاد ويداره إليه ونازلوا حصنبني بشير فدخلوه عنوة وقتلت المقاتلة وسببت النساء ونفلت الأموال وهدم الحصن حتى لم يبق له أثر ثم بث السلطان رحمه الله السرايا والغاريات في البسائط فاكتسحها وامتلأت الأيدي وأثرى العسكر وفاض عليهم من الغنم والبقر والمعز والخيل والبغال والحمير والقمح والشعير والزيت والعسل ما لا يوصف ثم ساروا يتقدرون المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها وخفقت الولية السلطان في نواحيها وزعمت طبوله في فضائلها وتقدم في أبطاله وحماته حتى وقف على بابها ثم دار بأسوارها ينتظر كيف الحيلة في قتالها ووقف ابن الأحمر بعساكر الأندلس أمام محلة المسلمين يحرسونها خوفاً من كفة العدو وخنس الفرنج وراء الأسوار وابتشت بعوث المسلمين وسرايهم في نواحي قرطبة وقرابها، فنسفوا آثارها وخربيوا عمرانها وترددوا على جهاتها ودخلوا حصن الزهراء بالسيف وأقام السلطان على قرطبة ثلاثة ثم ارتحل عنها إلى حصن بركونة فدخله عنوة ثم أرجونة كذلك ثم قدم بعثاً إلى مدينة جيان فقاسمها حظها من الخسف والدمار، وخام الطاغية عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانه وإتلاف بلاده فجنج إلى السلم وخطبه من السلطان يعقوب ورغب فيه إليه وبعث الأفسة والرهبان للوساطة في ذلك فرفعهم السلطان يعقوب إلى ابن الأحمر وجعل الأمر في ذلك إليه تكرمة لمشهدته ووفاء بحقه وقال لوفد الفرنج: «إنما أنا ضيف والضيف لا يصالح على رب المنزل» فساروا إلى ابن الأحمر وقالوا له: «إن السلطان يعقوب قد رد الأمر إليك ونحن قد جئناك لنعقد معك صلحًا مؤبدًا لا يعقبه غدر ولا حرب» وأقسموا له بصلبانهم إن لم يرضه الفتن ليخلعنه لأنه لم ينصر الصليب ولا حمى الحوزة فأجابهم ابن

الأحمر إليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس إذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدد الطويلة فانعقد السلم في آخر شهر رمضان من السنة المذكورة وقبل السلطان يعقوب من غزاته هذه وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الأحمر وخرج له عن الغنائم كلها فاحتوى عليها ابن الأحمر وساقها إلى غرناطة وقال له السلطان يعقوب: «يكون حظبني مريئ من هذه الغزاة الأجر والثواب مثل ما فعل يوسف بن تاشفين رحمة الله مع أهل الأندلس يوم الراقة».

ولما قفل السلطان يعقوب من هذه الغزوة اعتقل الرئيس أبو محمد بن اشقيلولة ثم هلك غرة جمادى من السنة المذكورة فلحق ابنه محمد بالسلطان يعقوب آخر شهر رمضان وهو متلوّم بالجزيرة الخضراء منصرفه من الغزو كما ذكرناه فنزل له عن مالقة ودعاه إلى حوزها منه وقال له: «إن لم تحزها أعطيتها للفرنج ولا يتطلّكها ابن الأحمر» فحاذاها السلطان يعقوب منه وعقد عليها لابنه أبي زيان منديل بن يعقوب فسار إليها وتطلّكها، وعز ذلك على ابن الأحمر غاية لأنّه لما بلغه وفاة أبي محمد بن اشقيلولة سما أمله إليها وأنّ ابن أخيه وهو محمد الوافد على السلطان يعقوب شيعة له لا يبغى به بدلاً فأخذ طنه وخرج الأمر بخلاف ما كان يرتفع، ولما قضى السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء صومه ونسكه خرج إلى مالقة فدخلها سادس شوال من السنة ويرز إليها أهلها في يوم مشهود واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سروراً بمقدام السلطان واغتياطًا بدخولهم في دعوته وانخراطهم في سلك رعيته، وأقام فيهم إلى خاتم سنته ثم عقد عليها لعمّر بن يحيى بن محلّي من صنائع دولتهم، وأنزل معه المسالح وترك عنده زيان بن أبي عياد بن عبد الحق في طائفة لنظره من أبطالبني مرين، واستوصاه بمحمد بن اشقيلولة وارتجل إلى الجزيرة الخضراء، ثم أجاز منها إلى المغرب فاتّح سنة سبع وسبعين وستمائة وقد اهتزت الدنيا لمقدمه وامتلاء القلوب سروراً بما هيأه الله من نصر المسلمين بالأندلس وعلو راية الإسلام على كل راية وعظمت بذلك كله موجدة ابن الأحمر ونشأت الفتنة كما نذكره إن شاء الله.

حدوث الفتنة بين السلطان يعقوب وابن الأحمر وما نشأ عن ذلك من حصار الجزيرة الخضراء وغير ذلك

قد تقدم لنا أن بنو اشقيلوة كانوا أصهاراً لابن الأحمر وأنهم لما قدموا على السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء في جوازه الأول صدرت من ابن اشقيلوة كلمات أحفظت ابن الأحمر وغاظته فذهب لأجلها مغاضباً وانحرف عن السلطان يعقوب ولم يشهد معه الغزو ولا عرج على الجهاد، ولما نصر الله السلطان يعقوب على عدوه وقتل العلج وبعث برأسه إلى ابن الأحمر طبيه وبعثه إلى قومه انحرافاً عن السلطان وموالاة للعدو، ولما جاز السلطان يعقوب الجواز الثاني انقض عنه ابن الأحمر ولم يلقه حتى خاطبه السلطان واستنفره إلى الجهاد فلتحقه بشدونة كما مر، ولما صنع الله للسلطان ما صنع من الظهور والعز الذي لا كفاء له واستولى على مالقة من يد ابن اشقيلوة ارتاب ابن الأحمر بمكانته وظن به الظنون وتخوف منه ما كان من يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف فغضب بمكانته وأظلم الجو بينهما ودارت بينهما مخاطبات شعرية على السنة الكتاب في معنى العتاب ولم تزل القوارص بين السلطانين تجري وعقارب السعاية تدب وتسري وخوف ابن الأحمر على ملكه يشد ويزيد وأواصر الأخوة الإسلامية تتلاشى وتبيد إلى أن استحكمت البغضاء وضاق بينهما رحب الفضاء فزع ابن الأحمر إلى مداخلة الطاغية في شأنه واتصال يده بيده وحبله بحبله وأن يعود إلى منزلة أبيه معه من ولايته ليدافع به السلطان يعقوب وقومه عن أرضه ويأمن معه من زوال سلطانه فاغتنم الطاغية هذه الفرصة ونكث عهد السلطان يعقوب ونقض السلم وأعلن بالحرب وأغزا أساطيله الجزيرة الخضراء حيث كانت مسالح السلطان يعقوب وجنوده وأرسست بالزقاق حيث فراض المجاز وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر وحال العدو بينهم وبين إغاثته إياهم واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية واتفقا على منع السلطان يعقوب من عبور

البحر وداخل ابن الأحمر عمر بن يحيى بن محلى صاحب مالقة في النزول له عنها بعوض ففعل واستولى ابن الأحمر عليها ثم راسل هو والطاغية يغمراسن بن زيان من وراء البحر وراسلهم هو في مشافة السلطان وإفساد ثغوره وإنزال العوائق المانعة له من حركته والأخذ بأذياله عن النهوض إلى الغزو وأسنوا فيما بينهما الهدايا والتتحف وجنب يغمراسن إلى ابن الأحمر ثلاثة من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف، ويعث إليه ابن الأحمر مكافأة على ذلك عشرة آلاف دينار فلم يرض بالمال ورده وأصفقت آراؤهم جمِيعاً على السلطان يعقوب ورأوا أن قد أبلغوا في إحكام أمرهم وسد مذاهبه إليهم.

وأتصل خبر هذا كله بالسلطان وهو بمراكش كان خرج إليها مرجه من الغزو في المحرم سنة سبع وسبعين وستمائة لما كان من عيُث عرب جشم بتامسنا وإفسادهم السابقة، فشقق أطرافها وحسم مادة فسادها، ثم اتصل به خبر ابن محلى ونزلوه عن مالقة لابن الأحمر ومنازلة الطاغية بأساطيله للجزيرة الخضراء وتضييقه على المسلمين بها، فبلغ ذلك منه كل مبلغ ونهض من مراكش ثالث شوال من السنة برید طنجة فوصل إلى قرية مكول من بلاد تامسنا فتوالت عليه بها الأمطار والسيول وعاقته عن النهوض، وبينما هو في ذلك ورد عليه الخبر أيضاً بنزول الطاغية على الجزيرة الخضراء بِرَأْيَ وإحاطة عسکره بها بعد أن كانت أساطيله منازلة لها في البحر منذ ستة أشهر أو سبعة وأنه مشرف على تهامها ويعثوا إليه يستصرخونه ويخبرونه بالحال فاعتزم على الرحيل.

ثم اتصل به الخبر ثالثاً بخروج مسعود بن كانون السفياني ببلاد نفيس من أرض المصامدة الخامس ذي القعدة من السنة وأن الناس اجتمعوا إليه من قومه وغيرهم، فانخرقت على السلطان الفتوق وتواترت عليه الخطوب ولم يدر ما يصنع، إلا أنه رأى أن يقدم أمر ابن كانون والعرب فكر راجعاً إليه وقدم بين

يديه حافده تاشفين بن أبي مالك ووزيره يحيى بن حازم العلوي وجاء هو على ساقتهم، وفر مسعود بن كانون وجماعته أيام السلطان فانتهت معسكرهم وحل لهم واستباح عرب الحارث من سفيان، ولحق مسعود بجبل سكسيوة فاعتصم به وشائع عبد الواحد السكسيوي القائم به على خلافه، ونازله السلطان يعقوب بعساكره أيامًا وسرح ابنه الأمير أبا زيان منديل إلى بلاد السوس لتمهيدها وتدعيم أقطارها فأوغل في ديارها وقفل إلى أبيه في آخر يوم من السنة المذكورة.

وأنصل بالسلطان ما تضاعف على أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال وإعواز الأقوات، وأنهم ختنوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر فأفهمه ذلك.

وكان أقسم أن لا يرتحل عن ابن كانون حتى ينزل على حكمه أو يهلك دون ذلك فاعمل التضر فيما يكون به خلاص أهل الجزيرة فقد لولى عهده ابنه الأمير يوسف، وكان بمراكبش على الغزو إليها وكان أهل الجزيرة كما قلنا قد أحاط بهم العدو برأساً وبحراً وانقطعت عنهم المواد وعميت عليهم الأنباء إلا ما يأتيهم به الحمام من جبل طارق، وفيما أكثرهم بالقتل والجوع وسرور الليل على الأسوار وشدة الحصار حتى أشرف بقيتهم على الهلاك وأيسوا من الحياة، فحينئذ جمعوا صبيانهم وختنوهم كما مر وبينما هم على ذلك قدم الأمير يوسف بجيشه إلى طنجة وكان قدوته في أوائل صفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة.

وكان السلطان يعقوب لما بعث ابنه الأمير يوسف إلى طنجة قد كتب إلى التغور بإعداد الأساطيل وعماراتها وتوجيهها إليه وقسم الإعطاءات وحضر الناس على النهوض فتوفرت همم المسلمين على الجهاد وأجابوا من كل ناحية، وأبلى الفقيه أبو خاتم العزفي صاحب سبعة لما بلغه الخطاب من السلطان في شأن الأساطيل البلاء الحسن، وقام فيه المقام المحمود، فهيا

خمسة وأربعين أسطولاً واستنفر كافة أهل بلده من المحتمل إلى الشيخ فركبوا البحر أجمعون ولم يبق بسبة إلا النساء والشيوخ والصبيان، ورأى ابن الأحمر ما نزل بأهل الجزيرة وإشراف الطاغية على أخذها فندم على ممالاته إيه وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمريمة ومقالقة فكانت اثنى عشر أسطولاً فبعثها مددًا للمسلمين، وقدم من بادس وسلا وأنف خمسة عشر أسطولاً فنهض في الوقت اثنان وسبعين أسطولاً واجتمعت كلها بمرفأ بسبة وقد أخذت بطريق الزقاق في أحفل زي وأكمل استعداد ثم تقدمت إلى طنجة ليراهما الأمير يوسف فشاهدها وسر بها وعقد لهم رايته مع جماعة من أبطالبني مرین رغبوا في الجهاد.

ثم أقلعت الأساطيل عن طنجة ثامن ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة وانتشرت قلوعهم في البحر فأجازوه وباتوا ليلة المولد الكريم بمরفا جبل الفتح وصيبحوا العدو وأساطيله يومئذ تناهز أربعين مائة فتظاهر المسلمون في دروعهم وأسبغوا من شكتهم وأخلصوا لله عزائمهم وتنادوا بالجنة وشعارها وواعظ خطباؤهم وذكر صلحاؤهم، والتحم القتال وتنزل الصبر فلم يكن إلا كلا ولا حتى نصحوا العدو بالنيل ففسدت أفروطتهم واختل مصافهم وانكشفوا وتساقطوا في عباب البحر، فاستلهمهم السيف وغضيهم اليم واستولى المسلمون على أساطيلهم فملقوها وأسروا قائدتها الملند في جماعة من حاشيته، واستمر متفقاً بفاس حتى فر بعد ذلك وسر المسلمون الذين بداخل الجزيرة بفساد أفروطة العدو وهلاكها.

ولما رأى عسكر الطاغية الذي في البر ما أصاب أهل البحر منهم من القتل والأسر داخلهم الرعب وخافوا من هجوم الأمير يوسف عليهم إذ كان مقيناً بساحل طنجة مستعداً للعبور فقوضوا أبنائهم وأفرجوا عن البلد لحينهم وانتشر المسلمون والنساء والصبيان بساحة البلد كأنما نشروا من قبر وغلبت مقاتلتهم كثيراً من عسكر العدو على متاعهم فغنموا من الحنطة والإدام

والفواكه ما ملاً أسواق البلد أيامًا حتى وصلتها الميرة من التواحي .

وأجاز الأمير يوسف البحر من حينه فاحتل بساحل الجزيرة وأرعب العدو في كل ناحية لكنه صدَّه عن الغزو شأن الفتنة مع ابن الأحمر فرأى أن يعقد مع الطاغية سلماً ويصل يده بيده لمنازلة غرناطة دار ابن الأحمر فأجاهه الطاغية إلى ذلك رهبة من بأسه وموجدة على ابن الأحمر في مدد أهل الجزيرة وبعث أسفافته لعقد ذلك وإحكامه فأجازهم الأمير يوسف إلى أبيه وهو بناحية مراكش فغضب لها وأنكر على ابنه وزوى عنه وجه رضاه، وأقسم أن لا يرى أسفافاً منهم إلا أن يراه بأرضه ورجعهم إلى طاغيتهم مخفقي السعي كاسفي البال .

ووصلت في هذه السنة هدية السلطان أبي زكرياء يحيى الواثق الحفصي مع أبي العباس الغماري حسبما مرت الإشارة إليه قبل هذا .

ثم إن السلطان يعقوب رحمه الله رجع إلى فاس وبعث خطابه إلى الآفاق مستنيراً للجهاد وفصل عنها غرة رجب من سنة ثمان وسبعين وستمائة حتى انتهى إلى طنجة وعاين ما احتل من أحوال المسلمين في تلك الفترة وما جرت إليه فتنة ابن الأحمر من اعتزاز الطاغية وما حدثته نفسه من التهام الجزيرة الأندلسية، ومن فيها وكان قد أمر أمره في هذه المدة ظاهره أعداء ابن الأحمر من بني اشقيقولة وغيرهم عليه . حتى حاصروا غرناطة ومرج أمر الأندلس ونغلت أطراها وأشفعوا السلطان يعقوب رحمه الله على المسلمين الذين بها وعلى ابن الأحمر مما ناله من خسف الطاغية فراسله في المواجهة واتفاق الكلمة على أن ينزل له عن مالقة التي خادع عنها ابن محلی كما تقدم، فامتنع ابن الأحمر وأساء الرد في ذلك فرجع السلطان يعقوب إلى إزالة العوائق عن شأنه في الجهاد وكان من أعظمها فتنة يغمراسن واستيقن ما دار بينه وبين ابن الأحمر والطاغية ابن أذفونش من الاتصال والإتفاق على تعويقه عن الغزو فبعث إلى يغمراسن يسأله عن الذي بلغه عنه ويطلب منه تجديد الصلح وجمع الكلمة، فلجم في الخلاف وكشف وجه العناد وأعلن بما

وقع بينه وبين أهل العدوة الأندلسية مسلمهم وكافرهم من الوصلة وأنه معتمز على وطاء بلاد المغرب فصرف السلطان يعقوب عزمه إلى غزو يغمراسن وقتل إلى فاس ثلاثة أشهر من حلوله بطنجة فدخلها آخر شوال من السنة المذكورة وأعاد الرسل إلى يغمراسن لإقامة الحجّة عليه وقال له فيما خطبه به: «إلى متى يا يغمراسن هذا النفور والتمادي في الغرور؟ أما آن أن تنشرح الصدور وتنقضي هذه الشرور؟» في كلام غير هذا فصم يغمراسن عن ذلك كله ولم يرفع به رأساً، ولما أيس السلطان يعقوب من إفلاته ورجوعه نهض إليه من فاس آخر سنة تسع وسبعين وستمائة وقدم ابنه الأمير يوسف في العسكر وتبعه فأدركه بتازا، ولما انتهى إلى ملوية تلوم أيامًا في انتظار العسكر ثم ارتحل حتى نزل وادي تافنا وصمد إليه يغمراسن بجموع زناته والعرب بحللهم ونجعهم وشائهم ونعمتهم والتقت طوالع القوم أولًا فكانت بينهما حرب ثم ركب على آثارهما العسكران والتحم القتال سائر النهار، وكان الزحف بالموقع المعروف بالملعب من أحواز تلمسان ثم انكشف بنو عبد الواد عندما أراح القوم وانتهب معاشرهم بما فيه من الكراع والسلاح والفساطيط والمتاع وبات عسكر السلطان يعقوب تلك الليلة على متون جيادهم واتبعوا من الغد آثار عدوهم، واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن وامتلأت أيديبني مرين من شائمهم ونعمتهم وتغلوا في أرض يغمراسن، ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أميربني توجين لقيه بناحية القصبات وعاثوا جميعاً في بلاده تخريباً ونهباً ثم أذن السلطان يعقوب، لبني توجين في اللحاق ببلادهم وأخذ هو بمختنق تلمسان محاصراً لها حتى يصل محمد بن عبد القوي إلى مأمه من جبل وانشريس خوفاً عليه من غائلة يغمراسن وتابعه إيه، ثم أفرج عنها وقتل إلى المغرب فدخل حضرة فاس في رمضان ستة ثمانين وستمائة، ثم نهض إلى مراكش فدخلها فاتح سنة إحدى وثمانين بعدها فبني بها بأمرأة مسعود بن كانون السفياني لأنه كان قد هلك قبل هذه السنة وسرح ابنه الأمير يوسف إلى السوس لتدعوه أقطاره ثم وفاه وهو بمراكم صريح الطاغية على ما نذكره الآن.

الجواز الثالث للسلطان يعقوب إلى الأندلس مغيناً للطاغية ومتمناً فرصة الجهاد

لما كان السلطان يعقوب رحمة الله بمرابضه سنة إحدى وثمانين وستمائة قدم عليه كتاب طاغية الإصبعيول وأسمه هراندة مع وفد من بطارقته وزعماء دولته مستصرحاً له على ابنه سانجة الخارج عليه في طائفة من النصارى وأنهم غلبوه على أمره زاعمين بأنه شايخ وضعف عن تدبيرهم ولم يقدر على القيام بنصرتهم فاستنصره عليهم ودعاه لحربيهم وأمله لاسترجاع ملكه من يدهم فاغتنم السلطان يعقوب هذه الفرصة في الحال وجعل جوابه نفس النهوض والارتحال فسار معهم لم يعرج على شيء حتى أتى قصر المجاز وهو قصر مصمودة فعبر منه واحتل لوقته بالجزيرة الخضراء في ربيع الثاني من سنة إحدى وثمانين المذكورة وأوزع إلى الناس بالنفير إلى الجهاد واجتمعت عليه مصالح الشعور بالأندلس وسار حتى نزل صخرة عباد وهناك قدم عليه الطاغية هراندة ذليلاً لعزة الإسلام مؤملاً صريخ السلطان فأكرم موصله وأكرم وفادته.

وذكر ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما من الآثار: «أن هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبل يده إعظاماً لقدره وخضوعاً لعزه فدعا السلطان رحمة الله بماء فغسل يده من تلك القبلة بمحض من كان هناك من جموع المسلمين والفرنج ثم التمس الطاغية من السلطان أن يمدء بشيء من المال ليستعين به على حربه ونفقاته، فأسلفه السلطان مائة ألف دينار من بيت مال المسلمين رهنه الطاغية فيها تاجه الموروث عن سلفه»، قال ابن خلدون: «ويقي هذا التاج بداربني يعقوب بن عبد الحق فخرأ للأعقاب لهذا العهد» قلت: «وما أبعد حال هذا الطاغية المهيمن من حال عطارد بن حاجب التميمي الذي لم يسلم قوس أبيه على تطاول السنين والقصة مشهورة فانظر ما بين الهم العربية والعجمية من البون وحال الفريقيين في الابتذال والصون».

ثم إن السلطان يعقوب رحمة الله تقدم مع الطاغية ودخل دار الحرب غازياً حتى نازل قرطبة وبها يومئذ سانجة ابن الطاغية الخارج عليه مع طائفته

فقاتلها أياماً ثم أفرج عنها وتنقل في جهاتها وبعث سراياه إلى جيان فأفسدوا زروعها ثم ارتحل إلى طليطلة فعاد في جهاتها وخرب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر فامتلأه أبي المسلمين وضاق معسركهم بالغنائم التي استاقوها ففُقدَ السلطان من أجل ذلك إلى الجزيرة فاحتل بها في شعبان وأقام بها إلى آخر السنة المذكورة وكانت غزوة لم يسمح الدهر بمثلها وفي هذه السنة توفي يغمراسن بن زيان على ما في القرطاس. وذكر ابن خلدون: أنه لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان وقال له: «يابني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم فليا لك أن تحاربهم فإن مدهم موفور ومددهم محصور ولا يغرنك أني كنت أحاربهم ولا أنكس عن لقائهم لأنني كنت أخشى معركة الجين عنهم بعد التمرس بهم والاجراء عليهم وأنت لا يضرك ذلك لأنك لم تحاربهم ولم تتمرس بهم فعليك بالتحصن ببلدك متى زحفوا إليك وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين أصحاب تونس يستفحلاً بها ملكك وتكتافيء حشد العدو بحشدك» قال: «فعمل ابنه عثمان على وصيته وأوفد أخيه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب وهو بالأندلس في جوازه الرابع فعقد معه السلم على ما أحب وانكفا راجعاً إلى أخيه فطابت نفسه وتفرغ لافتتاح البلاد الشرقية.

انعقاد الصلح بين السلطان يعقوب وابن الأحمر والسبب في ذلك

لما اتصلت يد السلطان يعقوب رحمة الله بيد الطاغية وقام معه في ارجاع ملكه خشي ابن الأحمر عاديه فجنج إلى موالاة ابنه سانجة الخارج عليه ووصل يده بيده وأكمل له العقد واختصرت الأندلس ناراً وفتنة بسبب هذا الخلاف، ولما قفل السلطان يعقوب من غزوه مع الطاغية وقد ظهر على ابنه أجمع على منازلة مالقة التي استحوذ عليها ابن الأحمر وخدع عنها ابن محله فنهض السلطان إليها من الجزيرة الخضراء فاتح سنة اثنتين وثمانين وستمائة

فغلب أولاً على الحصون الغربية كلها ثم أسف إلى مالقة فأناخ عليها بعساكره وضاق على ابن الأحر النطاق ولم تقن عنه موالة سانحة شيئاً وبدأ له سوء المغبة في شأن مالقة وندم على تناولها فأعمل نظره في الخلاص من ورطتها ولم ير لها إلا الأمير يوسف ابن السلطان يعقوب فخاطبه بمكانته من المغرب مستنصرًا له لرفع هذا الخرق ورثق هذا الفتى وجمع كلمة المسلمين على عدوهم فأجابه وأغتنم المثبتة فوافى أباه بمعسكره على مالقة ورحب منه السلم سنة اثنين وثمانين المذكورة فوافى أبيه بمعسكره على مالقة ورحب منه السلم لابن الأحر في شأنها والتتجافي له عنها فأسعد رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضى الله عز وجل في جهاد عدو وإعلاء كلمته، وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الأحر وتجددت عزائم المسلمين للجهاد وقتل السلطان يعقوب إلى الجزيرة الخضراء فبث السرايا في دار الحرب فأوغلو وأثخنوا ثم استأنف الغزو بنفسه إلى طليطلة فخرج من الجزيرة غازياً غرة ربيع الثاني من سنة اثنين وثمانين المذكورة حتى انتهى إلى قرطبة فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون ثم ارتحل نحو البرت وترك محلته على بيساسة بالمعانم والأثقال وترك معها خمسة آلاف فارس يحمونها من كوة العدو ثم أغذ السير في أرض قفرة ليلترين حتى انتهى إلى البرت من نواحي طليطلة فسرح الخيال في البسائع وجالت في أكتافها ولم تنته إلى طليطلة لشاقل الناس بكثرة الغنائم وأثخن في القتل وقتل على غير طريقه فأثخن وخرب.

وانتهى إلى أبدة فوقف بساحتها وقاتلها ساعة من نهار فرماه علج من خلف السور بسهم أصاب فرسه فارتاح عنها إلى معسكره ببياسة فأراح بها ثلاثة ينسف آثارها ويقتلع أشجارها وقتل إلى الجزيرة وبين يديه من السبي والغنائم ما يعجز عنه الوصف فدخلها في شهر رجب من السنة المذكورة فقسم الغنائم ونفل من الخمس وولي على الجزيرة حافظه عيسى بن عبد الواحد بن يعقوب فهلك شهيداً على شريش بسهم مسموم لشهرين من ولاته.

ثم عبر السلطان إلى المغرب فاتح شعبان ومعه ابنه أبو زيان متليل فأراح

بطنجة ثلاثة ثم نهض إلى فاس فدخلها آخر شعبان ولما قضى صيامه ونسك عيده ارتحل إلى مراكش لتمهيدها وتفقد أحوالها وقسم من نظره لنواحي سلا حظاً فأقام برباط الفتح شهرين اثنين وتوفيت في هذه المدة الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوى وهي أم الأمير يوسف وكانت وفاتها برباط الفتح دفنت بشالة . ثم نهض السلطان يعقوب إلى مراكش فدخلها فاتح ثلاثة وثمانين وستمائة وبلغه مهلك الطاغية هرمانة بن أذفونش واجتماع النصرانية على ابنه سانجة الخارج عليه فحركت همته إلى الجهاد ثم سرح ابنه الأمير يوسفولي عهده بالعسكر إلى بلاد السوس لغزو العرب الذين بها وكف عاديتهم ومحو آثار الخوارج المنتزرين على الدولة فأجلفوها أمامه واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس فهلك أكثر العرب في تلك القفار جوعاً وعطشاً وقفل راجعاً لما بلغه من اعتلال والده السلطان يعقوب فوصل إلى مراكش وقد أبل من مرضه وعزم على الجهاد شكرأ الله تعالى على نعمة العافية ، وفي هذه السنة وصل ماء عين غبولة إلى قصبة رباط الفتح بأمر السلطان يعقوب وكان ذلك على يد المعلم المهندس أبي الحسن علي بن الحاج والله تعالى أعلم .

الجواز الرابع للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد

لما اعترض السلطان يعقوب على العبور إلى الأندلس عرض جنوده وحاشيته وأراح عليهم وبعث في قبائل المغرب بالغير ونهض من مراكش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وستمائة واحتل برباط الفتح منتصف شعبان فقضى به صومه ونسكه ثم ارتحل إلى قصر المجاز وشرع في إجازة العساكر والحسنود من المرتزقة والمتطرفة خاتم ستة، ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين بعدها واحتل بظاهر طريف، ثم سار إلى الجزيرة الخضراء فأراح بها أياماً ثم خرج غازياً حتى انتهى إلى وادي لك وسرح الخيول في بلاد العدو ويسائطه يحرق وينسف . فلما خرب بلاد النصرانية

ودمر أرضهم قصد مدينة شريش فنزل بساحتها وأناخ عليها في العشرين من صفر سنة أربع وثمانين المذكورة وبيت السرايا والغارات في جميع نواحيها وبعث عن المسالح التي كانت بالشغور فتوافت لديه ولحقه حافظه عمر بن عبد الواحد بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرساناً ورجلاً ووافته حصة العزف في صاحب سبعة غزاة ناشبة تناهز خمسة وأربعين إلى ولی عهده الأمير يوسف باستفار من بقى من أهل العدو.

وكان السلطان رحمة الله لما أناخ على شريش بعث وزيره محمد بن عطوا ومحمد بن عمران عيوناً فوافو حصن القنطر وروطة واستكشروا ضعف الحامية واحتلال الشغور وعادوا إلى السلطان فأخبروه، ثم عقد السلطان لحافظه منصور بن عبد الواحد على ألف فارس من بني مرین والغزر وعرب العاصم والخلط والأربع وأعطاء الرایة وبعثه لغزو إشبيلية وذلك في يوم الأحد التاسع والعشرين من صفر من السنة المذكورة فخنموا ومرروا بقرمونة في منصرفهم فاستباحوها وأثخنوا بالقتل والأسر ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، ثم عقد ثانية لحافظه عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان في يوم الخميس الثالث من شهر ربیع الأول من السنة وأعطيه الرایة وسرحه إلى بسائط وادي لک فرجعوا من الغنائم بما ملا العساكر بعد أن أثخنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الشمار وأبادوا عمرانها.

ثم سرح ثامن ربیع المذكور عسكراً من خمسة وأربعين فارس للإغارة على حصن رکش فوافوه على غرة فاكتسحوا أموالهم وسبوا، ثم عقد تاسع ربیع أيضاً لأبنه أبي معرف على ألف من الفرسان وسرحه لغزو إشبيلية فساروا حتى هجموا عليها يوم المولد الکريم وتحصنت منه حاميتها بالأسوار فخرب عمرانها وقطع أشجارها وامتلأت أيدي عساکره سبياً وأموالاً ورجع إلى محلة السلطان وهي نازلة على شريش كما قدمنا مملوء الحقائب.

ثم عقد ثالثة لحافظه عمر متتصف ربیع المذكور لغزو حصن كان بالقرب

من معسكره كان أهله يقطعون الطريق على من خرج من المحلة مفرداً أو في قلة وسرح معه الرجل من الناشبة والفعلة بآلات من المساحي والفؤوس، وأمده بالرجل من المصاصمة وغزاة سبعة فاقتحموه عنوة على أهله وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء والذرية وألصقوا خده بالتراب ونسفوا آثاره نسفاً، ولسبعين عشر من الشهر ركب السلطان إلى حصن مرتفع قريباً من معسكره فخرقه وحرقه بالنار واستباحه وقتل المقاتلة وسبى الأهل، ولعشرين من شهره المذكور وصل ولی عهده الأمير يوسف من العدوة المغربية بنفير أهل المغرب وكافة القبائل في جيوش ضخمة وعساكر موفورة وركب السلطان للقائهم وبرور مقدمهم وعرض العساكر القادمة معه يومئذ فكانت ثلاثة عشر ألفاً من المصاصمة وثمانية آلاف من برابرة المغرب كلهم متطوع بالجهاد فعقد السلطان لولي العهد على خمسة آلاف من المرتزقة وألفين من المتطوعة وثلاثة عشر ألفاً من الرجل وألفين من الناشبة وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ربيع الأول المذكور وسرحه لغزو إشبيلية والإثخان في نواحيها فعبأ كنائبه ونهض لوجهه وبث الغارات بين يديه فأثخنوا وسبوا وقتلوا واقتتحموا الحصون واكتسحوا الأموال وعاد ولی العهد على الشرف والغابة من بسيط إشبيلية فنسف قراها واقتتحم بعض حصونها وقفل إلى معسكر السلطان وهو بمكانه من حصار شريش. وفي يوم الاثنين السادس من ربيع الثاني قدم أبو زيان منديل ابن السلطان يعقوب من المغرب في جيش كثيف فيهم خمسمائة فارس من عرببني جابر أهل تادلا مع كبيرهم يوسف بن قيطون وفيهم من المتطوعة والناثبة عدد كثير فعقد له السلطان غدة وصولة وأمده بعسكر آخر وأغازه قرمونة والوادي الكبير فأغار على قرمونة وطممت حاميتها في المدافعة فبرزوا له وصدقهم القتال فانكشفوا حتى أدخلوهم البلد ثم أحاطوا ببرج كان قريباً من البلد فقاتلوه ساعة من نهار واقتتحموه عنوة ولم يزل يتقرى المنازل والعمران حتى وقف بساحة إشبيلية فأغار واقتتحم برجاً

كان هنالك عيناً على المسلمين وأضرمه ناراً وامتلأت أيدي عساكره وقفل إلى معسكر السلطان على شريش، ولثلاث عشرة ليلة من ربيع الثاني عقد السلطان لولي العهد الأمير يوسف لمنازلة جزيرة كبتور فصمد إليها وقاتلها واقتحمها عنوة، وفي ثاني جمادى الأولى عقد السلطان للحجاج أبي الزبير طلحة بن يحيى بن محلى وكان بعد مداخلته أخيه عمر في شأن مالقة سنة خمس وسبعين خرج إلى الحج فقضى فرضه ورجع ومر في طريقه بتونس فاتهمه الداعي ابن أبي عمارة كان بها يومئذ فاعتقله سنة اثنين وثمانين ثم سرحة ولحق به بالمغرب ثم عبر إلى الأندلس غازياً مع السلطان يعقوب فعقد له في هذا اليوم على مائتين من الفرسان وسرحة إلى إشبيلية ليكون رئيسة للمعسكر وبعث معه لذلك عيوناً من اليهود والمعاهدين من النصارى يتعرفون له أخبار الطاغية سانجة، والسلطان يعقوب رحمة الله أثناء هذا كله يغادي شريش ويرأوها بالقتل والتخريب ونسف الآثار وبث السرايا كل يوم وليلة في بلاد العدو فلا يخلو يوم من تجهيز عسكر أو إغزاء جيش أو عقد راية أو بعث سرية حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانية وخراب بسائط إشبيلية ولبلة وقرمونة وإستجة وجبال الشرف وجميع بسائط الفرتيرة.

وابلى في هذه الغزوat عياد بن أبي عياد العاصمي من شيوخ جشم والخضر الغزي من أمراء الأكراد بلاء عظيماً وكان لهم فيها ذكر وصيت وكذلك غزاة سبعة وكذلك المجاهدين من عرب جشم وغيرهم مثل مهلهل بن يحيى الخلطي صهر السلطان ويوسف بن قيطون الجابري وغير هؤلاء من يطول ذكرهم.

فلما دمرها تدميراً وأوسعها تخريباً ونسفها نسفاً واكتسحها غارة ونهباً وهجم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر اعتزم السلطان على القفول وأخرج عن شريش لآخر جمادى الأولى من السنة المذكورة بعد أن حاصرها نحواً من ثلاثة أشهر وعشرة أيام واتصل به أن العدو أوزع إلى أساطيله

باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراش فأزعز السلطان إلى جميع سواحله من سبتة وطنجة وبلاط الريف ورباط الفتح والمنكب والجزيرة وطريف بتوجيه أساطيلهم فتوافت منها ستة وثلاثون ساطولاً متكاملة في عدتها فأحجمت أسطيل العدو عنها وارتدى على أعقابها واحتل السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء وهي المسماة اليوم بخوزيرت غرة رمضان من سنة أربع وثمانين وستمائة ونزل بقصره من المدينة الجديدة التي بناها بازاتها فبرزت أسطيل المسلمين أمامه بالمرسى وهو جالس بمشرف قصره فلعبوا بمرأى منه في البحر وتجاووا وتناطحوا وتطاردوا كفعلهم ساعة الحرب فسر بذلك وأحسن إليهم وصرفهم إلى حال سبيلهم.

وفادة الطاغية على السلطان يعقوب بأحوز الجزيرة الخضراء وعقد الصلح بينهما والسبب في ذلك

قال ابن خلدون رحمه الله: لما نزل ببلاد النصرانية من السلطان يعقوب ما نزل من تدمير قراهم واقتتاح أموالهم ونبي نسائهم وإبادة مقاتلتهم وتخريب معاقلهم وانتساف عمرانهم زاغت منهم الأ بصار وبلغت القلوب الحنجر واستيقنوا أن لا عاصم لهم من أمير المسلمين فاجتمعوا إلى طاغيهم سانحة خاسعة أ بصارهم ترهقهم ذلة متوجهين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب وأليم النكال وحملوه على الضراعة لأمير المسلمين في السلم وإيفاد الملا من كبار النصرانية عليه في ذلك وإنما فلا تزال تصيبهم منه قارعة أو تحل قريباً من دارهم فأجذب إلى ما دعوه إليه من الخسف والهضيمة لدينه وأؤخذ على أمير المسلمين وهو بالجزيرة الخضراء وفداء من بطريقتهم وشمامتهم يخطبون السلم ويضرعون في المهادنة والإبقاء ووضع أوزار الحرب فردهم أمير المسلمين اعزازاً عليهم، ثم أعادهم الطاغية بتردد الرغبة على أن يشترط ما شاء من عز دينه وقومه فأسعفهم أمير المسلمين وجئ إلى السلم لما تيقن من صاعديتهم إليه وذلهم لعز الإسلام وأجابهم إلى ما سأله

واشترط عليهم ما تقبلوه من مسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنه، واستدعي السلطان الشيخ أبا محمد عبد الحق الترجمان وبعثه لاشتراك ذلك وإحکام عقده فسار عبد الحق إلى الطاغية سانحة وهو يأشبيلية فعقد معه الصلح واستبلغ وأكذ في الوفاء بهذه الشروط، ووفدت رسل ابن الأحمر على الطاغية وهو عنده لعقد السلم معه على قومه وببلاده دون أمير المسلمين وأن يكون معه يداً واحدة عليه فأحضرهم الطاغية بمشهد عبد الحق وأسمعهم ما عقد مع أمير المسلمين على قومه وأهل ملته كافة، وقال لهم: «إنما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم وال الحرب وهذا أمير المسلمين على الحقيقة ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عن نفسي فكيف عنكم» فانصرفوا ولما رأى عبد الحق ميله إلى رضا السلطان وسوس إليه بالوفادة عليه لتمكن الألفة وتستحكم العقدة وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة فمال إلى موافقته وسأله لقي الأمير يوسفولي عهد السلطان أولاً ليطمئن قلبه فوصل إليه ولقيه على فراسخ من شريش وباتا بمعسكر المسلمين هنالك ثم ارتحلا من الغد للقاء السلطان يعقوب وكان قد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه وإظهار شعائر الإسلام وأبهته وأن لا يلبسوا إلا البياض، فاحتفلوا وتأهبو وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفر الحامية.

وقدم الطاغية في جماعته سود اللباس خاضعين ذليلين فاجتمعوا بالأمير بحصن الصخرات على مقرية من وادي لك وذلك يوم الأحد العشرين من شعبان سنة أربع وثمانين وستمائة وتقدم الطاغية فلقىه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يلقى بها مثله من عظماء الملل وقدم الطاغية بين يديه هدية من طرف بلاده أتحف بها السلطان وولي عهده كان فيها زوج من الخيول

الوحشى المسمى بالفيل وحمارة من حمر الوحش إلى غير ذلك من الطرف فقبلها السلطان وابنه وأضعفوا له المكافأة وكمל عقد السلم وقبل الطاغية سائر الشروط ورضي بعزم الإسلام عليه وانقلب إلى قومه بملء صدره من الرضى والمسرة وسأل منه السلطان أن يبعث إليه بكتاب العلم التي بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الإسلام فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملأ فيها جملة من مصاحف القرآن الكريم وتفاسيره كابن عطية والشعلي ومن كتب الحديث وشروحاتها كالتهذيب والاستذكار ومن كتب الأصول والفروع واللغة والعربية والأدب وغير ذلك فأمر السلطان رحمة الله بحملها إلى فاس وتحبيسها على المدرسة التي أسسها بها لطلبة العلم وقفل السلطان فاحتل بقصره من الجزيرة لليلتين يقيتا من شعبان فقضى صومه ونسك عيده وجعل من قيام ليله جزاً لمحاضرة أهل العلم وأعد الشعراة كلمات أنشدوها يوم عيد الفطر بمشهد العلاء في مجلس السلطان، وكان من أسباقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة أبو فارس عبد العزيز الملزوري الأصل المكناسي الدار ويعرف بعزوzi أتى بقصيدة طويلة من بحر الوافر على روى الباء المفتوحة المردوفة بالألف ذكر فيها سيرة السلطان وغزواته وغزوات بنيه وحفدته وامتدح قبائل مرين ورتبتهم على منازلهم وذكر فضلهم وقيامهم بالجهاد وذكر قبائل العرب على اختلافها وأنشدت بمحضر السلطان والحاشية فأمر لمنشئها بآلف دينار وخلعة ولمنشئها بعائطي دينار، ثم أعمل السلطان نظره في الثغور فرتب بها المسالح وبعث ولده الأمر أبا زيان منديلاً ليقف على الحد بين أرضه وأرض ابن الأحرر وعقد له على تلك الناحية وأنزله بمحصن ذكون قرب مالقة وأوصاه أن لا يحدث في بلاد ابن الأحرر حدثاً وعقد لعياد بن أبي عياد العاصمي على مسلحة أخرى وأنزله بأسطيونة وأجاز ابنه الأمير يوسف إلى المغرب لنفقد أحواله ومبشرة أمره وأمره أن يبني على قبر والده أبي الملك عبد الحق بتافرطاست زاوية فاختلط هنالك رباطاً حفيلاً وبنى على قبر الأمير

عبد الحق إدريس أسنمة من الرخام ونقشها بالكتابه ورتب عليها قراء لثلاثة القرآن ووقف على ذلك ضياعاً وأرضاً تسع حرث أربعين زوجاً رحم الله الجميع بهته.

وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمة الله

وفي آخر ذي القعدة من سنة أربع وثمانين وستمائة مرض السلطان يعقوب بن عبد الحق مرضه الذي توفي منه فلم يزل ألمه يشتد وحاله يضعف إلى أن توفي بقصره من الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس في صحي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم فاتح سنة خمس وثمانين وستمائة وحمل إلى رباط الفتح من بلاد العدوة فدفن بمسجد شالة وقبره اليوم طامس الأعلام رحمة الله.

بقية أخبار السلطان يعقوب بن عبد الحق وسيرته

كان السلطان يعقوب رحمة الله أبيض اللون تام القد معندي الجسم حسن الوجه واسع المنكبين كامل اللحية معتدلاً أشيب نقبي البياض حليماً متواضعاً جواداً مظفراً منصور الراية ميمون النقيبة لم يقصد جيشاً إلا هزمه ولا عدواً إلا قهره ولا بلداً إلا فتحه صواماً دائماً الذكر كثير البر لا تزال سبحة في يده مقرباً للعلماء مكرماً للصلحاء صادراً في أكثر أموره عن رأيهم ولما استقام له الأمر ببني المرستانات للمرضى والمجانين ورتب لهم الأطباء لتفقد أحوالهم وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال وكذا فعل بالجذم والعمى والفقراء رتب لهم مالاً معلوماً يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود وبني المدارس لطلبة العلم ووقف عليها الأوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى نفعه الله بقصده.

الخبر عن دولة السلطان الناصر لدين الله يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله تعالى

لما مرض السلطان يعقوب بقصره من الجزيرة الخضراء مرضه نساؤه وطيرن بالخبر إلى ولی عهده الأمير يوسف وكان يومئذ بالمغرب فاتصل به الخبر وهو بأحواز فاس فأسرع السیر إلى طنجة وقد مات أبوه قبل وصوله فأخذ البيعة له الوزراء والأشياخ ولما عبر إليهم البحر واحتل بالجزيرة جددوا له البيعة غرة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة وأخذوها له على الكافة فاستتب ملکه واستقام أمره ففرق الأموال وأجل الصلات وسرح السجون ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر ووكلهم فيها إلى أمانتهم وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس وأزال المكوس ورفع الأنزال عن دور الرعية وصرف اعتماءه إلى إصلاح السابلة فأزال أكثر الرتب والقبالات التي كانت بالمغرب إلا ما كان منها في الأقطار الخالية والمفازات المخوفة فخضعت مرين تحت قهره وصلح أمر الناس ذي أيامه، وكان أول شيء أحدث من أمره أنبعث إلى ابن الأحمر وضرب له موعداً للاجتماع به فبادر إليه ولقيه بظاهر مربالة في العشر الأول من ربيع الأول من السنة المذكورة فلقاه السلطان میرة وتكريماً وتجافى له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت في ملکة أبيه ونزل له عنها ما عدى الجزيرة ورندة وطريف وترقى من مكانهما على أكمل حالات المصادفة والموصلة ورجع السلطان يوسف إلى الجزيرة فقدم عليه بها وفد الطاغية سانجة سجدين عقد السلم الذي عقده لهم السلطان يعقوب رحمه الله.

ولما تمهد للسلطان يوسف أمر الأندلس عقد لأخيه أبي عطية العباس بن يعقوب على الثغور الغربية وأوصاه بضبطها وعقد للشيخ المجاهد أبي الحسن علي بن يوسف بن يزكاثن على مسلحتها وجعل إليه أمر الحرب وأعنة الخيل وأمده بثلاثة آلاف منبني مرين والعرب ثم عبر البحر إلى المغرب يوم

الاثنين سابع ربيع الآخر من السنة المذكورة فنزل بقصر المجاز ثم سار إلى حضرة فاس فدخلها ثاني عشر جمادى الأولى منها ولحين استقراره بها خرج عليه محمد بن إدريس بن عبد الحق في بنيه وأخوته ومن انصم إليه ولحق بجبل ورغبة ودعا لنفسه فسرح إليه السلطان يوسف أبا معرف محمد بن يعقوب فبدأ له في التزوع إليهم فلحق بهم وشايدهم على رأيهم من الخلاف فأغزاهم السلطان يوسف عساكره وردد إليهم البعثة والكتائب ثم تلطف في استنزال أخيه حتى نزل على الأمان وفر بنو إدريس إلى تلمسان فقبض عليهم أثناء طريقهم وجيء بهم في الحديد إلى تازا فبعث السلطان يوسف أبا زيان فقتلهم خارج باب الشريعة منها في رجب من السنة ورعب الأعياص منبني عبد الحق يومئذ وخافوا بادرة السلطان يوسف فلحقوا بغروناطة ملتفين على بنى إدريس منهم ثم ارتحل السلطان في رمضان من السنة المذكورة إلى مراكش لتمهيد نواحيها وتنقيف أطرافها فدخلها في شوال وأقام بها إلى رمضان القابل من سنة ست وثمانين وستمائة فنهض من مراكش لغزو عرب معقل بصحراء درعة لأنهم كانوا قد أضروا بالرعايا وأفسدوا السابلة فسار إليهم في الثاني عشر ألفاً من الخيول ومر على بلاد هسکورة معتراضًا جبل درن وأدركهم نواجع بالقفر فأثخن فيهم بالقتل والسببي واستكثر من رؤوسهم فعلقت بشرفات مراكش وسجلماسة وفاس وقفل من غزوه آخر شوال من السنة المذكورة إلى مراكش فنكب محمد بن علي بن محلى عاملها القديم الولاية بها من لدن انقراض الدولة الموحدية لما وقع من الارتياح بأولاد محلى بكثرة خروجهم على الدولة وكانت نكتبه غرة محرم سنة سبع وثمانين وستمائة وهلك في السجن في صفر الموالي له، وعقد السلطان يوسف على مراكش وأعمالها لمحمد بن عطوا الجناتي من موالي دولتهم ولاء حلف وترك معه ابنه أبا عامر عبد بن يوسف ثم ارتحل السلطان يوسف إلى فاس فدخلها متصرف ربيع من السنة المذكورة.

قدوم بنى اشقيولة على السلطان يوسف بسلا وإقطاعه إياهم قصر كتمة والسبب في ذلك

قد تقدم لنا أن بنى اشقيولة كانوا من وجوه الأندلس وأهل الرياسة بها حتى صاهرهم ابن الأحمر بابنته وأخته وقاموا معه في إثبات قواعد ملكه ثم انحرفوا عنه إلى موالاة بنى مرين ونزل محمد بن عبد الله بن أبي الحسن منهم إلى السلطان يعقوب عن مالقة وكان عمه أبو إسحاق بن أبي الحسن صاحب وادي آش وأعمالها واتصل ذلك في بنيه إلى أن بُويع السلطان يوسف فقاموا بدعوته فيها ثم حصلت المصادفة وتأكدت المودة بين السلطان يوسف وابن الأحمر على ما أسلفناه آنفًا فطلب ابن الأحمر من السلطان يوسف أن يتزل له عن واد آش التي هي لبني اشقيولة المتمسكون بدعوته كما نزل له عن غيرها من الشغور فأجابه السلطان إلى ذلك وكتب إلى أبي الحسن بن إسحاق بن اشقيولة يأمره بالتخلي له عنها فتركها له وعبر هو وحاشيته البحر إلى السلطان يوسف سنة سبع وثمانين المذكورة فلقيه بمدينة سلا فأعطاه السلطان يوسف القصر الكبير وأعماله طعمة سوغره إياها فلم تزل ولايته متوارثة في بنيه حتى انقضوا آخر دولة بنى مرين واستمكן ابن الأحمر من وادي آش وحصونها ولم يبق له بالأندلس منازع من قرابة والله أعلم.

حدث الفتنة بين السلطان يوسف وعثمان بن يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان

قد تقدم لنا أن يغمراسن لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان أن لا يحدث مع بنى مرين حرباً ولا يواقفهم في زحف ما استطاع لاستغلاله أمرهم عليه بملكهم المغرب الأقصى وأعماله وأن عثمان قد عمل على ذلك فأفقد أخيه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب بالأندلس وعقد معه السلم

ورجع إلى أخيه كا تقدم ولما ولـي السلطان يوسف وقتل من مراكش إلى فاس في هذه المرة بعد أن ترك ابنه أبي عامر عبد الله مع محمد بن عطوا عامل مراكش ثار أبو عامر المذكور بها وخلع طاعة أبيه ودعا إلى نفسه وشاعـه ابن عطوا على ذلك واتصل الخبر بالسلطان يوسف وهو بفاس فأسرع السير إلى مراكش وبرز إليه ابنه أبو عامر فاقتـلوا ثم انهزم أبو عامر فعاد إلى مراكش واكتـسح بيـت المال بها وفر إلى تلمسان ومعه ابن عطـوا المذكور فقدمـها سـنة ثـمان وـثمانين وـستـمائة فـأواهـم عـثمان بن يـغـمرـاسـن وـمـهـدـ لـهـمـ المـكـانـ فـلـبـثـواـ عـنـدهـ مـلـيـاـ.

ثم عـطفـ السـلطـانـ عـلـىـ اـبـنـ الرـحـمـ فـرـضـيـ عـنـهـ وـأـعـادـهـ إـلـىـ مـكـانـهـ وـطـالـبـ عـثمانـ بنـ يـغـمرـاسـنـ أـنـ يـسـلـمـ إـلـيـهـ اـبـنـ عـطـواـ النـاجـمـ فـيـ النـاقـقـ مـعـ اـبـنـ فـأـبـيـ مـنـ إـضـاعـةـ جـوـارـهـ وـإـخـفـارـ ذـمـتـهـ وـأـغـلـظـ لـهـ الرـسـوـلـ فـسـطـاـ بـهـ عـثمانـ وـأـعـتـقـلـهـ فـثـارـتـ مـنـ السـلـطـانـ يـوسـفـ الـحـفـائـظـ الـكـامـنـةـ وـتـحـرـكـتـ مـنـهـ الـاحـنـ الـقـدـيمـةـ وـالـتـزـغـاتـ الـمـتـوـارـةـ فـاعـتـزـمـ عـلـىـ غـزوـ تـلـمـسـانـ وـنـهـضـ إـلـيـهـ مـنـ مـرـاكـشـ فـيـ صـفـرـ مـنـ سـنـةـ تـسـعـ وـثـمـانـيـنـ وـسـتـمائـةـ بـعـدـ أـنـ عـقـدـ عـلـيـهـ لـابـنـ الـأـمـيرـ أـبـيـ عـبدـ الرـحـمـنـ يـعـقـوبـ بنـ يـوسـفـ ثـمـ نـهـضـ مـنـ فـاسـ إـلـيـهـ آخـرـ رـبـيعـ الـآخـرـ مـنـ سـنـةـ فـيـ عـسـاـكـرـهـ وـجـنـودـهـ وـحـشـدـ الـقـبـائـلـ وـكـافـةـ أـهـلـ الـمـغـرـبـ وـسـارـ حـتـىـ نـازـلـ تـلـمـسـانـ فـتـحـصـنـ مـنـهـ عـثمانـ وـقـومـهـ بـأـسـوارـهـ فـحاـصـرـهـ السـلـطـانـ يـوسـفـ وـضـيقـ عـلـيـهـ وـنـصـبـ عـلـيـهـ الـمـجـانـيـقـ وـكـانـ حـصـارـهـ إـلـيـاهـ فـيـ رـمـضـانـ مـنـ السـنـةـ المـذـكـورـةـ ثـمـ سـارـ فـيـ نـوـاـحـيـهـ يـنـسـفـ الـأـثـارـ وـيـخـربـ الـقـرـىـ وـيـحـطـمـ الزـرـوعـ ثـمـ نـزـلـ بـذـرـاعـ الصـابـونـ مـنـ نـاحـيـتـهـ ثـمـ اـنـتـقـلـ مـنـهـ إـلـىـ تـامـتـ وـحـاـصـرـهـ أـرـبعـينـ يـوـمـاـ وـقـطـعـ أـشـجـارـهـ وـأـبـادـ خـضـرـاءـهـ وـلـمـ اـمـتـنـعـ عـلـيـهـ أـفـرـجـ عـنـهـ وـانـكـفـاـ رـاجـعـاـ إـلـىـ الـمـغـرـبـ وـقـضـىـ نـسـكـ الـفـطـرـ بـعـيـنـ الصـفـاـ مـنـ بـلـادـ بـنـيـ يـزـنـاسـنـ وـنـسـكـ الـأـضـحـىـ وـقـرـبـانـهـ بـتـازـاـ وـتـلـبـثـ بـهـ أـيـامـاـ ثـمـ نـهـضـ مـنـهـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ بـقـصـدـ الـجـهـادـ عـلـىـ مـاـ نـذـكـرـهـ.

انتقام الطاغية سانجة وإجازة السلطان يوسف إليه

لما رجع السلطان يوسف من غزو تلمسان وفاه الخبر وهو بتازا أن الطاغية سانجة قد انتقض ونبذ العهد وتجاوز التحوم وأغار على الشغور، فأوعز السلطان إلى قائد المسالع بالأندلس علي بن يوسف بن يزكاثن بالدخول إلى دار الحرب ومنازلة شريش وشن الغارات على بلاد الطاغية، فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين وستمائة وجاس خلالها وتوغل في أقطارها وأبلغ في النكبة.

ثم فصل السلطان يوسف من تازا غازياً أثراه في جمادى الأولى من السنة المذكورة واحتل قصر مصمودة وهو قصر العجاز واستنفر أهل المغرب وقبائله فنفروا وشرع في إجازتهم البحر، فبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق حجزاً لهم دون الإجازة فأوعز السلطان يوسف إلى قواد أساطيله بالسواحل بعماراتها لمقابلة أساطيل العدو ففعلوا، وقدمت فالتقت مع أساطيل العدو ببحر الزقاق في شعبان من السنة فاقتتلوا وانكشف المسلمون ومحصهم الله وقتل قواد الأساطيل، فأمر السلطان يوسف باستئناف العمارة ثم أغراهم ثانية فخامت أساطيل العدو عن اللقاء وصاعدوا عن الزقاق فملكته أساطيل السلطان، فأجاز آخريات رمضان من السنة واحتل بطريرف ثم دخل دار الحرب غازياً فنازل حصن بجير ثلاثة أشهر وضيق عليهم وبث السرايا في أرض العدو، وردد الغارات على شريش وإشبيلية ونواحيها إلى أن بلغ في النكبة والإثخان غرضه وقضى من الجهاد وطره، وهجم عليه فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر فأفرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة الخضراء ثم عبر إلى المغرب فاتح سنة إحدى وتسعين وستمائة، فتظاهر ابن الأحمر والطاغية على منه من الجواز مرة أخرى كما ذكره الآن.

حدث الفتنة بين السلطان يوسف وابن الأحمر واستيلاء الطاغية على طريف بمظاهره ابن الأحمر له عليها

لما قفل السلطان يوسف من الأندلس وقد أبلغ في نكبة العدو كما قلنا عظم على الطاغية أمره ونقلت عليه وطاته فشرع في إعمال الحيلة في الإفساد بينه وبين ابن الأحمر، وكان ابن الأحمر يتخوف من السلطان يوسف أن يغلبه على بلاده فخلص مع الطاغية نجياً وتفاوضاً في أمر السلطان يوسف وأن تمكنه من الإجازة إليهم إنما هو لقرب مسافة بحر الزقاق وانتظام ثغور المسلمين حفافيه وتصرف شوانبهم وسفنهم فيه متى أرادوا فضلاً عن الأساطيل الجهادية وأن أم تلك الثغور هي طريف وأنهم إذا استمكروا منها منعوا السلطان من العبور وكانت عيناً لهم على الزقاق وكان أسطولهم بمرفأها رصدأً لأساطيل صاحب المغرب الخاصة لجة ذلك البحر، فاعتزم الطاغية على منازلة طريف وبها يومئذ مسلحة بني مرين وتكتفى له ابن الأحمر بمظاهرته على ذلك والتزم له بالمدد والميرة للعسكر أيام منازلتها على أن تكون له إن خلصت للطاغية، وتعاهدوا على ذلك وأنماخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف وألح عليها بالقتال ونصب الآلات من المجنانيق والعرادات وأحاط بها براً وبحراً، وانقطع المدد والميرة عن أهلها وحالت أساطيل العدو بينهم وبين صریخ السلطان واضطرب ابن الأحمر معسكره بمقلاقة قريباً من عسكر الطاغية وسرب إليه المدد من الرجال والسلاح والميرة وأصناف الأقوات، وبعث عسكراً لمنازلة حصن إسطيونة فتغلب عليه بعد مدة من الحصار، واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار فراسلوا الطاغية في الصلح والتزول عن البلد، فصالحهم واستنزلهم وتملكها آخر يوم من شوال سنة إحدى وستين وستمائة ووالي لهم بما عاهدهم عليه واستشرف ابن الأحمر إلى تجافي الطاغية له عنها حسبما تعاهدا عليه فأعرض عن ذلك واستثار بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضاً عنها فخرج من يده الجميع ولم

يحصل على طائل فكانت حاله في ذلك كحال صاحبة النعامة المضروب بها المثل عند العرب وبالله تعالى التوفيق .

ثورة عمر بن يحيى بن الوزير الوطاسي بحصن تازوطا

اعلم أن بني وطاس فخذ من بني مرين لكنهم ليسوا من بني عبد الحق وكانت الرياسة فيهم لبني الوزير منهم ، وبنو الوزير يزعمون أن نسبهم دخيل في مرين وأنهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمنوني لحقوا بالبادية ونزلوا على بني وطاس فالتحموا بهم ولبسوا جلدتهم وحازوا رياستهم ، ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله كما قدمنا بقية بلاد الريف خالصة لبني وطاس هؤلاء فكانت ضواحيها لنزو لهم وأمصارها ورعاياها لجيائتهم وكان حصن تازوطا بها من أمنع معاقل المغرب ، ولما غالب الأمير أبو بكر بن عبد الحق على مكناسة وأقام فيها دعوة الحفصيين ونهض السعيد بن المأمون الموحدي من مراكش لغزوه فر أمامه إلى حصن تازوطا هذا ونزل به على بني الوزير هؤلاء لاجئاً إليهم ومستجيراً بهم فلاردوا الفتاك به غيرة منه وحسداً له فشعر بهم وتحول عنهم إلى عين الصفا من بلاد بني يزناسن حسبما تقدم ذلك كله .

ولما انفرض أمر بني عبد المؤمن واستقام ملك المغرب لبني مرين صرروا عنائهم إلى هذا الحصن فكانوا يتزلون به من الحامية من يثقوه بفناه واضطلاعه ليكون آخذاً بناصية هؤلاء الرهط من بني وطاس لما يعلمون من سموهم إلى الرياسة وتطلعهم إليها ، وكان السلطان يوسف رحمه الله قد عقد على هذا الحصن لابن أخيه منصور بن عبد الواحد بن يعقوب ، وكان عمر وعامر ابنا يحيى ابن الوزير رئيسين على بني وطاس لذلك العهد فاستهونوا أمر السلطان يوسف بعد موت والده وحدثوا أنفسهم بالثورة في ذلك الحصن والاستبداد بتلك الناحية ، فوثب عمر بن يحيى منهم بمنصور بن عبد الواحد في شعبان من سنة إحدى وتسعين

وستمائة وفتى بحاشيته ورجاله وأزعجه عن الحصن وغلبه على ما كان يقتصره من مال وسلاح ومتاع وأعشار للروم كانت مخزننة هنالك وضبط الحصن وشحنه برجاله ووجوه قومه ولحق منصور بن عبد الواحد بعمه السلطان يوسف فهلك للليل أسفًا على ما أصابه.

وسرح السلطان يوسف وزير الناصح أبا عمر بن السعود بن خرياش الحشمي بالحاء المهملة في العساكر لمنازلة حصن تازوطا فأنانخ عليه بكلكله ثم تبعه السلطان يوسف على أثره وفي صحبته عامر بن يحيى بن الوزير آخر عمر الثائر، فإنه كان قد نزع إليه فأحاط السلطان بالحصن وضيق عليه حتى أشفق عمر لشدة الحصار ويش من الخلاص وظن أنه قد أحبط به فدس إلى أخيه عامر في كشف ما نزل به، فضممن عامر للسلطان يوسف نزول أخيه إن هو تركه يقصد إليه حتى يجتمع به فإذا ذهب السلطان يوسف في ذلك فصعب إليه وتفاوضا في أمرهما وأخر الأمر أن عمر احتمل الذخيرة وفر ليلاً إلى تلمسان ويداً لعامر في التزول عندما صار في الحصن فامتنع به قيل لأنه بلغه أن السلطان يوسف عزم على قتله أخذًا بشار ابن أخيه منصور والإفلاته أخاه من يده.

واستمر على ذلك إلى أن قدم على السلطان يوسف وفد الأندلس وفيهم الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل بن الأحمر صاحب مالقة راغبًا في الصلح مع ابن عمه واعتذرًا عنه فأرسى أساطيله بمرسى غسasseة ونزل إلى السلطان وقدم بين يده هدية تنااسب الحال فسمع بهم عامر الوطاسي وهو في الحصن فبعث إليهم يسألهم الشفاعة له عند السلطان يوسف لوجهاتهم لديه فشفع له الرئيس أبو سعيد فقبل السلطان يوسف شفاعته بشرط أن ينتقل بحاشيته إلى الأندلس وكره عامر ذلك فأظهر الرضا وقدم بين يديه جماعة من حاشيته إلى المرسى وركب أكثرهم الأسطول وتأخر عامر إلى جوف الليل فنزل من الحصن وخاض الفلاة إلى تلمسان فتبعت الخيول أثره ففاتهام وأدركوا ولده أبا الخيول فجيء به إلى السلطان يوسف فبعث به إلى فاس فضررت عنقه وصلب

هناك، وأنزل السلطان يوسف بقية الحاشية من الأسطول فأمر بهم فاستلهموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقربائهم وذرياتهم، وتملك السلطان يوسف حصن تازوطا وأنزل به عماله ومسلحاته وقفل إلى حضرته بفاس آخر جمادى الأولى من سنة اثنين وستعين وستمائة.

ولما كان السلطان نازلاً على تازوطا قدم عليه رجل من فرنج جنوة بهدية جليلة فيها شجرة مموهة بالذهب عليها أطيار تصوت بحركات هندسية مثل ما صنع للمتوكل العباسي، وفي هذه المدة سعي عند السلطان يوسف بأولاد الأمير أبي بكر بن عبد الحق وأئامهم أرادوا الخروج عليه ففقد عليهم لذلك وأحسوا بالشر ففرروا إلى تلسمان وأقاموا هناك إلى أن بعث السلطان يوسف إليهم بالأمان فأقبلوا حتى إذا كانوا بصيرة من ناحية ملوية اعترضهم الأمير أبو عامر عبد الله ابن السلطان يوسف فاستلهمهم أجمعين وهو يرى أنه قد أرضى أباء بذلك الفعل، واتصل الخبر بالسلطان يوسف فسخطه وأقصاه وتبرأ منه فلم يزل طريداً ببلاد الريف وجبال غماره إلى أن هلكبني سعيد منهم آخر سنة ثمان وستعين وستمائة وحمل إلى فاس فدفن بالزاوية التي دخل باب الفتوح وخلف ثلاثة أولاد عامر وسليمان وداود فكتلهم جدهم السلطان يوسف إلى إن هلك فولي الأمر بعده حافظه عامر وبعد عامر سليمان وسيأتي ذكرهما إن شاء الله.

انعقاد الصلح بين السلطان يوسف وابن الأحمر ووفادته عليه بطنجة

لما استولى الطاغية على طريف بمظاهره ابن الأحمر له عليها ونقض الطاغية عهد ابن الأحمر في النزول له عنها سقط في يد ابن الأحمر وندم على فعله ورجع إلى التمسك بالسلطان يوسف، فأؤخذ عليه ابن عم الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل ووزيره أبي سلطان عزيز الداني في وفدي من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة وتقرير المعاذرة عن شأن طريف، فوافوه

بمكانه من حصار تازوطا كما قدمنا فأبرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا إلى ابن الأحمر سنة اثنين وتسعين وستمائة بإسعاف غرضه من المؤاخاة واتصال اليد، فوقع ذلك منه أجمل موقع وطار سروراً من أغواده، وأجمع الرحلة إلى السلطان لإنفصال العقد والاستبلاغ في العذر عن واقعة طريف والرغبة إليه في نصرة بلاد الأندلس وإغاثة المسلمين الذين بها، فتهياً لذلك وعبر البحر في ذي القعدة من سنة اثنين وتسعين وستمائة واحتل بجبل بيونش من ناحية سبتة، ثم ارتحل إلى طنجة فلقى بها الأميران أبو عامر عبد الله وأبو عبد الرحمن يعقوب ابنا السلطان يوسف وكان أبو عامر لا زال يومئذ من أبيه بعين الرضا.

ولما علم السلطان يوسف بقدومه خرج من فاس للقاءه وبرور مقدمه فوافاه بطنجة فقدم ابن الأحمر بين يدي نجواه هدية أتحف بها السلطان يوسف كان من أحسنها موقعاً لديه المصحف الكبير الذي يقال إنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة ثم خلص إلى ابن الأحمر فأتحف به السلطان يوسف في هذه المرة، فقبل السلطان ذلك وكافأه بأضعافه وبالغ في تكرمه وأسعفه بجميع مطالبه وأراد ابن الأحمر أن يبسط العذر عن شأن طريف فتجافي السلطان يوسف عن سماع ذلك وأضرب عن ذكره صحفاً وبر وأحفى ووصل وأجزل، ونزل^(١) لابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصنًا من ثغور الأندلس كانت قبل في ملكته وملكة أبيه، وعاد ابن الأحمر إلى أندلسه آخر سنة اثنين وتسعين وستمائة محبوراً وعبرت معه عساكر السلطان يوسف لحصار طريف ومنازلته وعقد على حربها لوزيره الشهير الذكر عمر بن السعود بن خرباش الحشمي فنالتها مدة فامتنعت عليه وأفرج عنها.

وفي سنة ثلاثة وتسعين بعدها فرغ السلطان يوسف من بناء جامع تازا

(١) في النسخة الصحيحة من ابن خلدون طبع الجزائر أن النازل عن هذه الثغور هو ابن الأحمر للسلطان يوسف هو ما يقتضيه الحال.

وعلقت به الثريا الكبرى من النحاس الخالص وزنها اثنان وثلاثون قنطاراً وعدد كؤوسها خمسماة كأس وأربعة عشر كأساً، وأنفق السلطان في بناء الجامع وعمل الثريا المذكورة ثمانية آلاف دينار ذهبأ.

وفي سنة أربع وتسعين بعدها خرج السلطان يوسف لغزو تلمسان فوصل إلى تاوريرت وكانت تخماً لعملبني مرين وبني عبد الواد، فنصفها للسلطان يوسف ونصفها لعثمان بن يغمراسن ولكل واحد منها بها عامل من ناحيته فطرد السلطان يوسف عامل ابن يغمراسن وشرع في بناء الحصن الذي هنالك فأدار سوره وشيده وركب أبوابه مصفحة بالجديد وكان يقف على بنائه بنفسه من صلاة العداة إلى المساء لا يغيب عن العملة إلا في أوقات الضرورة، وفرغ من بنائه وتحصينه في رمضان من السنة المذكورة ولما تم شحنه بالعسكر والسلاح وعقد عليه لأخيه أبي بكر بن يعقوب ويكتنى أبا يحيى وانكفا راجعاً إلى الحضرة، ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين بعدها بقصد تلمسان فسار حتى نزل على ندرورة فحاصرها وشدد في قتالها ورمها بالمنجنيق أربعين يوماً فامتنعت عليه فأخرج عنه ثاني عيد الفطر من السنة المذكورة، ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة فسار إلى تلمسان ويرز عثمان بن يغمراسن لمدافعته فانهزم وتحصن بالأسوار وتقدم السلطان يوسف حتى نزل على تلمسان وقتل من أهلها خلقاً ثم أفلح عنها ورجع إلى المغرب فقضى نسك الأضحى من السنة المذكورة برياط تازا وأمر ببناء القصر بها، وسار إلى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وتسعين وستمائة ثم ارتحل إلى مكناسة فقضى بها بعض الوطэр ثم عاد إلى فاس، ثم خرج منها في جمادى الأولى من السنة المذكورة غازياً تلمسان ومر في طريقه بمدينة وجدة فأمر ببنائها وكان أبوه السلطان يعقوب قد هدمها كما مر في بناها السلطان يوسف في هذه المرة وحصن أسوارها وبنى بها قصبة وداراً لسكنه وحمامأً ومسجدأً ثم سار إلى تلمسان فنزل بساحتها وأحاطت عساكره بها إحاطة الهالة بالقمر ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار اخترعها المهندسون والصناع وتقربوا إلى السلطان

بعملها فأعجبته وكانت تحمل على أحد عشر بغلًا ولما امتنعت تلمسان عليه أخرج عنها فاتح سنة ثمان وستعين وستمائة ومر في عوده إلى المغرب بوجدة فأنزل بها الحامية منبني عسكر بن محمد لنظر أخيه الأمير أبي بكر بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت وأمرهم بشن الغارات على أعمال تلمسان مع الساعات والأحيان ففعلوا واستولى الأمير أبو بكر بذلك على أكثر تلك الجهات والله تعالى أعلم.

فتكة ابن الملياني بشيوخ المصامدة وتزويره الكتاب بهم والسب في ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على فتح جبل تيملل أن أبا علي الملياني كان قد سعى في نبش قبوربني عبد المؤمن والعبث بأشلاءهم وأن الناس قد غاظهم ذلك لا سيما المصامدة منهم، ولما هلك السلطان يعقوب وولي بعده ابنه يوسف استعمل أبا علي الملياني على جباية المصامدة فباشرها مدة ثم سعى به شيخ المصامدة عند السلطان بأنه احتاج المال لنفسه، فأمر السلطان بمحاسبته فحوسب وظهرت مخايل صدقهم عليه فنكبه السلطان يوسف أولاً ثم قتله ثانياً، واصطُنَعَ ابن أخيه أبا العباس⁽¹⁾ أحمد بن علي الملياني واستعمله في كتابته وأقامه ببابه في جملة كتابه، وكان السلطان يوسف قد سخط على بعض شيوخ المصامدة منهم علي بن محمد كبير هنتاته وبعد الكريمه بن عيسى كبير قدميوة وأوعز إلى ابنه الأمير علي بن يوسف بمراکش باعتقالهما فاعتقلهما فيمن لهما من الولد والحاشية، وأحس بذلك أحمد بن الملياني فاستعجل الثأر الذي كان يعتدّه عليهم في عمه أبي علي.

وكانت العلامة السلطانية يومئذ موكلة إلى كتاب الدولة لم تختص بواحد منهم لما كانوا كلهم ثقات أمناء وكانوا عند السلطان كأسنان المشط فكتب أحمد بن الملياني إلى الأمير أبي علي كتاباً على لسان والده يأمره فيه أمراً جزماً

(1) انظر ترجمته في الإحاطة ج 1/ 149.

يقتل مشيخة المصادمة ولا يمهلهم طرفة عين ووضع عليه العلامة التي تنفذ بها الأوامر السلطانية وختم الكتاب ويعث به مع البريد، قال ابن الخطيب: «ولما أكَدَ على حامله في العجل وضايقه في تقدير الأجل تأْنِي حتى إذا علم أنه قد وصل وأن غرضه قد حصل فر إلى تلمسان وهي بحال حصارها فاتصل بأنصارها حالاً بين أنوفها وأبصارها وتعجب الناس من فراره وسوء اغتراره وترجمت الظنوں في آثاره ثم وصلت الأخبار ب تمام الحيلة واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة فتركها شعاعاً على الأيام وعاراً في الأقاليم على حملة الأفلام» اهـ ولما وصل الكتاب إلى ولد السلطان أخرج أولئك الرهط المعتقلين إلى مصارعهم وحكم السيف في رقاب جميعهم فقتل علي بن محمد الهاشمي وولده عبد الكريم بن عيسى القدميوي وبنته الثلاثة عيسى وعلي ومنصور وابن أخيه عبد العزيز بن محمد، وطير الأمير علي بالإعلام إلى والده مع بعض وزرائه وهو يرى أنه قد امتنل الأمر واستوجب الشكر.

فلما وصل الرسول بالخبر إلى السلطان يوسف بطيش به فقتله غيظاً عليه وأنفذ البريد في الحال باعتقال ولده وقام وقعد لذلك ومن ذلك الوقت قصر السلطان علامته على من يختاره من ثقات الكتاب وعدولهم، وجعلها يومئذ للفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين وكان من الكفافة المضططعين بأمر الدولة المتحملين للكثير من أعبائهما، وأما ابن ملياني فإنه فر إلى تلمسان والسلطان يوسف محاصر لها ولما وقع الإفراج عنها بعد حين انتقل إلى الأندلس فقي هنالك إلى أن توفي بغرنطة سنة خمس عشرة وسبعيناً وعشرين شعراً يفخر بهذه الفعلة وغيرها قوله:

والعز ما ضربت عليه ثيابي والفضل ما اشتغلت به قبابي والمسك ما أبداه غصن يراعتي والعزوم يأنى أن يضم جنابي بجميل شكري أو جزيل ثوابي مجرى طعامي من دمي وشرابي ثاراً فأوشك أن أثال طلابي	والزهر ما أهداه غصن يراعتي فالمجد يمنع أن يزاحم موردي فإذا بلوت صنيعة جازيتها وإذا عقدت مودة أجريتها وإذا طلبت من الفرائد والسهبي
---	---

الحصار الطويل وما تخلل ذلك من الأحداث على تلمسان

تقدمنا أن السلطان يوسف لما رجع من محاصرة تلمسان فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة من في طريقه بوجدة فأنزل بها العاصمة من بنى عسكر إلى نظر أخيه الأمير أبي بكر وأمره بشن الغارات على أعمال بنى زيان فامثل الأمير أبو بكر أمره وألح على النواحي بالغارات وإفساد السابلة، فضاق أهل ندرومة بذلك ذرعاً وأوفدوا وفداً منهم على الأمير أبي بكر يسألونه الأمان لهم ولمن وراءهم من قومهم على أن يمكنوه من قياد بلدهم ويدينوا بطاعة السلطان يوسف فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم، ونهض إلى البلد فدخله بعسكره وتبعهم على ذلك أهل تاونت فأوفد الأمير أبو بكر جماعة من أهل البلدين على أخيه السلطان يوسف فقدموا عليه متصرف رجب من سنة ثمان وتسعين المذكورة فأدوا طاعتهم فقبلها، ورغبوا إليه في الحركة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوه وعدوهم عثمان بن يغمراسن ووصفو له من عسفه وجوره وضعفه عن الحماية ما أكد عزمه على النهوض، فنهض لحيته من فاس في رجب المذكور بعد أن استكمل حشده ونادي في قومه وعرض عسكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عليهم، وسار في التعبية حتى نزل بساحة تلمسان ثاني شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة فأناخ عليها بكلكله وربض قبالتها على ترابه وأنزل محلته بقناتها وأحاط الجميع جهاتها، وتحصن يغمراسن وقومه بالجدران وعولوا على الحصار.

ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار سوراً عظيماً جعله سياجاً على تلمسان وما اتصل بها من العمran وصیرها في وسطه، ثم أردف ذلك السور من ورائه بحغير بعيد المهوی وفتح فيه مداخل لحربها ورتب على أبواب تلك المداخل مصالح تحرسه، وأوعز بالعقاب من يختلف إلى تلمسان برفق أو يتسلل إليها بقوت وأخذ بمحنتهها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص

إليها الطير لا بل الطيف، واستمر مقيناً عليها كذلك مائة شهر، ولما دخلت سنة اثنين وسبعين اخترط إلى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه وقبابه قصراً لسكنائه واتخذ به مسجداً لصلاته وأدار عليهما سوراً يحرزهما، ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة واتخذوا البساتين وأجرروا المياه، وأمر السلطان باتخاذ الحمامات والفنادق والممارستان، وابتني مسجداً جاماً أقامه على الصهريج الكبير وشيد له منارة رفيعةً وجعل على رأسه تفاصيح من ذهب صير عليها سبعين دينار ثم أدار السور على ذلك كله فصارت مدينة عظيمة استبهر عمرانها ونفقت أسواقها ورحل إليها التجار بالبضائع من جميع الآفاق وسماتها المنصورة، فكانت من أعظم أمصار المغرب وأحفلها إلى أن خربها آل يغمراسن عند مهلك السلطان يوسف وارتحال جيوشه عنها، ولما تمكّن السلطان يوسف من حصار تلمسان سرح كتابه وسرابيه في أعمالها وحصونها فاستولى في مدة قريبة على ندرومة وهنین ووهران وتالموت وتمزردكت ومستغانم وتنس وشرشال وبرشك والبطحاء ومازونة ووانشريس ومليانة والقصبات ولدية وتافرجينت، وجميع بلادبني عبد الواد وببلادبني توجين وببلاد مغراوة وباييه ابن علان صاحب الجزائر وأخذ رعبه بملوك التواحي، وكانت دولةبني أبي حفص يومئذ قد انقسمت بقسمين فصار كرسي منها بتونس وأخر بجاية فتنافس صاحب تونس وصاحب بجاية في مصانعة السلطان يوسف والتقارب إليه بالهدايا والتحف وصار السلطان يوسف في ذلك الوقت ملك المغرب على الحقيقة والإطلاق والله غالب على أمره.

نكبةبني وقاصة من يهود فاس

كان بنو وقاصة هؤلاء من يهود ملاح فاس وكانوا مداخلين للسلطان يوسف من صغره إلى كبره، وكانوا يتولون قهرمة داره ويقضون أمره الخاصة

به ويخلصون إلى الكثير من باطن أمره، قد التحوموا به التحامًاً وامتزجوا به امتزاجاً يحالسوه في خلواته وينادونه في أنسه، فعظم جاههم عند الحاشية لإقليم السلطان عليهم واستتبعوا الوزراء فمن دونهم من رجال الدولة، وتعددت فيهم الرؤساء والقهاة فكان منهم خليفة بن وقاصة وأخوه إبراهيم وصهره موسى بن السبتي وابن عمه خليفة الأصغر وغيرهم واستمرروا على ذلك برهة من الدهر، ثم إن السلطان يوسف استفاق استفاقه والتفت إليهم التفاتة وراجع بصيرته في شأنهم فأهله أمرهم وشعر كاتبه بذلك القائم بأمور دولته أبو محمد عبد الله بن أبي مدين، فسعى عنده فيهم وأوجده السبيل عليهم فسطوا بهم سطوة منكرة واعتقلوا في شعبان من سنة إحدى وسبعينة بمعسكره من حصار تلمسان وقتل خليفة الكبير وأخوه إبراهيم وموسى بن السبتي وإخوته بعد أن امتحنوا ومثل بهم وأتت النكبة على حاشيتهم وأقاريبهم فلم تبق منهم باقية، إلا أن السلطان استيقى منهم خليفة الأصغر احتقاراً لشأنه حتى كان من قتله بعد ما ذكره، وعثث بسائرهم وظهرت الدولة من رجسهم وأزيل منها ميرة رياستهم والأمور بيد الله سبحانه.

ثم لما كانت سنة ثلاثة وسبعينة توفي عثمان بن يغماسن في الحصار عقب شربة لبني يقال إنه جعل فيها سماً وشربه فعل ذلك بنفسه تفادياً من ميرة غلبة عدوه عليه، فاجتمع بنو عبد الواد لحيتهم وبایعوا ابنه محمد بن عثمان واجتمعوا عليه ثم بрезوا إلى قتال عدوهم على العادة حتى كان عثمان لم يتمت وبلغ الخبر إلى السلطان يوسف فتفجع على عثمان وعجب من صرامة قومه من بعده.

انتقاض ابن الأحمر واستيلاء الرئيس أبي سعيد على سبتة

كان محمد بن الأحمر المعروف بالفقير قد هلك سنة إحدى وسبعين مائة، وولي الأمر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع واستبد عليه كاتبه أبو عبد الله محمد بن الحكيم الرندي، وكان من أول ما فعله محمد المخلوع بعد استقلاله بالأمر المبادرة إلى أحكام عقد الموالة بينه وبين السلطان يوسف فألوقد عليه وزير أبيه أبياً سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني وزيره الكاتب أبي عبد الله بن الحكيم، فوصل إلى السلطان يوسف بمعسكره من حصار تلمسان فتلقاهم بالقبول والمبرة وجددت لهما أحكام الود والولاعة وانقلبا إلى مرساهما خير منقلب وطلب السلطان منهما أن يمدوه بالرجل من عسكر الأندلس وناشتهم المعودين منازلة الحصون والمثاغرة بالرياط فأسعفوه، ثم فسد ما بينهما لمنافسات جرت إلى ذلك فانتقض ابن الأحمر وعاد لسنة سلفه من موالة الطاغية وممالاته على المسلمين أهل المغرب وأحكام العهد مع هراندة بن سانجة من بني أذفونش ملوك قشتالة خذلهم الله.

ثم أوعز ابن الأحمر إلى ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة في إعمال العجالة في الغدر بأهل سبتة ففعل، وداخل في ذلك بعض عمال بني العزفي بها فتمكنه من البلد فاقتصرها بأساطيله وجنده على حين غفلة من أهلها وتقبض على بني العزفي وعلى حاشيتهم وأركبهم الأسطول وبعث بهم إلى مالقة ثم منها إلى غرناطة فتلقاهم ابن الأحمر واحتفل لهم وأنزلهم بقصوره وأجرى عليهم النفقه واستقروا بالأندلس برهة من الدهر ثم عادوا إلى المغرب كما ذكر وأسند الرئيس أبو سعيد بأمر سبتة وتفق أطرافها وسد ثغورها وبلغ الخبر بذلك إلى السلطان يوسف فحمدى أنه وعظم عليه الأمر فبعث ولده الأمير أبي سالم إبراهيم في جيش كثيف إلى حصارها وحشد إليها قبائل الريف وقبائل تازا فلم يغن شيئاً ورجع مهزوماً فسخطه السلطان لذلك وأهمله ويقى على ذلك إلى وفاة السلطان رحمة الله وكان انتقاض ابن الأحمر سنة ثلاثة وسبعين مائة.

ثورة عثمان بن أبي العلاء بجبل غمارة

كان عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الحق من أعيان الملك المربيني وكان قد قدم من الأندلس في صحبة الرئيس أبي سعيد عند استيلائه على سبتة ثم تار بعد ذلك ببلاد غمارة ودعا لنفسه وبقي متنقلًا هنالك مدة، فتغلب على تكساس وأصيلا والعرابيش وانتهى إلى قصر كاتمة وخب في الفتنة ووضع إلى أن لحق بالأندلس لأول دولة السلطان أبي الريبع فولي بها مشيخة الغزاوة وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء كما سيأتي إن شاء الله.

وفي سنة ثلاثة وسبعمائة بعث السلطان يوسف وهو محاصر لتلمسان ركب الحاج المغربي إلى الحرمين الشريفين، واعتنى بشأن هذا الركب ببعث معهم حامية من زناته تاهز خمسمائة فارس من الأبطال، ومخاطب صاحب الديار المصرية لعهده وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي من مماليكبني أيوب المعروفين بالبحرية، واستوصاه بحاج أهل المغرب وأتحفه بهدية استثنى فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة يقال كان عدد الخيل والمطايا أربعين ألفاً إلى غير ذلك مما يناسب من طرف المغرب وما عونه وبعث معهم إلى حرم مكة مصحفاً ضخماً اعنى به واستكتبه وجعل له غشاء مكلاً بنفيس الدر وشريف الياقوت وربيع الأحجار، ونهج السلطان يوسف رحمه الله بهذا الركب والهدية السبيل ل حاج المغرب فأجمعوا الحج سنة أربع بعدها فاجتمع منهم عدد وافر وركب ضخم فعقد السلطان يوسف على دلالتهم لأبي زيد الغفاري وفصلوا من تلمسان في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وفي شهر ربيع الآخر بعده قدم حاج الركب الأول الذين حملوا المصحف والهدية ووفد معهم على السلطان يوسف شريف مكة السيد ليبدة بن أبي نمي نازعاً عن سلطان الترك صاحب مصر لما كان قد فقبض

على أخيه حميضة ورميحة بعد مهلك أبيهم أبي نمي صاحب مكة، فاستبلغ السلطان يوسف من إكرامه والتنويه بقدره وسرحه إلى المغرب ليجول في أقطاره ويطوف على معالم الملك وقصوره، وأوزع إلى العمال بالبرور به وإتحافه على ما يناسب قدره، ورجع هذا الشريف إلى حضرة السلطان من تلمسان سنة خمس وسبعيناً ثم فصل منها إلى مشرقه، وفي شعبان من هذه السنة قدم أبو زيد الغفارى دليل ركب الحاج الثاني ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان يوسف لما كان صاحب مصر قد آسفهم بالقبض على إخوانهم وكان ذلك شأنهم متى غاظهم السلطان وأهدوا إلى السلطان يوسف ثواباً من كسوة الكعبة أعجب به فاتخذ منه ثوباً للبوس في الجمع والأعياد كان يستبطنه بين ثيابه تبركاً به.

وأما الملك الناصر صاحب مصر فإنه كافأ السلطان يوسف على هديته بأن جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله من الشياطين والحيوانات ونحو ذلك مثل الفيل والزرافة ونحوهما وأوفد به مع عظاماء دولته وفصلوا من القاهرة آخر سنة خمس وسبعيناً فوصلوا إلى السلطان يوسف وهو بالمنصورة في جمادى الآخرة سنة ست بعدها واهتز لقدومهم وأركب الناس للقيهم وأكرم وفادتهم ويعثthem إلى المغرب للتطوف به على العادة في مبرة أمثالهم، وهلك السلطان يوسف أثناء ذلك وأفضى الأمر إلى حافظه أبي ثابت فأحسن منقلبهم وملا حقائبهم وفصلوا من المغرب إلى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان بعدها اعترضتهم الأعراب بالقفر فانتهبوهم وخلصوا إلى مصر بجريعة الذقن فلم يعاودوا بعدها إلى المغرب سفراً ولا لفتوا إليه وجهاً وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يوبه له ويهادونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئاً.

وفاة السلطان يوسف رحمة الله

كان السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمة الله قد اتَّخذ في جملة حاشيته ومماليكه خصيًّا اسمه سعادة وكان هذا الخصي قد تصير إليه من جهة أبي علي الملياني أيام كان عاملًا له على مراكش وكان السلطان يوسف في ابْدَاء أمره يخلط الخصيان بأهله ولا يحجبهم عن حرمته وعياله ثم حدثت للسلطان ريبة في بعض الخصيان فأعْتَق جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير عريفهم، وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك وفسدت نياتهم فسولت لهذا الخصيُّ البَيْت نفسه الشيطانية الفتاك بالسلطان فعمد إليه وهو في بعض حجر قصره فاستأذن عليه فأذن له فألفاه مستلقياً على فراشه مختضباً بحناء فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هارباً وانطلق بعض الأولياء في أثره فأدركه من العشي بناحية تاسلت فقبض عليه وجيء به إلى القصر فقتلته العبيد والحاشية وصارت السلطان يوسف منيته إلى آخر النهار ثم قضى رحمة الله يوم الأربعاء سادع ذي القعدة من سنة ست وسبعينان^(١) وقبر هنالك ثم نقل بعد ما سكنت الهيبة إلى مقبرتهم بشالة فدفن بها مع سلفه وأطلال ضريحه لا زالت ماثلة إلى الآن.

ويموت السلطان يوسف انقضت مدة الحصار عن آڭ يغمراسن وقومهم من بني عبد النواد وسائر أهل تلمسان وكانت المدة في ذلك مائة شهر كما قلنا تالهم فيها من الجهد والشدة ما لم يبن أمة من الأمم واخضروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران، حتى أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس وخربوا السقوف للوقود وغلت أسعار الأقواف والحبوب وسائر المرافق بما

(١) وزعم التونسي أن رجلاً من يشار لهم بالصلاح من أهل أغمات جاء إلى السلطان يوسف وهو تحت أسوار تلمسان ورَغِب منه أن يرفع الحصار عن بني زيان فرفض السلطان طلبه فتأثر الرجل من ذلك وانصرف وهو يقول: «سيحدث بعد حادث يكون فيه ما طلبت» ثم ساق ذكر الخصي بعد بالسلطان يوسف رحمة الله.

تجاوز حد العادة وعجز وجدهم عنها فكان ثمن مكياط القمع ومقداره اثنا عشر رطلاً ونصف مثقالين ونصفاً من الذهب العين وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالاً ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفاً وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ومن الخيل بعشر المثقال والرطل من الجلد البقري ميطة أو مذكى بثلاثين درهماً والهر الداجي بمثقال ونصف الكلب بمثله والفار بعشرة دراهم والحبة بمثل ذلك والدجاجة بثلاثين درهماً والبيض واحدة بستة دراهم والعصافير كذلك والأوقية من الزيت باثني عشر درهماً ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين درهماً ومن الملح بعشرة دراهم ومن الحطب كذلك والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال ومن الخس بعشرين درهماً ومن اللفت بخمسة عشر درهماً والواحدة من القثاء والفقوس باربعين درهماً والخيار بثلاثة أثمان الدينار والبطيخ بثلاثين درهماً والحبة من التين والإجاص بدرهمين، واستهلك الناس أموالهم وموجودهم وضاقت أحوالهم وهلكت حاميتهم فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج للاستماتة فهياً الله لهم الصنع الغريب ونفس عن مخنقوهم بمثل ذلك السلطان يوسف على يدخصي المريب وأذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور وكتبوا بعد هذه الحادثة في سكتهم: «ما أقرب فرج الله» استغرايا لها^(١).

قال ابن خلدون: حدثني شيخنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلقي قال: جلس السلطان أبو زيان بن عثمان بن يغمراسن صبيحة يوم الفرج وهو يوم الأربعاء سابع ذي القعدة في زاوية من زوايا قصره يفكر واستدعاي ابن جحاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة فقال له: إنما بقي عولة اليوم وغداً فاستوصاه بكلمان ذلك وبينما هم يتذكرون في ذلك دخل عليهم أخوه أبو حمو فأخبروه بذلك فوجم وجلسوا سكوتاً لا ينطقون

(١) ذكر صاحب بغية الرواية أنه بلغ في هذا الحصار عدد موتى أهل تلمسان قتلاً وجوعاً زهاء مائة ألف وعشرين ألفاً ص 125 طبع الجزائر سنة 1321 - 1903.

وإذا بددت قهرمانة القصر وكانت وصيفة من وصائف بنت السلطان أبي إسحاق حظيبة أبيهم قد خرجت من القصر إليهم وحيتهم وقالت لهم: «تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم: «ما لنا وللقاء وقد أحبط بكم وأسف عدوكم لاتهامكم ولم يق الأفواق ناقة لمصارعكم فأريحونا من معرة السبي وقربونا إلى مصارعنا وأريحا أنفسكم فيما فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم» فالتفت أبو حمو إلى أخيه أبي زيان وكان من الشفقة بمكان فقال: «قد صدقتك الخبر بما تنتظر بهن» فقال: «يا موسى أرجئني ثلاثة لعل الله يجعل بعد عشر يسراً ولا تشاوري بعدها فيهن بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلهم وتعالى إلى نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستميت ويقضي الله ما شاء» فغضب أبو حمو وأنكر عليه التأخير في ذلك وقال: «إنما نحن والله نتربيص المعرة بهن وبأنفسنا» وقام عنه مغضباً وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء قال ابن جحاف: «وأنا بمكاني بين يديه لا أملك متاخراً ولا متقدماً إلى أن غلب عليه النوم فما راعني إلا حرسي بالباب يشير إلى أن أعلم السلطان بمكان رسول جاء من محلةبني مرین وهو بسدة القصر» قال ابن جحاف: «فلم أطق رد جوابه إلا بالإشارة» وانتبه السلطان من همسنا فزعاً فأعلمه فاستدعاه للحين فلما وقف بين يديه قال: «إن السلطان يوسف بن يعقوب هلك الساعة وأنا رسول حافظه أبي ثابت إليكم» فاستبشر السلطان أبو زيان واستدعى أخاه وقومه حتى بلغ الرسول المذكور رسالته بسمع منهم وكانت إحدى المغribات في الأيام وكان من خبر هذه الرسالة أن السلطان يوسف لما هلك تطاول للأمر بعده القرابة من إخوته وولده وحفدته وتحيز حافظه أبو ثابت إلىبني ورتاجن لخولة كانت له فيهم فاستجاش بهم واعصوصبوا عليه ويعث إلىبني زيان أن يعطوه آلة الحرب ويكونوا مفرعاً له إن أخفق مسعاه على أنه إن تم أمره قوض عنهم معسكربني مرین وأخرج عنهم، فعاددوه على ذلك فوفى لهم لما تم أمره ونزل لهم عن جميع الأعمال التي كان السلطان يوسف غالب عليها من بلادهم ورحلوا إلى مغربهم والله غالب على أمره.

بقية أخبار السلطان يوسف وسيرته

كان السلطان يوسف رحمة الله أبيض حسن القد مليح الوجه أفنى الأنف
مهيباً لا يكاد أحد يبدأ بالكلام جواداً مشفقاً على الرعية متفقداً لأحوالها
شجاعاً شهماً ذا عزيمة.

إذا هم ألقى بين عينيه همه ونكب عن ذكر العواقب جانباً
وهو أول من هذب ملك بني مرين وأكسبه رونق الحضارة وبهاء الملك
وكان غليظ الحجاب لا يكاد يصل إليه إلا بعد الجهد، ومن أعيان كتابه
الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين العثماني، ومن أعيان شعرائه أبو
الحكم مالك بن المرحل السبتي وأبو فارس عبد العزيز الملزوzi المكتناسي
وغيرهما والله تعالى أعلم.

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث ففي سنة ست وخمسين
وستمائة وهي السنة التي بويع فيها السلطان يعقوب بن عبد الحق كان الرخاء
المفروط بالمغرب بحيث كان الدقيق بيع بفاس وغيرها بيع منه بدرهم والقمح
ستة دراهم للصحفه والشعير ثلاثة دراهم للصحفه، وأما القطاني فلم يكن لها
ثمن والعسل ثلاثة أرطال بدرهم والزيت أربعون أوقية بدرهم والزيبيب درهم
ونصف للربع والشمر ثمانية أرطال بدرهم والتلوز صاع بدرهم والشابل الطري
فردة بقيراط والملح حمل بدرهم ولحم البقر مائة أوقية بدرهم ولحم الصان
سبعون أوقية بدرهم والكبش بخمسة دراهم وهكذا.

وفي سنة إحدى وستين وستمائة ظهر النجم أبو الذواب وكأن ابتداء
ظهوره ليلة الثلاثاء الثاني عشر من شعبان من السنة المذكورة وبقي يطلع كل
ليلة وقت السحر نحوأ من عشرين يوماً.

وفي سنة أربع وستين وستمائة كان دخول الشريف المولى حسن بن
قاسم الحسني من أرض ينبع الحجاز إلى سجلماسة وهذا الشريف هو جد
الأشراف العلويين السجلماسيين ملوك المغرب الأقصى في عصرنا هذا أعلى

الله تعالى قدرهم وخلد مجدهم وفخرهم، وعند الكلام على دولتهم السعيدة نذكر كيفية دخول هذا الشريف إلى المغرب والسبب فيه إن شاء الله . وفي سنة ست وستين وستمائة سرق من بيت المال بقصبة فاس اثنا عشر ألف دينار وثلاث قلائد يساوين أكثر من ذلك . وفي حدود السبعين وستمائة كان ظهور البارود على ما مر من أن السلطان يعقوب بن عبد الحق فتح به سجلماسة في هذه المدة والله تعالى أعلم .

وفي سنة سبع وسبعين وستمائة بني المسجد الجامع بفاس الجديد، وفي سنة تسع وسبعين وستمائة علقت به ثرياه وذلك يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الأول منها وزن هذه الثريا سبعة قناطير وخمسة عشر رطلاً وعدد كؤوسها مائتا كأس بالثلثة وسبعين وثمانون كأساً وفيها كان الجراد العام بال المغرب أكل الجسر والزرع ولم يترك خضراء على وجه الأرض وبلغ القمح عشرة دراهم للصاع .

وفي سنة ثمانين وستمائة بنيت قنطرة وادي النجاة وقنطرة ماريغ .

وفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة كان بالمغرب قحط شديد لم ير الناس قطرة ماء حتى كان اليوم السابع والعشرون من رمضان وهو اليوم الذي توفيت فيه الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوية من بني علي بن عسكر وهي أم السلطان يوسف فغاث الله العباد وأحيى برحمته البلاد .

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة بنيت قصبة تطاوين وفيها ركبت الناعورة الكبرى على وادي فاس شرع في عملها في رجب من السنة المذكورة ودارت في صفر من السنة بعدها .

وفي سنة ست وثمانين وستمائة بني سور قصر المجاز وركبت أبوابه وفيها غرس بستان المصارة بفاس الجديد وبنيت الدار البيضاء بها أيضاً .

وفي سنة تسع وثمانين وستمائة كانت الربيع الشرقية المتواتلة الهبوب ونشأ عنها القحط الشديد واستمر ذلك إلى آخر سنة تسعين بعدها فرحم الله

بلاده وعباده وفيها توفي الشيخ الصالح أبو يعقوب الأشقر بالكتدرتين من بلاد بني بهلول من أحواز فاس ولعل أبي يعقوب هذا هو الذي تنسب إليه الحمة التي قدمنا الكلام عليها في أخبار المنصور الموحدي والله أعلم وفيها بني المسجد الجامع بمدينة تازا وبنيت قبة مكتنasa الزيتون رباعها.

وفي سنة إحدى وستين وستمائة أمر السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بعمل المولد النبوi وتعظيمه والاحتفال له^(١) وصيروه عيداً من الأعياد في جميع بلاده وذلك في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وكان الأمر به قد صدر عنه وهو بصرة من بلاد الريف في آخر صفر من السنة فوصل برسم إقامته بحضوره فاس الفقيه أبو يحيى بن أبي الصبر وأعلم أنه قد كان سبق السلطان يوسف إلى هذه المتنقبة المولدية بنو العزفي أصحاب سبعة منهم أول من أحدث عمل المولد الكريم بالمغرب والله تعالى أعلم.

وفي سنة ثلاثة وستين وستمائة كان كسوف الشمس وذلك قرب زوال يوم الأحد التاسع والعشرين من رجب من السنة المذكورة كسف منها نحو الثلثين وصلى بالناس صلاة الكسوف بجامع القرويين من فاس الخطيب أبو عبد الله بن أبي الصبر حتى انجلت فخرج من المحراب ووقف يازاته فوعظ الناس وذكرهم وفي هذه السنة رفعت أيدي المؤوثتين من الشهادة بفاس^(٢) ولم يبق بها منهم سوى خمسة عشر رجلاً من أهل العدالة والمعرفة وكانوا قبل ذلك أربعة وستين وكان ذلك يوم الاثنين الحادي عشر من شوال من السنة المذكورة وفيها كانت الجماعة الشديدة والوباء العظيم عم ذلك بلاد المغرب وإفريقيا ومصر فكانت الموتى تحمل اثنين وثلاثة وأربعة على المغتصل ويبلغ القمّع عشرة دراهم للمد والدقيق ست أوّاق بدرهم وأمر السلطان يوسف

(١) يعني بالمغرب وأما بالشرق فلأول من أحدثه الملك المظفر صاحب اربيل في أواخر المائة السادسة انظر ترجمته في حرف الكاف من وفيات الأعيان.

(٢) وذكر في الفائق أن السلطان أبي عنان المريني الآتي أمر بالاقتصار على عشرة من الشهدود بمدينة مكتنasa زيتون انظر تمام كلامه.

تبديل الصيغان وجعلها على مد النبي ﷺ وكان ذلك بالحضور على يد الفقيه أبي فارس عبد العزيز الملزوزي الشاعر المشهور.

ثم دخلت سنة أربعين وتسعين وستمائة فيها صلح أمر الناس وانجبرت أحوالهم ورخصت الأسعار في جميع الأماصار فيبيع القممع بعشرين درهماً للصحفة وفي هذه السنة كسفت الشمس أيضاً الكسوف الكلبي بحيث غاب قرص الشمس كله وصار النهار ليلاً كالحالة التي تكون ما بين العشرين وظهرت النجوم وماج الناس وضاقت نفوسهم ولو لا أن الله سبحانه تداركهم بسرعة انجلاثها لهلکوا جزعاً وكان ذلك بعد صلاة ظهر الثلاثاء الثامن والعشرين من ذي الحجة من سنة أربعين وتسعين المذكورة.

وفي سنة سبعمائة أسس السلطان يوسف بن يعقوب مدينته المنصورة بإزاء تلمسان وهو محاصر لها الحصار الطويل حسبما مر الخبر على ذلك مستوفى وبإله تعالى التوفيق.

الخبر عن دولة السلطان أبي ثابت عامر بن عبد الله ابن يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق رحمة الله

قد تقدم لنا أن أبو عامر عبد الله ابن السلطان يوسف كان قد انتبذ عن أبيه وبقي متتنقاً في جهات الريف وببلاد غمارة إلى أن هلك في بلادبني سعيد منهم، وأنه خلف ثلاثة أولاد أحدهم أبو ثابت عامر بن عبد الله هذا الذي ولـي الأمر بعد جده، وذلك أنه لما هـلـكـ السـلـطـانـ يوسفـ رـحـمـهـ اللهـ بالـمنـصـورـةـ كماـ تـقـدـمـ كانـ حـافـدـهـ أـبـوـ ثـابـتـ هـذـاـ فـيـ جـمـلـتـهـ وـكـانـ لـهـ فـيـ بـنـيـ وـرـتـاجـنـ مـنـ أـهـلـ تـلـكـ الـبـلـادـ خـوـلـةـ فـلـحـقـ بـهـمـ وـدـعـاـ لـنـفـسـهـ فـبـايـعـوهـ وـقـامـوـ مـعـهـ فـيـ أـمـرـهـ، وـبـايـعـهـ مـعـهـ أـشـيـاخـ بـنـيـ مـرـينـ وـالـعـربـ بـظـاهـرـ الـمـنـصـورـةـ يـوـمـ الـخـمـيسـ ثـانـيـ يـوـمـ وـفـاةـ جـدـهـ يـوـسـفـ وـبـادـرـ الـحـاشـيـةـ وـالـوـزـرـاءـ وـمـنـ شـائـعـهـ بـدـاـخـلـ الـمـنـصـورـةـ إـلـىـ بـيـعـةـ الـأـمـيرـ أـبـيـ سـالـمـ بـنـ السـلـطـانـ يـوـسـفـ وـكـادـ أـمـرـ بـنـ

مررين يفسد وكلمتهن تفرق فبعث السلطان أبو ثابت لحيته وكان شهماً مقداماً إلى صاحبي تلمسان أبي زيان وأبي حمو ابني عثمان بن يغمراسن فقد لهما عهداً على أن يرحل عنهم بجامعة وأن يمدوه بالآلة ويرفعوا له كسر بيتهم ويضموه إليهم إن خاب أمره ولم يتم له أمر فأجابوه إلى ذلك، وحضر العقد أبو حمو فأحكمه وشرط عليه السلطان أبو ثابت أن لا يتعرضوا لمدينة جده المنصورة بسوء وأن يتعاهدوا مساجدها وقصورها بالإصلاح وأن من أراد الإقامة بها من أهلها فما لأحد عليه من سيل لأن الناس كانوا قد استوطنوها وألفوها وطاب مقامهم بها وتأثروا بها الأثاث والمتاع والخزني وسائر الماعون مما يشطب المرتحل وينقل جناح الناهض قبل أبو حمو ذلك كله.

وتفرغ السلطان أبو ثابت لشأنه وجمع كلمة قومه واختل أمر أبي سالم فلم يتم وكتب السلطان أبو ثابت إلى حاميةبني مررين وحصصها التي كانت متفرقة في الشعور الشرقية التي استولى عليها السلطان يوسف أيام حياته فأقبلوا إليه ينسلون من كل حدث وأسلموا البلاد إلى أهلها منبني عبد الواد وقتل السلطان أبو ثابت عمه أبا سالم بن يوسف ثم أتبعه بعم أبيه أبي بكر بن يعقوب في آخرين من القرابة وغيرهم من يتوقع منه الشر، وفر بقيمة القرابة خشية على أنفسهم من سطوة أبي ثابت فللحقاوا بعثمان بن أبي العلاء التاجر بجبال غمارة من عهد السلطان يوسف فشايعوه على أمره وتنقى بهم على ما نذكره ثم ارتحل السلطان أبو ثابت قاصداً حضرة فاس في جموع لا تحصى وأمم لا تستقصى فعيد عيد الأضحى من سنة ست وسبعمائة في طريقه بن تلمسان وووجدة ثم نهض إلى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وسبعمائة ثم نهض بعد ذلك إلى مراكش على ما نذكره، ولما علم بنو يغمراسن أن أبيا ثابت قد أبعد عنهم وأنه توغل في البلاد المراكشية واشتغل بحروب التائرين بها عمدوا إلى المنصورة فجعلوا عاليها ساقلها وطمسوا معالمها ومحوا آثارها فأصبحت كأن لم تغن بالأمس.

ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد ابن عبد الحق وما كان من أمره

كان السلطان أبو ثابت لما فصل من تلمسان قدم بين يديه ابن عمه الحسن بن عامر بن عبد الله بن يعقوب وأمره بالنظر في أحوال فاس والمغرب، وأمره بضبطها وتسريح سجنونها ورد مظالمها وتفرق الأموال على الخاصة والعامة ففعل، ولما قدم حضرة فاس عقد لابن عمه يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق على مراكش ونواحيها وعهد إليه بالنظر في أحوالها وضبطها فقصد إليها واحتل بها وتمكن منها، ثم حدثه نفسه بالانتزاء فاستلحق واستركب واتخذ الآلة وجاهر بالخلعان وتقبض على الوالي بمراكش الحاج المسعود فقتله من تحت السياط في جمادى الآخرة سنة سبع وبعمائة ودعا لنفسه، واتصل الخبر بالسلطان أبي ثابت وهو بفاس فسرح إليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود بن خرباش الحشمي بالحاء المهملة ويعقوب بن آصناك في خمسة آلاف فارس فساروا إلى مراكش، وبرز يوسف بن محمد بن أبي عياد إلى حربهم وعبر إليهم وادي أم الربع فالتقوا معه على ضفة الشرقية فهزمه وعاد إلى مراكش، واتبعه الوزير ودخل ابن أبي عياد مراكش فقتل جماعة من جند الفرنج الذين بها وسبى ذراريهم وخرج منها إلى أغمات فلم يستقر بها، ثم فر إلى جبال هسکورا فنزل على كبرها مخلوف بن هنو الھسکوري ولحق به موسى بن سعيد الصبيحي من أغمات تدلّى من سورها فلحق به.

ودخل السلطان أبو ثابت مراكش متتصف رجب من سنة سبع وبعمائة وأمر بقتل أوربة المداخلين لابن أبي عياد في انتزاعه فاستلحموا جميعاً، ولما لحق ابن أبي عياد بمخلوف بن هنو الھسکوري واستجار به فلم يجره على السلطان أبي ثابت بل قبض عليه مع ثمانية من كبار أصحابه ويعذبهم في

الحديد إليه وهو بمراكش فقتلوا في مصرع واحد بعد أن مثل بهم بالسياط، ويعتبر برأس ابن أبي عياد إلى فاس فطيف به ونصب على سورها ثم أثخن أبو ثابت في كل من كان على رأي ابن أبي عياد وخاض معه في الفتنة فاستلهم منهم بمراكش ما ينفي على المستمانة وصلبهم على سورها من باب الرب أحد أبواب مراكش إلى برج دار الحرة عزونه، وقتل في أغمات منهم مثل ذلك وخرج منتصف شعبان إلى منازلة السكسيوي وتذويخ جهات مراكش فنزل بتامزورت وتلقاه السكسيوي بالبيعة والهدية والضيافة فقبل السلطان أبو ثابت ذلك منه، ثم بعث قائده يعقوب بن آصناك في جيش من ثلاثة آلاف فارس إلى بلاد حاجة برسم غزو قبائل زكتنة ففروا بين يديه حتى دخلوا بلاد القبلة وانقطع أثرهم ورجع إلى معسكر السلطان بتامزورت وأخبره بسكنى البلاد وأمنها، فانكفا السلطان أبو ثابت راجعاً إلى مراكش فدخلها غرة رمضان من سنة سبع وسبعينة. ثم خرج منها في منتصفه قاصداً رباط الفتح فاجتاز على بلاد صنهاجة وعبر وادي أم الرياح من مشروع كتامة في القوارب لزيادة الماء يومئذ، ثم ارتحل فاجتاز ببلاد تامسنا فلتقاء بها عرب جشم من قبائل الخلط وسفيان وبيني جابر والعاصم فاستصحبهم معه إلى مدينة آنfi بعد أن استأذنوه في الرجوع فلم يأذن لهم، ولما احتل آنfi دعا بأشياخهم فحضروا عنده فقبض على ستين منهم أو دعهم سجن آنfi وضرب عنق عشرين من فسادهم القاطعين للسبيل وصلبهم على سور آنfi، ثم نهض إلى رباط الفتح فدخله في السابع والعشرين من رمضان فعيده هناك عيد الفطر وقتل به ثلاثين من فتاك لعرب المتهمين بالحرابة وقطع الطريق وصلبهم على أسوار العدوتين، ثم ارتحل منتصف شوال لغزو عرب رياح المواطنين بأبي طويل وفحص آزغار وببلاد الهبط، فغزاهم وأخذهم بالإحن القديمة فقتل منهم خلقاً وسبى ذاريهم وانتهب أموالهم ونهض إلى فاس فاحتل بها منتصف ذي القعدة وعيده بها عيد الأضحى ثم نهض إلى سبعة على ما نذكره.

غزو السلطان أبي ثابت بلاد غماره وسبتة ومحاصرته لعثمان بن أبي العلاء

قد تقدم لنا أن عثمان بن أبي العلاء كان قد ورد من الأندلس صحبة الرئيس أبي سعيد بن الأحمر المتغلب على سبتة أيام السلطان يوسف وأنه ثار بجيال غماره ودعا لنفسه واستحوذ عليها وكان السلطان يوسف بلغه خبره وأهمه شأنه إلا أنه كان يرجو أن يفتح تلمسان عن قريب ثم ينهض إليه فعاجله الحمام دون ذلك ولما أفضى الأمر إلى السلطان أبي ثابت وقدم حضرة فاس شغله عن عثمان بن أبي العلاء ما كان من ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد بمراكش كما قدمناه فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء لابن عمه عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق فزحف إليه ونهض عثمان بن أبي العلاء إلى لقائه متتصف ذي الحجة سنة سبع وسبعمائة فهزمه عثمان بن أبي العلاء واستلهم من كان معه من جند الفرنج وهلك في تلك الواقعة عبد الواحد الفودودي من رجالات الدولة المرشحين للوزارة، وسار عثمان بن أبي العلاء إلى قصر كتمة فدخله واستولى على جهاته وكان بطلاً من الأبطال وعلى أثر ذلك كان رجوع السلطان أبي ثابت من غزوة مراكش وقد حسم الداء ومحى أثر النفاق فأعتزم على النهوض إلى بلاد غماره ليمحو منها أثر دعوة ابن أبي العلاء التي كادت تلنج عليه دار ملكه ويستخلص سبتة من يد ابن الأحمر المتغلب عليها لأنها صارت ركاباً لمن يروم الخروج على السلطان من القرابة المستقررين وراء البحر غزارة في سبيل الله.

فنهض السلطان أبو ثابت من فاس عقب عبد الأصحي من سنة سبع وسبعمائة حتى انتهى إلى قصر كتمة فتلوم به ثلاثة حتى تلاحق به قبائل مرين والعرب والرماء من سائر البلاد فعرض جيشه وارتاحل قاصداً جبال غماره، وكان عثمان بن أبي العلاء قد فر أمامه إلى ناحية سبتة فسار السلطان أبو ثابت في أتباعه حتى نازل حصن علودان واقتحمه عنوة واستلهم به زهاء أربعين، ثم نازل بلد الدمنة على شاطئ البحر فقتل الرجال وسبى النساء والذرية

وانهت الأموال وكانوا قد تمسكوا بطاعة ابن أبي العلاء وأجرازو إلى القصر في وسط بلادهم وبالغوا في تضييفه وإكرامه ودخلوا معه القصر وأصيلا ونهبوا كثيراً من مال أهلها، ثم ارتحل السلطان أبو ثابت إلى طنجة فدخلها فاتح سنة ثمان وسبعمائة وتحصن ابن أبي العلاء بسبعة مع أوليائه من ابن الأحمر وسرح السلطان أبو ثابت عسكره ففرق في نواحي سبعة بالغارات واكتساح الأموال.

بناء مدينة تطاوين

ثم أمر السلطان باختطاط مدينة تطاوين لنزول عسكره وللأخذ بمخفق سبعة هكذا عند ابن أبي زرع وابن خلدون. واعلم أن تطاوين هذه هي تطاوين القديمة وقد تقدم لنا أن قصبتها بنيت في سنة خمس وثمانين وستمائة وذلك لأول دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، ثم بني السلطان أبو ثابت هذه المدينة عليها في هذا التاريخ الذي هو فاتح سنة ثمان وسبعمائة وكان بناؤها خفيفاً شبه القرية عدا قصبتها فإن بناءها كان محكماً وثيقاً، واستمرت هذه المدينة عامرة إلى صدر المائة التاسعة فخررت ثم جدد بناؤها بعد نحو تسعين سنة حسبما يأتي الخبر عن ذلك مستوفى إن شاء الله تعالى، قالوا: لفظ تطاوين مركب من كلمتين تيط ومعناها في لسان البربر العين ووين وهي كناية عن المخاطب نحو يا فلان وما أشبه ذلك، قالوا: والسبب في تسميتها بذلك أنهم في وقت اختطاطهم لها كانوا يضعون الحرس على أسوارها مخافة فجأة العدو فكان الحرس ينادون بالليل أو بالنهار تطاوين تطاوين، أي يا فلان افتح عينك لأن عادة الحارس أن يقول ذلك فصار هذا اللفظ علمأً عليها ويظهر أن هذا من كلام العامة ولا أصل له، وكذا قول بعضهم تيط معناها العين ووين معناها المقلة ومعنى مجموع الكلمتين مقلة العين والإضافة مقلوبة كما هي في لسان بعض الأمم العجمية فإنه لا مستند له والله تعالى أعلم.

ولما شرع السلطان أبو ثابت في بناء مدينة تطاوين أوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبي يحيى بن أبي الصبر إلى ابن الأحمر صاحب سبتة في شأن النزول له عن البلد وأقام هو بقصبة طنجة ينتظر الجواب بماذا يكون، وفي أثناء ذلك مرض مرض موته وتوفي^(١) يوم الأحد الثامن من شهر صفر سنة ثمان وسبعمائة ودفن بظاهر طنجة ثم حمل شلوه بعد أيام إلى مدفن آبائه بشالة فوروي هنالك رحمة الله عليه وعليهم.

الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع سليمان بن أبي عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمة الله

لما هلك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالأمر عمه علي بن يوسف المعروف بابن زريقه وهي أمه، وعلى هذا هو الذي قتل شيخ المصاصدة بكتاب ابن الملياني كما تقدم وخلص الملا من بني مرين أهل الحل والعقد إلى أبي الربيع المذكور أخي أبي ثابت فباعوه واستتب أمره فتقبض على عمه علي بن زريقه وسجنه بطنجة فبقي مسجوناً بها إلى أن هلك سنة عشر وسبعمائة وبث السلطان أبو الربيع العطاء في الناس وأجزل الصلات فأرضى الخاصة والعامة وصفا له الأمر، ثم ارتحل نحو فاس واستدعى من كان بمحله تطاوين من الجندي فأقبلوا إليه وأرضاهم بالمال كذلك، ولما فصل من طنجة تبعه عثمان بن أبي العلاء من سبطة في جيش كثيف ليضرب في محلته ليلاً فنذر به عسكر السلطان أبي الربيع فأسرروا ليتهم وباتوا على صهوات خيولهم فرواهم عثمان بساحة علودان وهم على ذلك فنا جزهم الحرب فهزموه وتقبض على ولده وكثير من عساكره وقتل آخرون وكان للسلطان أبي الربيع الظهور الذي لا كفأ له ووصل أبو يحيى بن أبي الصبر من الأندلس وقد أحكم عقدة الصلح مع ابن الأحمر صاحب غرناطة.

(١) ذكر في روضة النسرين في دولة بني مرين لابن الأحمر أنه توفي مسموماً.

ولما رأى عثمان بن أبي العلاء ذلك سقط في يده وأليس من المغرب فعبر البحر فین معه من القرابة إلى الأندلس وولي مشيخة الغزاة بها فكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء وعلا أمره بالأندلس وزاحمبني الأحمر ملوكها في رياستهم وجبايتهم حتى كاد يستولي على الأمر من أيديهم وشرقوا بدائهم ومارسوا مدة طويلة، وعدلوا في أمره إلى المصانعة والمجاملة في أخبار ليس جلبها من غرضنا إلى أن توفي، لكننا نذكر من ذلك أنموذجاً يستدل به الواقع عليه على ما وراءه، فنقول: «لما توفي عثمان بن أبي العلاء رحمه الله كتب على قبره ما صورته: «هذا قبر شيخ الحمة وصدر الأبطال والكماء، واحد الجلاله ليث الإقدام والبسالة علم الأعلام حامي ذمار الإسلام، صاحب الكتائب المنصورة والأفعال المشهورة والمغازي المسطورة وإمام الصفوف، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيف سيف الجهاد، وقاصم الأعداء وأسد الأسود العالي الهمم الثابت القدم الهمام الماجد الأرضي البطل الباسل الأمضى المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير الأصيل الشهير المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق».

كان عمره ثمانية وثمانين سنة أنفقه ما بين روحه في سبيل الله وغدوة حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة وقطع عمره مجاهداً مجتهداً في طاعة رب محتسباً في إدارة الحرب ماضي العزائم في جهاد الكفار، مصادماً بين جموعهم تدفق التيار وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ما سار ذكره في الأقطار أشهر من المثل السيار حتى توفي رحمه الله وغبار الجهاد طي أثوابه، وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه فمات على ما عاش عليه وفي ملحمة الجهاد قبضه الله إليه واستثار به سعيداً مرتضى وسيفه على رأس ملك الروم متضئاً مقدمة قبول وإسعاد ونتيجة جهاد وجلاده ودليلًا على نيته الصالحة وتجارته الرابحة فارتجمت الأندلس لبعده أتحفه الله برحمة من عنده توفي يوم الأحد الثاني الذي الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة رحمة الله.

وأما السلطان أبو الريبع فإنه لما سار عن طنجة دخل حضرة فاس حادي عشر ربيع الأول من سنة ثمان وسبعمائة فأقام بها سنة المولد الكريم وفرق الأموال واستقامت الأمور وتمهد الملك وعقد السلم مع صاحب تلمسان أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن وأقام وادعاً بحضرته مجتنباً ثمرة ملكه، وكان في أيامه غلاء إلا أن الناس انفتحت لهم فيها أبواب المعاش والترف حتى تغالوا في أثمان العقار فبلغت قيمتها فوق المعتاد حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين، وتنافس الناس في البناء فاتخذوا القصور المشيدة وتألقوا فيها بالزليج والرخام وأنواع النقوش، وتناغروا في لبس الحرير وركوب الفاره وأكل الطيب واقتناء الحلى من الذهب والفضة واستبحر العمران وظهرت الزينة والأمور كلها بيد الله تعالى.

نکبة الفقیہ الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين واستئصال بني وقارضة اليهودین بعد ذلك

كان الفقیہ الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين شعیب بن مخلوف من بني أبي عثمان إحدى قبائل کتابة المجاورین للقصر الكبير، وكان بيته بيت العلم والدين واتصلوا بخدمة بني مرین أيام دخولهم المغرب واستيلائهم عليه وكان أبو محمد هذا من خاصة السلطان یوسف بن یعقوب وجعل بيده وضع العلامة على الرسائل وفرض إليه في حساب الخراج والضرب على أيدي العمال وتنفيذ الأوامر بالقبض والبسط فيهم واستخلاصه لمناجاته والإفشاء إليه بسره، ولما هلك السلطان یوسف وولي بعده السلطان أبو ثابت ضاعف رتبة هذا الرجل وشفع لديه حظه ومنصبه ورفع على الأقدار قدره، ثمولي بعده أخوه أبو الريبع فسلك فيه مذهب سلفه واضططلع أبو محمد بن أبي مدين بأمور دولته، وكان بنو وقارضة اليهود حين نکبوا أيام السلطان یوسف يرون أن نکبتهم كانت بسعاية أبي محمد فيهم، وكان خليفة الأصغر منهم قد أفلت من تلك النکبة كما ذكرناه.

فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الريبع استعمل خليفة هذا بداره في بعض المهن فباشر الأمور وترقى فيها حتى اتصل بالسلطان فجعل غاية فصده السعاية بأبي محمد بن أبي مدین، وكان يؤثر عن السلطان أبي الريبع أنه يختلي مع حرم حاشيته وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس فدس إلى السلطان «بأن ابن أبي مدین يعرض باتهامك في ابنته وأن صدره قد وغر لذلك وأنه مترصد بالدولة ومتريص بها الدوائر» فتمكنت سعايته من السلطان وظن أنه صادق وكان يخشى غائلة ابن أبي مدین بما كان له من الوجاهة في الدولة ومداخلة القبيل فاستججل السلطان أبو الريبع دفع غائلته ودس إلى قائد جند الفرنج بقتله، فسار إليه ولقيه بمقدمة الشيخ أبي بكر بن العربي فرصده وأتاه من خلفه فطعنه طعنة كبته على ذقنه واحتز رأسه وألقاه بين يدي السلطان أبي الريبع، ودخل الوزير سليمان بن يرز يكن فوجد الرأس بين يديه فذهبت نفسه عليه وعلى مكانه من الدولة حسراً وأسفًا، وأيقظ السلطان لمكر اليهودي وأطلعه على خبيثه وأخرج له براءة كان بعث بها ابن أبي مدین معه إلى السلطان يتصل فيها ويحلف على كذب ما رمي به عنده، فتبته السلطان لمكر اليهودي وعلم أنه قد خدعاه ونذم حيث لم ينفعه الندم، وفتك لجيئه بخليفة بن وقاية وحاشيته من اليهود المتصدرين للخدمة وسطاً بهم سطوة الهلكة فأصبحوا مثلاً للآخرين.

انتقاض أهل سبتة على بني الأحر ومراجعتهم طاعة بنى مرین

كان أهل سبتة قد سمو ملکة أهل الأندلس وقتلت عليهم ولايتهم لا سيما حين رحل عنهم عثمان بن أبي العلاء وعبر البحر بقصد الجهاد كما مر واتصل خبر ذلك بالسلطان أبي الريبع فانتهز الفرصة فيهم وعقد لثقته تاشفين بن يعقوب الوطاسي أخي وزير عبد الرحمن بن يعقوب على عسكر ضخم من بنى مرین وسائر طبقات الجناد وبعثه إلى سبتة فأخذ السير إليها ونزل بساحتها ولما أحس به أهل البلد تمشت رجالاتهم فيما بينهم وتنادوا

بشعار بني مرين وثاروا على من كان بسبته من حامية ابن الأحمر فأخرجوهم منها، واقتصر تأشفين بن يعقوب البلد عاشر صفر من سنة تسع وسبعيناً وتقبض على قائد القصبة أبي ذكرياء يحيى بن مليلاً وعلى قائد البحر أبي الحسن بن كماسة وعلى قائد الحرب بها من القرابة عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، وطير تأشفين بالخبر إلى السلطان أبي الريبع فعم السرور وعظم الفرح واتصل ذلك بابن الأحمر فضاق ذرعه وخشي عادية بني مرين وجيوش المغرب حين انتهوا إلى الفرضة وملوكها، فقلب رأيه ورأى أن يجنح إلى السلم مع السلطان أبي الريبع لشدة شوكته ولكلب الطاغية عليه في أرضه لولا أن غزوة بني مرين يكفون من غريبه فبادر السلطان ابن الأحمر وهو أبو الجيوش نصر بن محمد أخو المخلوع الذي كان قبله، وأوفد رسلاً على السلطان أبي الريبع راغبين في السلم خاطبين للولاية وتبיע بالنزول عن الجزيرة ورندة وحصونها ترغيباً للسلطان أبي الريبع في الجهاد فقبل منه ذلك وعقد له الصلح على ما أراد، وخطب منه أخيه فأنكحه ابن الأحمر إياها وبعث السلطان أبو الريبع إليه بالمدد للجهاد أموالاً وخيوطاً جنائب مع ثقته عثمان بن عيسى اليريناني أخي وزيره إبراهيم بن عيسى واتصلت بينهما الولاية إلى أن توفي السلطان أبو الريبع رحمه الله.

انتقاض الوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي على السلطان أبي الريبع ومباييعته لعبد الحق بن عثمان والسبب في ذلك

لما انعقد الصلح بين السلطان أبي الريبع وابن الأحمر وحصلت المصاهرة بينهما والمودة كانت رسائل ابن الأحمر لا تزال تتردد إلى حضرة السلطان بفاس فقدم منهم ذات يوم بعض المنهمكين في اللهو المدمرين للشرب والقصف، فكشف صفة وجهه في معافرة الخمر وتجاهر بذلك بين الناس، وكان السلطان أبو الريبع قد عزل قاضي فاس أبو غالب المغيلي وولى القضاء مكانه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزرويلي المعروف بالصغرير صاحب

التقييد على المدونة وكان رحمة الله قد شدد على أهل الفسق والمناكر، فسيق إليه ذات يوم هذا الأندلسي وهو سكران فأمر العدول فاستر وحشه وأشتموا منه رائحة الخمر وأدوا شهادتهم على ذلك، فأمضى القاضي حكم الله فيه وجله الحد فاضطرم الأندلسي غيظاً وتعرض للوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي ويقال له رحو باللسان الزناتي فكشف له عن ظهره يريه أثر السياط وينعي عليه سوء هذا الفعل مع رسل الدول، فضجر الوزير من ذلك وأخذته العزة بالإثم ولعله كان في قلبه شيء على القاضي فأمر وزعنه بإحضاره علىأسأ الحالات وعزم على البطش به فتبادروا إليه، واعتضم القاضي بالمسجد الجامع ونادى في المسلمين فثارت العامة بهم ومرج أمر الناس وقامت الفتنة على ساق، واتصل الخبر بالسلطان فتلافي الأمر وأحضر أصحاب الوزير فضرب أعناقهم وشرد بهم من خلفهم جزاء الله خيراً، فأسرها الوزير في نفسه وداخل الحسن بن علي بن أبي الطلاق منبني عسكر بن محمد وكان من شيوخبني مرين وأهل الشورى فيهم، وداخل قائد الفرنج غنصالو المتنفرد برياسة العسكر وشوكة الجندي وكان لهؤلاء الفرنج بالوزير اختصاص بحيث أثروه على السلطان، فدعاهم لخلع طاعة السلطان أبي الريح وبيعة عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد الأعياض فأجابوه وباعوا له وتم أمرهم، ولما كان يوم السبت الثالث والعشرون من ربيع الآخر من سنة عشر وسبعمائة فر الوزير المذكور وقاده الفرنجي ومن شاييعهم علىرأيهم فخرجوا إلى ظاهر البلد الجديدة وجاهروا بالخلعان وأقاموا الآلة والرسم وباعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملا وعسكروا بالعدوة القصوى من سبو، ثم ساروا إلى ناحية تازا ولما استقرروا برباطها أخذوا في جمع الجيوش ومكابدة الخاصة منبني مرين والعرب يدعونهم إلى بيعة سلطانهم والمشابعة لهم علىرأيهم وأوفدوا على أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان يدعونه إلى المظاهرة على أمرهم واتصال اليد والمدد بالعسكر والمال، فتوقف أبو حمو ولم يقدم ولم يحجم وبقي يتنتظر عماداً ينجلـي أمرهم، واتصل خبر ذلك كله بالسلطان أبي

الربيع فنهض إليهم وقدم بين يديه يوسف بن عيسى الحشمي وعمر بن موسى الفودودي في جيش كثيف منبني مرين، وسار هو في ساقتهم واتصل خبر خروجه بعبد الحق بن عثمان ووزيره فانكشفوا عن تازا ولحقوا بتلمسان، وكانوا يظنون أن السلطان لا يخرج إليهم وحمد أبو حمو عاقبة توقفه عن نصرهم ويشوا من صريحة إياهم، ولما نسأله عليهم الأرض بما رحبت أجاز عبد الحق بن عثمان ووزيره إلى الأندلس ورجع الحسن بن علي ومن معه إلى السلطان أبي الربيع بعد أن أخذ منه الأمان وهلك رحو بن يعقوب بالأندلس لمدة قريبة، ولما احتل السلطان أبو الربيع بتازا حسم الداء ومحا أثر الشقاق وأنجن في حاشية الخوارج وشييعتهم بالقتل والسي، ثم اعتل أياماً أثناء ذلك فتوفي بتازا بين العشاءين ليلة الأربعاء من سلخ جمادى الأخيرة من سنة عشر وسبعيناً ودفن من ليلته تلك بصحن الجامع الأعظم من تازا رحمه الله.

الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

كان هذا السلطان من أهل العلم والحلم والعفاف جواداً متواضعاً متوفقاً في سفك الدماء لقبه: السعيد بفضل الله وأمه حرة اسمها عائشة بنت الأمير أبي عطية مهلهل بن يحيى الخلطي، ولما هلك السلطان أبو الربيع بتازا في التاريخ المتقدم تطاول للأمر عمه أبو سعيد الأصغر وهو عثمان بن السلطان يوسف وخب في ذلك ووضع وأسدى وألجم فلم يحصل على شيء.

واجتمع الوزراء والمشيخة بالقصر بعد هدأة من الليل وتفاوضوا في أمرهم حتى وقع اختيارهم على أبي سعيد الأكبر وهو عثمان ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق فاستدعوه فحضر فباعوه ليلتين، وتم أمره وأنفذ كتابه إلى النواحي والجهات باقتضاء البيعة وسرح ابنه الأكبر الأمير أبي الحسن علي بن عثمان إلى فاس فدخلها غرة رجب من سنة عشر وسبعيناً وملك قصر الخلافة بالحضرمة واحتوى على أمواله وذخيرته، وفي غد ليلته أخذت

البيعة للسلطان أبي سعيد بظاهر تازا علىبني مرين وسائر زناتة والعرب والعسكر والحاشية والموالي والصنائع والعلماء والصلحاء ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء، فقام بالأمر واستوسق له الملك وفرق الأعطيات وأسنى الجوائز وتفقد الدواوين ورفع الظلamas وحط المغارم والمكوس وسرح السعون ورفع عن أهل فاس ما كان يلزم رباعهم من الوظائف المخزنية في كل سنة فصلح حال الناس في أيامه.

ثم ارتحل لعشرين من رجب من السنة فدخل حضرة فاس فاستقر بها وقدم عليه وفود التهنة من جميع بلاد المغرب، ثم خرج في ذي القعدة إلى رباط الفتح لتفقد الأحوال والنظر في أمور الرعية وإنشاء الأساطيل الجهادية فعيَد هنالك عيد الأضحى وبasher أمر الناس وأمر بإنشاء الأساطيل بدار الصناعة من سلا برسم جهاد الفرنج، ثم رجع إلى فاس فعقد سنة إحدى عشرة وسبعمائة لأخيه الأمير أبي البقاء يعيش على ثغور الأندلس الجزيرة ورندة وما إليهما من الحصون، ثم نهض سنة ثلاثة عشرة وسبعمائة إلى ناحية مراكش لما كان بها من اختلال الأحوال وخروج عدي بن هنو الهيسكوني ونقشه للطاعة فنازله السلطان أبو سعيد وحاصره مدة ثم اقتحم عليه حصنه عنوة وقبض عليه ويعثه موتفقاً في الحديد إلى فاس فأودعه المطبق ووقف راجعاً إلى حضرته فاحتل بها مؤيداً منصورة والله تعالى أعلم.

غزو السلطان أبي سعيد ناحية تلمسان

كان بنو مرين قد حقدوا على أبي حمو صاحب تلمسان من أجل توقيه في أمر عبد الحق بن عثمان ووزيره رحو بن يعقوب الوطاسي وتسهيله الطريق لهم إلى الأندلس ومداهنته في ذلك، وكان مقتضى الصلح المنعقد بينه وبين السلطان أبي الربيع أن يقبض عليهم ويعث بهم إليه حالاً فحقد بنو مرين على أبي حمو ووجدوا في أنفسهم عليه، ولما أفضى الأمر إلى السلطان أبي سعيد واستوسق ملكه ودخل الجهات المراكشية وفرغ من شأن

المغرب اعترض على غزو تلمسان فنهض إليها سنة أربع عشرة، ولما انتهى إلى وادي ملوية قدم ابنه الأميرين أبو الحسين وأبا علي في عسكريين عظيمين في الجناحين وسار هو في ساقتهما فدخل بلادبني عبد الواد على هذه التعبية فاكتسح نواحيها واصطلم نعمتها ثم نازل وجدة فقاتلها قتالاً شديداً فامتنعت عليه، ثم نهض إلى تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها وتحصن أبو حمو بالأسوار وغلب السلطان أبو سعيد على معاقلها وسائر ضواحيها فحطمتها حطمأً ونسفها نسفاً ودوخ جبالبني يزناسن وأثخن فيهم، وانتهى في قفله إلى وجدة فقر أخوه أبو البقاء يعيش وكان في معسكته من أجل استرابة لحقته من السلطان وسار إلى تلمسان فنزل على أبي حمو ورجع السلطان أبو سعيد على التعبية فانتهى إلى تازا فأقام بها وبعث ابنه الأمير أبو علي إلى فاس فكان من خروجه عليه ما ذكره.

خروج الأمير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد والسبب في ذلك

كان للسلطان أبي سعيد ولدان أحدهما وهو الأكبر من أمه الجشية وهو أبو الحسن علي بن عثمان، وثانيهما وهو الأصغر من علجة من سبي الفرنج وهو أبو علي عمر بن عثمان وكان هذا الأصغر أعلى بقلب السلطان وأحبهما إليه، ولما استولى على ملك المغرب رشحه لولاية العهد وهو شاب لم يطر شاربه ووضع له ألقاب الإمارة وصیر معه الجلساء والخاصية والكتاب وأمره باتخاذ العلامة في كتبه ولم يدخل عنده شيئاً من مراسم الرياسة والملك وعقد على وزارته لإبراهيم بن عيسى البيريناني من كبار الدولة ووجوهاً، وكان أخوه الأكبر أبو الحسن شديد البرور بأبيه فلما رأى إقبال أبيه على أخيه علي انحاش هو أيضاً إليه وصار في جملته وخلط نفسه بحاشيته طاعة لأبيه ومسارعة في هواه واستمرت حال الأمير أبي علي على هذا ومخاطبه ملوك النواحي ومخاطبهم وهادهم وعقد الرايات وأثبتت في الديوان ومعها وزاد في العطاء ونقص وكاد يستبد بالأمر كله.

ولما قفل السلطان أبو سعيد من تلمسان أواخر سنة أربع عشرة وسبعيناً أقام بتازا وبعث ولديه إلى فاس فلما استقر الأمير أبو علي بها حدثه نفسه بالقيام على أبيه وخلع طاعته، فراوده المداخلون له على التريص حتى يمكر بأبيه ويقبض عليه باليد فأبى واستعجل الأمر وركب الخلاف وجاهر بالخلعان، ودعا لنفسه فأطاعه الناس ولم يتوقفوا عنه لما كان أبوه جعله إليه من أمرهم، وعسكر بساحة البلد الجديد بربيد غزو أبيه، فبرز السلطان أبو سعيد من تازا في عسكره يقدم رحلاً ويؤخر أخرى، ثم بدا للأمير أبي علي في وزيره إبراهيم بن عيسى وعزم على القبض عليه لأنه بلغه أنه يكاتب أبيه فأبعث للقبض عليه عمر بن يخلف الفودودي، وتقطن الوزير لما أراده من المكر به فقبض هو على الفودودي ونزع إلى السلطان أبي سعيد فتقبله ورضي عنه، وكان الأمير أبو الحسن قد لحق بأبيه قبل ذلك نازعاً عن جملة أخيه فقوى جناح السلطان بهما وارتاح إلى لقاء ابنه أبي علي، ولما تراءى الجمعان بالمقرمة ما بين فاس وتازا احتل مصاف السلطان وانهزم جريحاً إلى تازا فتبعد ابنه أبو علي وحاصره بها، ويقال إن أبو الحسن إنما لحق بأبيه بعد المحنـة ثم سعى الخواص بين السلطان وابنه أبي علي بالصلح على أن يخرج له السلطان عن الأمر ويقتصر على تازا وجهاتها فقط، فرضي السلطان بذلك وشهد العلاء من مشيخة العرب وزناته وأهل الأمصار واستحكم العقد بينهما وانكفا الأمير أبو علي راجعاً إلى حضرة فاس مملكاً على المغرب وتوافت إليه بيعات الأمصار ووفدهم واستوسع أمره.

ثم تدارك الله السلطان أبي سعيد بلطفه ورد عليه حقه من حيث لا يحتسب وذلك أن الأمير أبي علي اعتقل عقب وصوله إلى فاس واشتد وجشه حتى أشرف على الهالك وخشي الناس على أنفسهم احتلال الأمر بمותו فتسايلوا إلى والده السلطان أبي سعيد بتازا ولحق به سائر خواص الدولة وحملوه على تلافي الأمر وانتهاز الفرصة، فنهض من تازا واجتمع إليه كافةبني مرين والجند وعسكر على البلد الجديد وأقام محاصراً له وابتني داراً لسكناه وجعل لابنه الأمير أبي الحسن ما كان لأخيه أبي علي من ولاية العهد

وتفويض الأمر ولما تبين للأمير أبي علي اختلاف أمره بعث إلى أبيه في الصلح على أن يعوض سجل ماسة وما والاها فأجيب إلى ذلك ووفى له السلطان بما اشترط وارتاحل إلى سجل ماسة سنة خمس عشرة وسبعمائة فأقام بها دولة فخيمة واستولى على بلاد القبلة دون الدواوين واستلحق واستركب واستخدم ظواعن العرب منبني معقل وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكرارين وتمانطيت وغير ذلك.

وأما السلطان أبو سعيد فإنه دخل إلى فاس الجديد ونزل بقصره وأصلاح شؤون ملكه وأنزل ابنه الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصورو وفوض إليه في سلطانه تفويض الاستقلال وأذن له في اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة على كتبه وسائر ما كان لأخيه ووفدت عليه بيعات الأمصار بالمغرب ورجعوا إلى طاعته، وفي سنة خمس عشرة وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد ببناء الباب أمام القنطرة من الجزيرة الخضراء ثم بعد ذلك أدار الستارة بالمدينة المذكورة وفيها سار إلى مراكش فأقام بها أياماً حتى أصلح شؤونها وعاد إلى الحضرة.

وفي سنة ثمان عشرة وسبعمائة نكب السلطان أبو سعيد كاتبه منديل بن محمد الكناني وكان السبب في ذلك أنه لما ثار الأمير أبو علي على أبيه وخلعه انحاش إليه منديل هذا ثم لما احتل أمر أبي علي عاد منديل إلى السلطان أبي سعيد وترتب في منزلته التي كان عليها قبل وكان الأمير أبو الحسن يحقد عليه لأجل انحياشه إلى أخيه لما كان بينهما من المنافسة وكان هو كثيراً ما يوغر صدر أبي الحسن بإيجاب حق أخيه عليه وامتهانه في خدمته، فطوى له أبو الحسن على البث حتى إذا فصل أبو علي إلى سجل ماسة وانفرد أبو الحسن بمجلس أبيه وخلاله وجهه أحکم السعاية في منديل عند أبيه وكان منديل كثيراً ما يغضب السلطان في المحاجرة والخطاب دالة عليه وكبراً، فاعتدى السلطان عليه بشيء من ذلك مع ما كان ابنه أبو الحسن يغريه به فسيخطه سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وأذن لابنه أبي الحسن في نكبته فاعتقله واستصنف أمواله وطوى ديوانه وامتحنه أياماً ثم قتله بمحبسه

خنقاً وقيل جوحاً وذهب في الذاهبين، وأبوه أبو عبد الله محمد الكتاني هو الذي بعثه السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى المستنصر الحفصي عند فتح مراكش وعاد إليه منه بالهدية صحبة وفد أهل تونس وتلطف أبو عبد الله الكتاني حتى ذكر المستنصر في الخطبة على منبر مراكش وفرح الوفد بذلك حسبما تقدم الخبر عنه مستوفى، ونشأ ابنه منديل هذا في ظل الدولة المرinية فكان من أمره ما قصصناه عليك.

وفادة أهل الأندلس على السلطان أبي سعيد واستصراخهم إيهام على الطاغية وما نشا عن ذلك

كان الملوك من بني مرين قد انقطع غزوهم عن الأندلس برهة من الدهر منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب لاشغاله في آخر أمره بحصار تلمسان واشتغال حفته من بعده بأمر المغرب مع قصر مدتهم فتطاول العدو وراء البحر على المسلمين بسبب هذه الفترة واشتد كلبه على ثغورها مع أن القرابة من بني مرين كانوا شجع في صدره وقدى في عينيه في تلك البلاد حسبما المعنا إليه غير مرة، ولما أفضى الأمر إلى السلطان أبي سعيد اشتغل في صدر دولته بأمر ابنه أبي علي وخروجه عليه، فاهتب الطاغية الغرة في الأندلس وزحف في جموعه إلى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعيناتة، وكان من خبر هذه الواقعة أن الطاغية بطرة بن سانجة ويقال دون بطرة وقد نبهنا على لفظة دون فيما سبق ذهب إلى طليطلة ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا وسجد له وتضرع بين يديه وطلب منه استئصال ما بقى من المسلمين بأرض الأندلس وأكد عزمه وتأنبه لذلك غاية الأهة، فوصلت أثاله ومجانيقه وألات الحصار والأقوات في المراكب وتقدم في جموعه حتى نزل بأحواز غرناطة وكان رديفه في ذلك الجندي علجاً آخر يقال له جوان وانضم إليهم ملوك آخرون من ملوك الأطراف قيل سبعة وقيل أكثر وامتلأت الأرض بهم وعزموا على استئصال بقية المسلمين بالأندلس، وكان جيشهم فيما قيل يشتمل على خمسة وثلاثين ألفاً من الفرسان وعلى نحو مائة ألف من الرجال المقاتلة.

ولما رأى أهل الأندلس ذلك بعثوا صريخهم إلى السلطان أبي سعيد فقدم عليه وفدهم بحضرته من فاس وفيهم من وجوه الأندلس وصلحائها الشيخ أبو عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلاشى والشيخ أبو إسحاق بن أبي العاشر وغيرهم فاعتذر إليهم السلطان أبو سعيد بمكان عثمان بن أبي العلاء من دولتهم ومحله من دار ملكهم، وكان عثمان بن أبي العلاء يتولى يومئذ مشيخة الغزاوة بالأندلس لأن وفاته تأخرت إلى سنة ثلاثين وسبعينة حسبما مر فشرط عليهم السلطان أبو سعيد أن يمكنوه منه ليتأتى له العبور إلى تلك البلاد وجهاد العدو بها من غير تشويش، وقال ادفعوه إلينا برمهه حتى يتم أمر الجهاد ثم نرده عليكم حيطة على المسلمين وخشية من تفريق كلمتهم، فاستصعب أهل الأندلس هذا الشرط لما يعلموه من صرامة عثمان بن أبي العلاء وإدلاله ببأسه وبأس عشيرته فأخفق سعيهم ورجعوا منكسرین، وأطالت الفرجن المقام على غرناطة وطمعوا في التهامها.

ثم إن الله تعالى نفس عن مخنقهم ودافع بقدرته عنهم وهياً لعثمان بن أبي العلاء في الفرجن واقعة كانت من أغرب الواقع، وذلك أنه لما كان يوم المهرجان وهو الخامس من جمادى الأولى من سنة تسعة عشرة وسبعينة عمد عثمان بن أبي العلاء إلى جماعة جنده واختار من أنجادبني مرين منهم نحو المائتين وقيل أكثر وتقديرهم نحو جيش الفرجن فظن النصارى أنهم إنما خرجوا لأمر غير القتال من مفاوضة أو إبلاغ رسالة أو نحو ذلك حتى إذا سامتوا موقف الطاغية ورد فيه جوان صمموا نحوهما حتى خالطوهما في مراكزهما فصرعواهما في جملة من الحاشية وانهزم ذلك الجمع من حينه وولوا الأدبار واعتراضهم من ورائهم مسارب الماء للشرب على نهر شنيل فقتلوا فيها وهلك أكثرهم واكتسحت أمواهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال وأخذ الأسرى فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب فيما قيل ثلاثة وأربعون قنطاراً ومن الفضة مائة وأربعون قنطاراً ومن السبي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين إلى الديار المصرية وكان من جملة الأسرى امرأة الطاغية وأولاده

فبدلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً فيما حكى بعض المؤرخين فلم يقبل المسلمون ذلك، قلت: «هذا خطأ في الرأي وضعف في السياسة» قالوا: وزادت عدة القتلى في هذه الغزوة على خمسين ألفاً ويقال: «إنه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطريق» وأما الذين هلكوا بالجبال والشعب فلا يحصون وقتل الملوك السبعة جميعهم، وقيل خمسة وعشرون واستمر البيع في الأسرى والسيبي والدواب ستة أشهر، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلىسائر البلاد، ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين سوى ثلاثة عشر نفساً وقيل عشرة أنفس وسلخ الطاغية بطرا وحشى جلدهقطناً وعلق على باب غرناطة وبقي معلقاً سنتين وطلبت النصارى الهدنة فعقدت لهم والله تعالى أعلم.

انتقاض الأمير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة عشرين وسبعمائة انتقض الأمير أبو علي صاحب سجلماسة والصحراء على أبيه السلطان أبي سعيد وتغلب على درعة وسما إلى طلب مراكش فعقد السلطان أبو سعيد على حربه لأخيه الأمير أبي الحسن وأغزاها إيه، ثم نهض على أثره فاحتل بمراكش وثقف أطرافها وحسم علىها وعقد عليها لكتنوز بن عثمان من صنائع دولتهم وقتل إلى الحضرة، ثم لما كانت سنة التسعين وعشرين وسبعمائة نهض الأمير أبو علي في جموعه من سجلماسة وأخذ السير إلى مراكش فاقتحمتها بعساكره قبل أن يجتمع لكتنوز أمره وتبغض عليه وضرب عنقه ورفعه على القناة وملك مراكش وسائر ضواحيها.

ويبلغ الخبر إلى السلطان أبي سعيد فخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد وأزاح العلل واستوفى الأعطيات وقدم بين يديه ابنه الأمير أبي الحسن

ولي عهده وجاء هو على ساقته وساروا على هذه التعبية، ولما انتهوا إلى وادي ملوية اتصل بهم الخبر أن أبا علي يريد أن يبيتهم فأسهروا ليتهم ويأتوا على ظهور خيالهم وبعد مضي جزء من الليل طرقهم أبو علي في جموعه فكانت الدبرة عليه وفل عسكنره وارتحلوا من الغد في أثره وكان قد سلك جبل درن فافتقرت جنوده في أوغاره ولحقهم من المشاق ما يفوت الوصف حتى ترجل الأمير أبو علي عن فرسه وسعى على قدميه وخلص من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق ولحق بسجلماسة ومهد السلطان أبو سعيد نواحي مراكش وعقد عليها لموسى بن علي الهاشمي فعظم غناه في ذلك واضطلاعه وأمتدت أيام ولايته، وارتحل السلطان إلى سجلماسة فدافعته الأمير أبو علي بالخضوع ورحب إليه في الصفح والرضا والعود إلى السلم فأجابه السلطان إلى ذلك لما كان قد شغفه من حبه فقد كان يوثر عنه من ذلك غرائب ورجع إلى الحضرة وأقام الأمير أبو علي بمكانه من مملكه القبلة إلى أن هلك السلطان أبو سعيد وتغلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن كما ذكره إن شاء الله.

بناء مدارس العلم بحضورة فاس حرسها الله

قد تقدم لنا أن السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمة الله كان قد بني مدرسته التي يفاس مع غيرها مما سبق التنبيه عليه، ووقف عليها كتب العلم التي بعث بها إليه الطاغية سانحة عند عقد الصلح معه ووقف عليها غير ذلك، واقتفي أثره في هذه المنقبة الشريفة بنوه من بعده فاستكثروا من بناء المدارس العلمية والزوايا والرباط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة وأجروا على الطلبة بها الجرایات الكافية، فأمسكوا بسبب ذلك من رقم العلم وأحيوا مراسمه وأخذوا بضعيه جراهم الله عن نيتهم الصالحة خيراً.

ولما كانت سنة عشرين وسبعيناً أمر السلطان أبو سعيد رحمة الله ببناء المدرسة التي يفاس الجديد فبنيت أفقن بناء وأحسنه ورتب فيها الطلبة لقراءة

القرآن والفقهاء لتدريس العلم وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر، وحبس عليها الرباع والضياع ابتغاء ثواب الله ورغبة فيما عنده.

وفي سنة إحدى وعشرين بعدها بنى ولی عهده الأمير أبو الحسن المدرسة التي يغريبي جامع الأندلس من حضرة فاس فجاءت على أكمل الهيئات وأعجبها وبنى حولها سقاية ودار الوضوء وفندقاً لسكنى طلبة العلم وجلب الماء إلى ذلك كله من عين خارج باب الجديد أحد أبواب فاس وأفق على ذلك أموالاً جليلة تزيد على مائة ألف دينار، وشحذها بطلبة العلم وقراء القرآن وحبس عليها رباعاً كثيرة ورتب فيها الفقهاء لتدريس وأجرى عليهم الإنفاق والكسوة نفعه الله بقصده.

وفي سنة ثلاثة وعشرين وسبعين في فاتح شعبان منها أمر السلطان أبو سعيد أيضاً ببناء المدرسة العظمى بيازاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة اليوم بمدرسة العطارين، فبنيت على يد الشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوar وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخبر حتى أست وشرع في بنائها بمحضره، فجاءت هذه المدرسة من أغرب مصانع الدول بحيث لم يبن ملك قبله مثلها، وأجرى بها ماء معيناً من بعض العيون هنالك وشحذها بالطلبة ورتب فيها إماماً ومؤذنين وقومة يقومون بأمرها ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية، واشتري عدة أملاك ووقفها عليها احتساباً بالله تعالى، وسيأتي التنبية على ما بناه ابنه أبو الحسن من ذلك أيام ولادته وحافده أبو عنان وغيرهما إن شاء الله، وبالجملة، فقد كان لبني مرين جنوح إلى الخير ومحبة في العلم وأهله تشهد بذلك آثارهم الباقية إلى الآن في مدارسهم العلمية وغيرها، وفي مثل ذلك يحسن أن ينشد:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبالسن البنيان
إن البناء إذا تعاظم شأنه
أضحي يدل على عظيم الشان

أخبار بنى العزفي أصحاب سبعة

قد تقدم لنا أن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن الأحمر صاحب مالقة كان قد غدر بأهل سبعة وقبض على رؤسائها من بنى العزفي، وغربهم إلى غرناطة سنة خمس وسبعيناً فاستقروا هنالك في إمارة السلطان ابن الأحمر المعروف بالمخلوق مدة ولما استولى السلطان أبو الريبع المريني على سبعة ونفى بنى الأحمر عنها استأذنه بنو العزفي في الرجوع إلى المغرب والقدوم عليه فأذن لهم واستقروا بفاس وكان أبو زكرياء يحيى وأبو زيد عبد الرحمن ابنا أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم محمد بن أبي العباس أحمد العزفي من سرواتهم وأهل المروءة والدين فيهم وكانوا يعشون مجالس العلم بمسجد القرويين من فاس لما كانوا عليه من انتقامته، وكان السلطان أبو سعيد أيام ولاية بنى أبيه من قبله يحضر مجلس الشيخ الفقيه أبي الحسن الصغير وكان أبو زكرياء يحيى بن أبي طالب يلازمه ويتودده إليه فاتصل به وصارت له بذلك وسيلة عنده، فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي سعيد رمى لبني العزفي تلك الوسيلة فأنعم عليهم وعقد لأبي زكرياء منهم على سبعة وردهم إلى موطن سلفهم ومقر رياستهم فقدموها سنة عشر وسبعيناً، وأقاموا فيها دعوة السلطان أبي سعيد والتزموا طاعته.

ولما فوض السلطان أبو سعيد إلى ابنه أبي علي الأمر وجعل له الإبرام والنقض عقد أبو علي على سبعة لأبي زكرياء حيون بن أبي العلاء القرشي وعزل أبي زكرياء يحيى بن أبي طالب منها واستقدمه إلى فاس فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمه أبو حاتم واستقروا في جملة السلطان وهلك أبو طالب بفاس أثناء تلك المدة^(١) ثم كان من خروج الأمير أبي علي على أبيه وانتقامه عليه ما قدمته فلحق أبو زكرياء بن أبي طالب وأخوه أبو زيد بالسلطان أبي

(١) في شعبان عام ثلاثة عشر وسبعيناً كما في الجذوة.

سعيد نازعين إليه ومقارقين لابنه التاجر عليه واستمروا في جملته إلى أن مرض الأمير أبو علي وتحف أبوه إليه وحاصره بفاس حسبما مر، فحينئذ عقد السلطان أبو سعيد لأبي زكرياء على سبعة ثانية وبعثه إليها ليقيم دعوته في تلك الجهات وترك ابنه محمد بن أبي زكرياء تحت يده رهناً على الطاعة فاستقل أبو زكرياء بإمارتها وأقام دعوة السلطان أبي سعيد بها واتصل ذلك منه نحو سنتين، ثم هلك عمه أبو حاتم بسبعة سنة ست عشرة وسبعمائة وانتقض أبو زكرياء بن أبي طالب على السلطان أبي سعيد ورجع إلى حال سلفه من الاستبداد وإقامة الشورى بالبلد واستقدم من الأندلس عبد الحق بن عثمان الذي كان خرج على السلطان أبي الريبع مع الوزير عبد الرحمن الوطاسي فقدم عليه وعقد له على الحرب ليفرق به كلمة بنى مرين بالمغرب ويوجه بأسمهم فتخفف عليه وطأتهم.

واتصل ذلك كله بالسلطان أبي سعيد فقام وقعد وجهز إلى سبعة العساكر من بنى مرين وعقد على جربها للوزير إبراهيم بن عيسى البيريناني فرحف إليها وحاصرها فاعتذر إليه أبو زكرياء بحبس ابنه عنه ومقارقته له وأنه إذا رجع إليه ابنه بذلك الطاعة وراجع الدعوة فأعلم الوزير السلطان بذلك فبعث إليه بالولد ليسلمه إلى أبيه بعد أن يقتضي منه موجبات الطاعة وأسبابها وجاء الخبر إلى أبي زكرياء بأن ابنه قد قدم وأنه كائن بفساطط الوزير بساحل البحر بحيث تأتى الفرصة في أخذنه فبعث أبو زكرياء إلى عبد الحق بن عثمان قائد الحرب وأعلمته بمكان ابنه فواطأه عبد الحق على انتزاعه منهم، ثم هجم ليلاً في جماعة من حاشيته على فساطط الوزير فاحتمل الولد وأصبح به عند أبيه وسمع أهل عسكر الوزير بالهيبة فركبا وتبعوا الأثر فلم يقفوا على خبر وفقد الوزير الولد الذي كان عنده فلم يجده واتهم الجيش الوزير بأنه مالاً شيعة أبيه على أخذنه ولا فلا يقدم أحد هذا الإقدام بدون مداخلة من بعض الجيش فتقبضوا على الوزير وحملوه إلى السلطان إيهاء في الطاعة وإبلاغاً في العذر فشكر لهم ذلك وأطلق الوزير لعلمه ببراءته ونصحه.

ثم رغب أبو زكرياء بعدها في رضا السلطان وطاعته وولايته فنهض

السلطان أبو سعيد رحمه الله سنة ست عشرة إلى طنجة لاختبار طاعة أبي زكرياء فبان له صدقه وعقد له على سبعة واشتهرت هو على نفسه حمل الجبائية إلى السلطان وإسناد الهدية في كل سنة واستمر الحال على ذلك إلى أن هلك أبو زكرياء سنة عشرين وسبعيناً وقام بالأمر بعده ابنه محمد بن أبي زكرياء إلى نظر ابن عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم شيخ قرابتهم، وكان قائد الأساطيل بسبعة ولـي النظر فيها بعد أن نزع القائد يحيى الرنداحي إلى الأندلس وتغلب محمد بن علي هذا بسبعة واحتلـتـ كلمة الغوغاء واضطرب الأمر على بنـيـ العزـفـيـ بهاـ.

فـانـهـزـ السـلـطـانـ أـبـوـ سـعـيدـ الفـرـصـةـ فـيـهاـ وـأـجـمـعـ النـهـوضـ إـلـيـهاـ فـنـهـضـ سـنـةـ ثـمـانـ وـعـشـرـينـ وـسـبـعـمـائـةـ وـنـزـلـ عـلـيـهـ فـبـادـرـ أـهـلـ سـبـعةـ بـإـيـاتـ طـاعـتـهـ وـعـجزـ مـحـمـدـ بـنـ أـبـيـ زـكـرـيـاءـ عـنـ الـمـنـاهـضـةـ وـظـنـهـ مـحـمـدـ بـنـ عـلـيـ مـنـ نـفـسـهـ فـتـعـرـضـ لـلـأـمـرـ فـيـ أـوـغـادـ مـنـ لـفـيـهـ اـجـتـمـعـواـ إـلـيـهـ فـدـافـعـهـمـ الـمـلـأـ مـنـ أـهـلـ سـبـعةـ عـنـ ذـلـكـ وـحـمـلـوـهـمـ عـلـىـ الطـاعـةـ وـاقـتـادـواـ بـنـيـ العـزـفـيـ إـلـيـ السـلـطـانـ أـبـيـ سـعـيدـ فـانـقـادـواـ إـلـيـهـ وـاحـتـلـ السـلـطـانـ بـقـصـيـةـ سـبـعةـ وـثـقـفـ جـهـاتـهـ، وـرـمـ مـتـلـمـهـ وـأـصـلـحـ خـلـلـهـ وـاسـتـعـمـلـ كـبـارـ رـجـالـهـ وـخـواـصـ مـجـلـسـهـ فـيـ أـعـمـالـهـ، فـعـقـدـ لـحـاجـبـهـ عـامـرـ بـنـ فـتـحـ اللهـ السـدـرـاتـيـ عـلـىـ حـامـيـتـهـ وـعـقـدـ لـأـبـيـ القـاسـمـ بـنـ أـبـيـ مـديـنـ العـشـمـانـيـ عـلـىـ جـبـاـيـتـهـ وـالـنـظـرـ فـيـ مـبـاـيـنـهـ وـإـخـرـاجـ الـأـمـوـالـ لـلـنـفـقـاتـ فـيـهـ، وـأـسـنـيـ جـوـائزـ الـمـلـأـ مـنـ مـشـيخـتـهـ وـوـفـرـ إـقـطـاعـتـهـ وـجـرـايـاتـهـ وـأـوـزـ بـيـنـ الـبـلـدـ الـمـسـمـيـ أـفـرـاكـ عـلـىـ سـبـعةـ فـشـرـعـواـ فـيـ بـنـائـهـ سـنـةـ تـسـعـ وـعـشـرـينـ وـسـبـعـمـائـةـ وـانـكـفـاـ رـاجـعاـ إـلـيـ حـضـرـتـهـ، وـقـدـ ذـكـرـ اـبـنـ الـخـطـيـبـ فـيـ كـتـابـ الـإـكـلـيلـ مـحـمـدـ بـنـ أـبـيـ زـكـرـيـاءـ هـذـاـ فـقـالـ فـيـ مـاـ صـورـتـهـ: «ـفـرعـ تـأـودـ مـنـ الـرـيـاسـةـ فـيـ دـوـحةـ وـتـرـدـ بـيـنـ غـدـوةـ فـيـ الـمـجـدـ وـرـوـحـةـ نـشـاـ وـالـرـيـاسـةـ الـعـزـفـيـةـ تـعلـهـ وـتـنـهـلـهـ وـالـدـهـرـ يـسـرـ أـمـلـهـ الـأـقصـىـ وـيـسـهـلـهـ حـتـىـ اـنـسـقـتـ أـسـبـابـ سـعـدـهـ وـانتـهـتـ إـلـيـهـ رـيـاسـةـ سـلـفـهـ مـنـ بـعـدـ فـأـلـقـتـ إـلـيـهـ رـحـالـهـ وـحـطـتـ وـمـتـعـتـهـ بـقـرـبـهـ بـعـدـ مـاـ شـطـتـ ثـمـ كـلـحـ لـهـ الـدـهـرـ بـعـدـ مـاـ تـبـسـمـ وـعـادـ زـعـزـعـاـ نـسـيمـهـ الـذـيـ كـانـ تـنسـمـ وـعـاقـ هـلـالـهـ عـنـ تـمـهـ مـاـ كـانـ مـنـ تـغـلـبـ اـبـنـ عـمـهـ وـاسـتـقـرـ بـهـذـهـ الـبـلـادـ نـازـحـ الدـارـ بـحـكـمـ الـأـقـدارـ وـإـنـ كـانـ نـبـيـهـ الـمـكـانـةـ

والمقدار وجرت عليه جرایة واسعة ورعاية متابعة». إلى آخر كلامه ويعني بقوله هذه البلاد بلاد الأندلس والله أعلم.

المصاورة بين السلطان أبي سعيد في ابنه أبي الحسن وبين أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي والسبب في ذلك

كان أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان قد ضايقبني أبي حفص أصحاب تونس وإفريقية في بلادهم واستولى على كثير من ثغورهم وردد البعوث والسرايا إلى أطراف ممالكتهم وفي سنة تسع وعشرين وسبعمائة جهز أبو تاشفين إليهم جيشاً كثيفاً وعقد عليه ليحيى بن موسى من صنائع دولته، ونصب مع ذلك لملك تونس وإفريقية بعض أعقاب الحفصيين وهو محمد بن أبي عمران كان لجأ إليه في بعض الفتنة التي كانت له معبني عمه، وتقدم هذا الجيش إلى أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي فهزمه واقتحموا مدينة تونس فاستولوا عليها ونصبوا لملكها والولاية عليها محمد بن أبي عمران المذكور، ليس له من الملك إلا الاسم، والأمر كله بيد ليحيى بن موسى قائد الجيش، وخلص السلطان أبو بكر بن أبي زكرياء الحفصي إلى بونة جريحاً مطروداً عن كرسيه ملكه ودار عزه فعزم حيثئلاً على الوفادة على السلطان أبي سعيد المرنيني ليأخذ له حقه من آل يغمراسن المتعلبيين عليه وأراد مع ذلك تجديد الوصلة التي كانت لسلفة معبني مرین فأشار عليه حاجبه محمد بن سيد الناس بإتفاذه ابنه الأمير أبي زكرياء صاحب الشغر استنكافاً له عن مثلها فقبل إشارته وأركب ابنه المذكور البحر وبعث معه وزيره أبي محمد عبد الله بن تافراجين نافضاً أمامه طرق المقاصد والمحاورات ونزلوا بمرسى غسasse من ساحل المغرب وقدموا على السلطان أبي سعيد بحضرته فأبلغوه رسالة أبي بكر الحفصي فاهتز لذلك هو وابنه الأمير أبو الحسن وقال لوفد الحفصيين:

«والله لأبدلن في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسني ولأسيرن بعساكري إلى

تلمسان فأنازلها» وكان فيما شرط عليهم السلطان أبو سعيد مسir أبي بكر الحفصي بعساكره إلى منازلة تلمسان معه فقبلوا وانصرفوا إلى منازلهم مسرورين.

ونهض السلطان أبو سعيد إلى تلمسان سنة ثلاثين وسبعمائة ولما انتهى إلى وادي ملوية وعسكر بصبرة جاءه الخبر اليقين بعود أبي بكر الحفصي إلى تونس وجلوسه على كرسيه بها فاستدعي السلطان أبو سعيد ابنه أبي زكرياء وزيره أبي محمد بن تافراجين وأعلمهما الخبر وأسى جوائزهم وأمرهم بالانصراف إلى صاحبهم فركبوا أساطيلهم من غسالة.

وبعث معهم إبراهيم بن أبي حاتم العزفي والقاضي بحضرته أبي عبد الله بن عبد الرزاق يخطبون بنت السلطان أبي بكر الحفصي لابنه الأمير أبي الحسن فوصلوا إلى الحفصي وأدوا الرسالة وانعقد الصهر بينهم في ابنته فاطمة شقيقة الأمير أبي زكرياء وزفتها إليهم في أساطيله مع مشيخة الموحدين وكبارهم أبي القاسم بن عتو، فوصلوا إلى مرسى غسالة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة فقام بنو مرين لها على أقدام البر والكرامة وبعثوا بالظهر إلى غسالة لركوبها وحمل أنفالها، وصيغت حكمات الذهب والفضة ومدت ولايا الحرير المغشاة بالذهب واحتفل السلطان أبو سعيد رحمة الله لوفدتها وأعراسها بما لم يسمع بمثله في دولتهم وتحدى الناس به دهراً وهلك السلطان أبو سعيد بين يدي موصلها كما نذكر.

وفاة السلطان أبي سعيد بن يعقوب رحمة الله

كان السلطان أبو سعيد رحمة الله لما بلغه الخبر بوصول العروس فاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة ارتحل بنفسه إلى تازا ليشارف أحوالها كرامة لها ولأبيها وسراوراً بعرس ابنه فاعتلت هنالك وازداد مرضه حتى إذا أشفا على الهمكة ارتحل بهولي العهد الأمير أبو الحسن إلى الحضرة، وحمله في فراشه على أكتاد الحاشية والجند

حتى نزل بوادي سبو، ثم أدخله كذلك ليلاً إلى قصره فأدركته المنية في طريقه فتوفي ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، وكان مرضه بعلة التقرس فوضعوه بمكانه من بيته واستدعي ابنه أبو الحسن الصالحين لمواراته فدفن^(١) ببعض قببه رحمة الله وكانت أيامه أعياداً ومواسم، ومن أكابر كتابه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي.

الخبر عن دولة السلطان المنصور باشة أبي الحسن علي ابن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رحمة الله

هذا السلطان هو أقخم ملوك بني مرين دولة وأضخمهم ملكاً وأبعدهم صيتاً وأعظمهم أبهة وأكثرهم آثاراً بالمغاربة والأندلس، ويعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لأن أمه كانت حبشية^(٢) فكان أسمراً اللون وال العامة تسمي الأسمراً والأسود أكحل وإنما الأكحل في لسان العرب أكحل العينين فقط، وكان أخوه أبو علي لمملوكة من سبي النصارى فكان أبيض وانضاف لذلك أن كان أبو الحسن ملكاً على الحضرة وأبو علي ملكاً على بلاد القبلة فكانا أخرين ملكيين في عصر واحد أحدهما أسمراً والآخر أبيض فعرف هذا بالأكحل والآخر بالأبيض للمقارنة.

ولما هلك السلطان أبو سعيد رحمة الله اجتمع الخاصة من المشيخة وروجالات الدولة على ولی عهده أبي الحسن المذكور وعقدوا له على أنفسهم وآتوه طاعتهم فأمر للحین بنقل معسكره من ناحية سبو إلى الزيتون من ناحية فاس، ولما فرغ من دفن أبيه خرج إلى معسكره بال محل المذكور واجتمع الناس إليه على طبقاتهم لأداء البيعة بفساططة، وتولىأخذ البيعة له يومئذ على الناس الشيخ أبو محمد عبد الله بن قاسم المزوار والمزوار في لسان

(١) الذي في كتاب روضة النسرين في دولة بني مرين أنه دفن بشالة.

(٢) تسمى العنبر.

زناتة معناه الرئيس وكان هذا الرجل رئيس الوزعة والمتصرين وحاجب الباب السلطاني قديم الولاية في ذلك منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب، ثم رفت على السلطان أبي الحسن زوجته الحفصية فبني بها بمكانه من المعسمر المذكور وأجمع رأيه على الانتقام لأبيها من عدوه أبي تاشفين الزياني على ما ذكره.

حدث الفتنة بين الأخرين أبي الحسن وأبي علي ثم مقتل أبي علي والسبب في ذلك

كان السلطان أبو سعيد رحمة الله لما عهد بالأمر لابنه أبي الحسن وتحقق مصيره إليه كثيراً ما يستوصيه بأخيه أبي علي لكلفه به وشفقته عليه فلما خلص الأمر إلى أبي الحسن وكان موثراً رضا أبيه جهده اعتمد على الحركة إلى سجلماسة لمشاركة أحوال أخيه واختبار أمره وما هو عليه من سلم أو حرب ليعمل على مقتضى ذلك، فارتاحل من معسركه بالزيتون فاصداً سجلماسة فتلقته وفود أخيه أبي علي أثناء الطريق مؤدياً حقه وموجباً مبرئه ومهنطاً له بما آتاه الله من الملك ويعلم أنه بذلك بأنه مت天涯 عن المزارعة له قانع من تراث أبيه بما في يده طالب منه أن يعقد له بذلك، فأجابه السلطان أبو الحسن إلى ما سأله وعقد له على سجلماسة وما والاها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيه وأشهد على ذلك الملا من بنى مرين وسائر زناتة والعرب، وانكفاً السلطان أبو الحسن راجعاً إلى تلمسان ثم تجاوزها إلى جهة الشرق تاشفين الزياني فسار حتى انتهى إلى تلمسان ثم تجاوزها إلى جهة الشرق حتى نزل بتاسالت متضرراً لقدوم صهره السلطان أبي بكر الحفصي عليه وفاء بالعهد الذي كان انعقد له مع السلطان أبي سعيد أيام وفادة ابنه أبي زكرياء عليه من أنهما يكونان يداً واحدة على حصار تلمسان حتى يحكم الله بينهما وبين صاحبها فعسكر أبو الحسن بتاسالت ثم بعث بحصة من جنده في البحر إلى صهره الحفصي مددأ له وهو يومئذ بيجاية يقاتل جيش بن زيان عليها.

ولما اتصل الخبر بأبي تاشفين صاحب تلمسان فكر في أمر أبي الحسن

وأعمل الحيلة بأن دس إلى أخيه الأمير أبي علي صاحب سجلماسة في اتصال اليد به والاتفاق معه على أخيه أبي الحسن وأن يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه ويشغله عنه حتى يتمكنا منه ووعده أبو تاشفين ومناه ولم يزل به حتى انتقض على أخيه ونهض من سجلماسة إلى درعة فقتل عاملها وولى عليها عاملاً من قبله، ثم سرح العساكر إلى جهة مراكش وأجلب عليها بخيله ورجله.

وأتصال الخبر بالسلطان أبي الحسن وهو بمعسكره من تاسالت ينتظر قدوم الحفصي عليه فانكفا راجعا إلى الحضرة مجتمعًا للانتقام من أخيه، ولما انتهى في طريقه إلى حصن تاوريرت شحنه بالعسكر وعقد عليه لابنه تاشفين بن أبي الحسن ووقف أمره على نظر منديل بن حمامه شيخبني تيربعين ثم أغذ السير إلى سجلماسة فنزل عليها وأخذ بمحنته وحشر الفعلة والصناع لصنع الآلات والبناء بساحتها وأقام عليها يغذيها بالقتال ويرواحها حولاً كاملاً ونهض أبو تاشفين في عساكرة من تلمسان يريد الغارة على أطراف المغرب كي يشغل أبي الحسن عن أخيه بذلك فانتهى إلى تاوريرت فبرز إليه تاشفين بن أبي الحسن في عساكر مرين فهزمه وردوه على عقبه إلى تلمسان، ثم بعث بحصة من جنده مددًا للأمير أبي علي فتسربوا إلى سجلماسة جماعات وأفذاذًا حتى تكاملوا لديه فلم يغنو شيئاً وطاولهم السلطان أبو الحسن الحصار أنزل بهم أنواع التكال حتى اقتحم البلد عنوة تاسع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وتقبض على الأمير أبي علي عند باب قصره وجيء به إلى أخيه أبي الحسن وقد خامره الجزع فلما مثل بين يديه تضرع إليه وقبل حافر فرسه فأمر أبو الحسن بتحقيقه وحمله على بغل إلى فاس وانكفا هو راجعا إلى الحضرة فلما دخلها اعتقل أخاه ببعض حجر القصر أشهرًا ثم قتله فصداً وخفقاً وكانت سن أبي علي يومئذ سبعاً وثلاثين سنة وكانت دولته بسجلماسة تسع عشرة سنة وأشهرًا وكان رقيق الحاشية ينتمي إلى الأدب وهو الذي استقدم أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي من سبعة واستكتبه أيام أبيه ومن شعر الأمير أبي علي يخاطب أخاه أبو الحسن أيام حصاره له بسجلماسة وقد أيقن بزوال أمره:

أباد من كان قبلني يا أبي الحسن
 لا بد من فرح فيه ومن حزن
 أسد العرين ثروا في اللحد والكفن
 رسومها وعفت عن كل ذي حسن
 واستغن بالله في سر وفي علن
 كأنبي لم أكن يوماً ولم تكن
 فلا يغرنك الدهر الخوؤن فكم
 الدهر مذ كان لا يبقى على صفة
 أين الملوك التي كانت تهابهم
 بعد الأسرة والتيجان قد محبت
 فاعمل لأخرى وكن بالله مؤتمراً
 واختر لنفسك أمراً أنت آمره

وفادة السلطان ابن الأحمر على السلطان أبي الحسن بحضورة فاس وفتح جبل طارق

لما هلك السلطان أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فرج بن الأحمر المتغلب على ملك الأندلس من يد ابن عمه أبي الجيوش، قام بالأمر بعده ابنه محمد طفلاً صغيراً واستبد عليه وزيره محمد بن المحروم فقتله بعدما شب وعقل وكان الطاغية قد استولى على جبل الفتح وهو جبل طارق سنة تسع وسبعمائة وواحدم الفرنج به ثغور المسلمين وصار شجي في صدر الدولتين المرinية والأحمرية واستمر الحال على ذلك إلى أن بويع الأمير السلطان أبو الحسن وكان له رغبة في الجهاد اقتداء بمذهب جده يعقوب بن عبد الحق فبادر السلطان محمد بن إسماعيل بن الأحمر إلى الرفادة عليه لاحكام عقد المودة معه وللمفاوضة في أمر الجهاد وغير ذلك مما فيه صلاح لدولته فقدم عليه بدار ملكه بفاس سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة فأكابر السلطان أبو الحسن موصله وأركب الناس للقاء وأنزله بروض المصارة لصق داره واستبلغ في إكرامه، وفاضه ابن الأحمر في شأن المسلمين وراء البحر وما أهمهم من عدوهم وشكى إليه حال الجبل واعتراضه شجي في صدور الثغور قبل وشكى إليه أمربني عثمان بن أبي العلاء لأنهم كانوا قد استطالوا عليه في أرضه فأشكاهم أبو الحسن وعامل الله تعالى في أسباب الجهاد، وكان يومئذ مشغولاً بفتنة أخيه أبي علي ومع ذلك فقد أمدته بالجندي وعقد لابنه أبي مالك

على خمسة آلاف من آتاجاد بنى مرين وأنفذهم مع ابن الأحمر لمنازلة جبل الفتح فاحتل أبو مالك بالجزيرة الخضراء وتابعت إليه الأساطيل بالمدد، وأرسل ابن الأحمر في الأندرس حاشرين فتسايل الناس إليه من كل جهة وزحفوا جميعاً إلى الجبل وأحاطوا به وأبلوا في منازله البلاء الحسن إلى أن فتحوه سنة ثلاثة وثلاثين وسبعمائة واقتصره المسلمون عنوة وتغلبهم الله من كان به من النصارى بما معهم، وشرع المسلمون في شحنه بالأقوات ينقلونها من الجزيرة الخضراء على خيولهم خوفاً من كرة العدو وبasher نقلها الأميران أبو مالك وابن الأحمر بأنفسهما ونقلها الناس عامة وتحيز الأمير أبو مالك إلى الجزيرة الخضراء وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلبي من وزراء أبيه، ووصل الطاغية بعد ثلاثة من فتحه فأناخ عليه وحاصره وبهز أبو مالك بعساكره من الجزيرة فنزل بإزائه وزحف ابن الأحمر فنزل بإزائه أيضاً ثم خاف ابن الأحمر عافية العدو لقرب العهد بارتفاع الجبل وخفة من به من العافية والسلاح، فبادر إلى لقاء الطاغية وسبق الناس إلى فساططه عجلأً بائعاً نفسه من الله في رضا المسلمين وسد خلتهم فتلقاء الطاغية راجلاً حاسراً إعظاماً له وأجابه إلى ما سأله من الإفراج عن هذا المعقّل وأتحفه بذخائر مما لديه وارت حل من فوره وشرع الأمير أبو مالك في تحصين ذلك الثغر وسد فروجه.

وقال أبو العباس المقرري في النفع: ارتجع السلطان أبو الحسن جبل طارق بعد أن أفق عليه الأموال وصرف إليه الجنود والحسود ونمازله جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به إلى أن استرجعوه ليد المسلمين، واهتم ببنائه وتحصينه وأنفق عليه أحمال المال في بنائه وحصنه وسوره وبيني أبراجه وجماعه ودوره ومحاريته ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برأ وبحراً فصبر المسلمون وخيب الله سعي الكافرين فأراد السلطان المذكور أن يحسن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو في منازله ولا يجد سبيلاً للتضييق عليه بمحاصرته، ورأى الناس ذلك من المحال فأنفق الأموال وأنصف العمال فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفاً وعشرين سنة وحاصره السلطان أبو الحسن ستة

أشهر وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان رحمهما الله تعالى .
 وأما ابن الأحمر فإن أولاد عثمان بن أبي العلاء شيوخ الغزو بالأندلس لما رأوا ما حصل بيته وبين السلطان أبي الحسن من الوفاق واتصال اليد خافوا أن تعود موافقتهم بالضرر عليهم إذ كانوا أعداء للدولتين معاً أما دولة المغرب فبخر وجههم عليهم ومنابذتهم إياهم غير مرة ، وأما دولة الأندلس فباستحواذهم على أهلها ومزاحمتهم إياهم في رياستها فتشاوروا فيما بينهم وقتكموا بابن الأحمر يوم رحيله عن الجبل إلى غرناطة فتقاسفوه بالرماح وقدموا أخاه أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل مكانه فقام بالأمر بعده وشرر للأخذ بشار أخيه فاحتال على بنى أبي العلاء حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق ثم غربهم إلى تونس إلى أن كان من أمرهم ما ذكره .

فتح تلمسان ومقتل صاحبها أبي تاشفين وانقراض الدولة الأولى لبني زيان بمهلكه

لما استقام ملك المغرب للسلطان أبي الحسن بمقتل أخيه أبي علي صاحب سجل ماسة ونصر الله جنده على الطاغية بالأندلس تفرغ لشأن تلمسان والانتقام من صاحبها أبي تاشفين الذي ضايق أصهاره من بنى أبي حفص في أرضهم ونزعهم في ملكهم ، وكان السلطان أبو الحسن قد بعث لأول يبعثه شفيعاً إلى أبي تاشفين في أن يتخلّى عن عمل الموحدين ويرجع إلى تخوم أعماله التي ورثها عن سلفه وقال له في جملة ذلك : « كف عنهم ولو سنة واحدة ليسمع الناس أنني نافت عن صهري ويقدروا قدرني » فاستنكف أبو تاشفين من ذلك وأغلظ للرسل في القول وأفحش بعض السفهاء من عيده في الرد عليهم بمجلسه ونالوا من السلطان أبي الحسن بمحضره فعادت الرسل إليه وأعلموه بالقضية على وجهها فحمي لذلك وغضب وتأكد عزمه على النهوض إلى تلمسان فكان من فهو ضه أولًا وانتقام أخيه عليه وعوره إليه من تأسالت ما قصصناه قبل مستوفى .

ثم عاود السلطان النهوض إلى تلمسان في هذه المرة فعسکر بظاهر فاس الجديد وبعث وزراءه ووجوه دولته إلى قاصية البلاد المراكشية لحشد القبائل والجموع ثم تعجل وعرض جنوده وأزاح عللهم وعيى مواكبه وفصل في التعبية من فاس أواسط خمس وثلاثين وسبعيناً فسار يجر الشوك والمدر من أمم المغرب وجنوده، ومر بوجدة فجمر عليها الكتاب للحصار ثم مر بندرورة فقاتلها بعض يوم ثم اتّحتمها عنوة فاستولى عليها وقتل حاميتها، ثم سار على التعبية حتى أناخ على تلمسان ثم بلغه الخبر بتغلب عسکره على وجدة سنة ست وثلاثين وسبعيناً فأوزع إليهم بتخريب أسوارها فأضرواها بالأرض وتواتفت لديه أداد النواحي وحشودها، ووفدت عليه قبائل مغراوة ويني توجين فأتوه طاعتهم وسرح كتابه إلى القاصية فتغلب على وهران وهنین ثم على مليانة وتنس والجزائر وغيرها واستولى على الضواحي ونزع إليه يحيى بن موسى كبير قواد أبي تاشفين وصاحب التغور الشرقية من أعماله فلقاه مبرة وكرامة ورفع بساطه ونظمه في طبقات وزراءه وجلسائه، وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى بن سليمان العسكري شيخ بنى عسکر بن محمد وصهر السلطان على ابنته فسار في الألوية والجنود فقطع ضاحية الشرق وافتتح أقصاره حتى انتهى إلى لمدية ونظم البلاد في طاعة السلطان أبي الحسن واحتشد جموعها فلحقوا بعسکره واستعمل السلطان أبو الحسن عماله على الجهات.

واختلط بغربي تلمسان البلد الجديد لسكناه ونزل عساكره، وأحيا معالم المنصورة التي كان اختطها عمّه يوسف بن يعقوب وخربها بنو زيان من بعده فأدار عليها سياجاً من السور ونطاقاً من الخندق ونصب المجانق وألات من وراء خندقه وجعلت رماته تنضح رماة العدو بالنبيل ويشغلونهم بأنفسهم حتى شيد برجاً آخر يقرب منهم وترتفع شرفاته فوق خندقهم وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعلىه ورتب المجانق لرجمها وأحكم عملها لدكها فنالت من ذلك فوق الغاية، وعظم أثرها في القصور العظيمة والقباب الرفيعة التي تأني أبو تاشفين في تشييدها، وكان السلطان أبو الحسن يصبح المقاتلة كل يوم

ويطوف على البلد من جميع جهاته لتفقد رؤساء العسكر في مراكزهم وربما انفرد في طوافه فطاف في بعض الأيام منتبدأ عن الحاشية، فاهاقبل بنو عبد الواد غرته حتى إذا سلك ما بين الجبل والبلد فتحوا أبوابها وأرسلوا عليه عقبان جنودهم يحسبونها فرصة كالتى كانت ليغمراسن بن زيان في السعيد الموحدى، واضطروه إلى سفح الجبل حتى لحق بأوعاره وكاد ينزل عن فرسه هو ووليه عريف بن يحيى أمير عرب سويد، وأحسن أهل العسكر بذلك فركبوا زرافات ووحداناً وركب ابناء الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك وهما جناحاً عسكريه وعقاباً جحافله وتهاوت إليهم صقور بنى مرين من كل جو فانكشفت عساكر بنى عبد الواد ولووا الأدبار منهزمين لا يلوى أحد منهم على أحد، واعترضهم مهوى المخندق فتطارحو فيه وتهافتوا على ردمه فكان الهالك يومئذ فيه أكثر من الهالك بالسلاح، وهلك من بنى توجين يومئذ عمر بن عثمان كبير الحشم وعامل جبل وانشريس ومحمد بن سلامة بن علي كبير بنى يدللتن وصاحب قلعة تاواغزوت وهو ما في زناته إلى أشباء لهما استلحموا في هذه الواقعة فحضر هذا اليوم من جناح دولة بنى زيان وحطمت منها، واتصل الحصار مدة من ثلاثة سنين حتى إذا كان السابع والعشرون من رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة اقتصر السلطان أبو الحسن مدينة تلمسان عنوة، ووقف أبو تاشفين رحمه الله عند باب قصره في جماعة من أصحابه منهم ولداته عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي ووليه عبد الحق بن عثمان وهو الذي كان خرج على السلطان أبي الربيع وباعيه عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي حسبما مر، فإنه لحق به بعد تلك الواقعة بتلمسان ثم منها إلى الأندلس ثم حضر انتقام العزفي بسبعين سنة ست عشرة كما مر ثم لحق بأبي بكر الحفصي ثم نزع عنه إلى أبي تاشفين واستمر عنده إلى هذا اليوم فشهده في جماعة من بنيه وبنى أخيه وكانوا أحلاس حرب وفتيان كريهة فمانعوا دون القصر واستمатаوا عليه إلى أن استلحموا ورفعت رؤوسهم على عصا الرماح فطيف بها وغضت سكل البلد من داخلها وخارجها بالعساكر وكظت أبوابها بالزحام حتى لقد كث الناس على أذقائهم

وتوقعوا على مسارיהם، فوطعوا بالحوافر وترامت أشلاؤهم ما بين البابين حتى ضاق المסלك ما بين السقف ورحبة الباب وانطلقت الأيدي على المنازل نهباً واقتساحاً.

وأما أبو تاشفين فإنه قاتل حتى قتل ابنه عثمان ومسعود أمامه وخلصت إليه جراحات فأثخنته وتقبض عليه بعض الفرسان فساقه إلى السلطان فلقىه ابنه الأمير أبو عبد الرحمن فأمر به فقتل في الحين واحتز رأسه وسخط السلطان ذلك من فعله لأنه كان حريصاً على توبيقه وتقریعه، وقال ابن الخطيب: وقف أبو تاشفين وبنوه بيازاء القصر مدافعين عن أنفسهم وقاموا مقام الصبر والاستجمام وصدقوا عن أنفسهم الدفاع إلى أن كوثروا وأعجلتهم ميته العز عن شد الوثاق وإمكان الشمات فكان في شأنهم عبرة رحمة الله.

وخلص السلطان أبو الحسن إلى المسجد الجامع بحاشيته واستدعى شيخ الفتيا بتلمسان وهو الإمام الشهيران أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ابن الإمام فخلصوا إليه بعد الجهد ووعظوه وذكروه بما نال الناس من النهب والعيث فركب لذلك بنفسه وسكن الناس وقبض أيدي الجند عن الفساد وعاد إلى معسكره بالبلد الجديد وقد كمل الفتح وعز النصر واستولى السلطان أبو الحسن على تلك الإمارة المؤثرة بما استعملت عليه من نفسى الحال وثمين الذخيرة وفاخر المتع وخطير العدة وبديعة الآلة وصامت المال وضروب الرقيق وصنوف الأثاث والماعون، ورفع القتل عن بنى عبد الواد أعدائه وشفا نفسه بقتل سلطانهم وعفا عنهم وأثبتهم في الديوان وفرض لهم العطاء واستتبعهم على رياطهم ومراكيزهم وجمع كلمةبني واسين منبني مرين وبني عبد الواد وبني توجين وسائر زناته وصاروا عصباً تحت لوائه وسد بكل طائفة منهم ثغراً من أعماله، فأنزل منهم بقاصية السوس وببلاد غماره وأجاز منهم إلى ثغور عمله بالأندلس حامية ومرابطين واندرجوا في جملته واتسع نطاق مملكته، وأصبح أبو الحسن ملك زناته بعد أن كان ملك بني مرين وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب فقط **﴿إِنَّ الْأَرْضَ يَلُوُّ يُؤْثِرُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَيْقَةُ لِلْمُقْتَيْرِ﴾** [الأعراف: 128].

مراسلة السلطان أبي الحسن لسلطان مصر وبعثه المصاحب من خطه إلى المساجد الثلاثة شرفها الله

كان للسلطان أبي الحسن مذهب ورأى في ولاية ملوك المشرق والمكلف بالمعاهد الشرفية اقتداء في ذلك بعمه يوسف بن يعقوب وغيره من سلفه وضاعف ذلك لديه متين دياته ورفع همته، ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى واستولى على المغاربة خاطب لحيته صاحب مصر والشام والحجاج الملك الناصر محمد بن قلاوون وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن ركب الحاج في سابلتهم، وكان سفيره في ذلك فارس بن ميمون بن وردار وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين الخلف كما كانت بين السلف، فأجمع السلطان أبو الحسن حيثياته على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف حرم مكة قربة إلى الله تعالى وابتغاء للمثبتة فانتسخها بيده وجمع الوراقين لتنميقها وتذهيبها والقراء لضبطها وتهذيبها، وصنع لها وعاء مؤلفاً من الآبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشي بصفائح الذهب ورصع بالجوهر والياقوت واتخذ له أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ومن فوقها غلاتيف الحرير والديباج وأغشية الكتان وأخرج من خزائنه أموالاً عينها لشراء الضياع بالشرق لتكون وفقاً على القراء فيها، وأوفد على الملك الناصر خواص مجلسه وكبار أهل دولته مثل عريف بن يحيى أميربني زغبة من عرببني هلال ومثل السابق المقدم في بساطه على كل خالصة عطية بن مهلهل بن يحيى كبير أخواله من عرب الخلط وبعث كتابه أبي الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة بباب الشیخ أبا محمد عبد الله بن قاسم المزار.

واحتفل في الهدية للسلطان صاحب مصر احتفالاً تحدث الناس به دهراً قال ابن خلدون: «وقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين الرسول المذكور ووعيته ثم أنسىه وذكر لي بعض فهارمة الدار أنه كان فيها خمسمائة من

عنق الخيل المقربيات بسرور الذهب والفضة ولجمها خالصاً ومشغلي ومموهاً وخمسمائة حمل من متاع المغرب وما عونه وأسلحته ومن نسج الصوف المحكم شيئاً وأكسية ويرانس وعمائم وإزاراً معلمة وغير معلمة ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملوناً وغير ملون وساذجاً ومنمقاً ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة الدين المنسوبة إلى اللنمط ومن خرثي المغرب وما عونه ما تستطرف صناعته بالشرق حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ذلك الركب فأذن لها واستبلغ في تكرمتها واستوصى بها وفده سلطان مصر في كتابه، وفصلوا من تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ووصلوا إلى مصر في الثاني والعشرين من رمضان من السنة المذكورة وأدوا رسالتهم إلى الملك الناصر وقدموا هديتهم إليه فقبلها وحسن موقعها لديه وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوماً مشهوداً تحدث الناس به دهراً ولقاءهم سلطان مصر في طريقهم أنواع البر والكرامة حتى قضوا فرضهم ووضعوا المصحف الكريم حيث أمرهم صاحبه، وأسنى الملك الناصر هدية السلطان من الفساطيط المشرقة الغربية الشكل والصنعة بالغرب ومن ثياب الإسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب، ورجعهم بها إلى مرساتهم وقد استبلغ في تكرمتهم وصلتهم وبقي حديث هذه الهدية مذكوراً بين الناس لهذا العهد» اهـ كلام ابن خلدون بعض إيضاح.

وقد ذكر الإمام الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق في كتابه «المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن» هذه الهدية وفصل منها بعض ما أجمله ابن خلدون فقال: أرسل السلطان أبو الحسن للناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين ومن الزمرذ مائة وثمانية وعشرين ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين ومن الجوهر النفيس المملوكي ثلاثة وثلاثمائة وأربعة وستين وأرسل حللاً كثيرة منها مذهبة ثلاثة عشر ومن الأنان عشرين مذهبة ومن الخلادي ستة وأربعين ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة ومن المحررات المختومة ثمانمائة ومن الرصاص عشرين شقة ومن الأكسية المحررة أربعة وعشرين ومن

البرانس المحررة ثمانية عشر ومن المشقفات مائة وخمسين ومن أحارم الصوف المحررة عشرين ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر ومن الفضالي المنوعة والفرش والمحادي المنبوق والحلل ثمانمائة ومن أوجه اللحاف المذهبة عشرين وحائطين حلة وحنابل مائة واثنتي عشر كلها حرير وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة ومن السيفون المحلات بالذهب المنظم بالجوهر عشرة والسرورج عشرة بركتب الذهب كذلك ومهاميز الذهب وثلاثة ركب فضة وستة مزجاجة ومذهبة ومضيمتان من ذهب مما يليق بالملوك وشاشة حديد بذهب مكمل بالجوهر ومن لزمات الفضة عشرة وسرورج مخروزة بالفضة عشرة وعشرون علامات مغشاة مذهبة وعشرون ريايات مذهبة وعشرون براقع مذهبة وعشرون علامات مرقومة وثلاثون جلدًا شرك وأربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهاية الذهب وثمانمائة بنهاية الفضة وخباء قبة كبيرة من مائة بنية لها أربعة أبواب وقبة أخرى مصرية من ست وثلاثين بنية مبطنة بحلة مذهبة وهي من حرير أبيض ومرابطها حرير ملون وعمودها عاج وأبنوس وأكبارها من فضة مذهبة ومن البذات الأحرار المنتقات أربعة وثلاثين ومن عتاق الخيل العراب ثلاثة وخمسين وثلاثين ومن البغال الذكور والإإناث مائة وعشرين ومن الجمال سبععمائة، وتوجهت مع هذه الهدية أمم برسم الحج مع الربعة المكرمة يعني ربعة المصحف الكريم، وأعطي السلطان الحرة أم أخته أم ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهباً ولقاضي الركب ثلاثة وكسوة ولقائد الركب أربععمائة وكساوي متعددة وبغلات ولرسول المعين للهدية ألفاً، ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة، وبرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة ولشراء الرباع ستة عشر ألفاً وخمسمائة ذهباً اهـ، وذكر في الكتاب المذكور أن السلطان أبي الحسن أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك منها لصاحب الأندلس صلة وصدقة وهدية في مرات، ومنها لملوك النصارى بعد هداياهم، ومنها لسلطان السودان كصاحب مالي، ومنها لصاحب إفريقيا ومنها لصاحب تلمسان اهـ، وقال العلامة المقرizi مؤرخ مصر في «كتاب السلوك» ما نصه:

«وفي ثاني وعشرين من رمضان ستة ثمان وثلاثين وسبعمائة قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس تزيد الحج ومعها هدية جليلة إلى الغاية نزل لحملها من الأسطول السلطاني ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال وكان من جملتها أربعين ألفاً منها مائة حجرة ومائة فحل وبمائة بغل وجميعها بسروج ولجم مسقفة بالذهب والفضة وبعضها سروجها وركبها ذهب وكذلك لجملها وعدتها اثنان وأربعون رأساً منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر وفيها اثنان وثلاثون بازاً وفيها سيف قرابه ذهب مرصع وحياصة ذهب مرصع وفيها مائة كساء وغير ذلك من القماش العالي، وكان قد خرج المهمنadar إلى لقائهم وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح وهو جمع كثير جداً وكان يوم طلوع الهدية من الأيام المذكورة ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مرتباتهم حتى نفت كلها سوى الجوهر واللؤلؤ فإنه اختص به، فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار، ثم نقلت الحرة إلى الميدان بمن معها ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والجلوء والفاكة في كل يوم بكرة وعشية ما عهم وفضل عنهم، فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم ونصف إربب أرضاً وقططار حب رمان وربع قطار سكرأ وثمان فانوسيات شمعاً وتوايل الطعام، وحمل إليها برسم النفقه مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يجل قدره وقيل أنها أن تملي ما تحتاج إليه ولا يعوزها شيء وإنما تزيد عناية السلطان إكرامها وإكرام من معها حيث كانوا، فتقدم السلطان إلى النشو وإلى الأمير أحمد إن بغى بتجهيزها الالات بها فقام بذلك واستخدما لها السقائين والضوئية وهي كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلوات والسكر والدقائق والبجمات وطلبا الحمالة لحمل جهازها وأزوادتها وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي العجيبة وأمره أن يرحل بها في مركب لها

بمفردها قدام المحمل ويمثل كلما تأمر به وكتب لأميري مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة اهـ وفيه بعض مخالفة لما وصفه ابن مزوف في الهدية والخطب سهلـ.

ثم انتسخ السلطان أبو الحسن رحمة الله نسخة أخرى من المصاحف الكريـم على القانون الأول ووقفها على القراء بالمدينة ويعـث بها من تخـيره لذلك العهد من أهل دولته سنة أربعين وسبعين وفـعل مثل ذلك بـحرم بـيت المقدس، قال العـلامـةـ أبو العباس المـقـريـ فيـ فـتحـ الطـيـبـ: «كانـ السـلـطـانـ أبوـ الحـسـنـ المـرـيـنـيـ قدـ كـتـبـ ثـلـاثـةـ مـصـاحـفـ شـرـيفـةـ بـخـطـهـ وأـرـسـلـهـ إـلـىـ الـمـسـاجـدـ الـثـلـاثـةـ الـتـيـ تـشـدـ إـلـيـهـ الرـحـالـ، وـوـقـفـ عـلـيـهـ أـوـقـافـ جـلـيلـةـ كـتـبـ سـلـطـانـ مـصـرـ وـالـشـامـ توـقـيـعـهـ بـمـسـامـحـتـهاـ مـنـ إـنـشـاءـ الـأـدـيـبـ الشـهـيـرـ جـمـالـ الدـيـنـ بـنـ نـبـاتـةـ الـمـصـرـيـ، وـنـصـ ماـ يـتـعـلـقـ بـهـ الغـرـضـ مـنـ هـنـاـ قـوـلـهـ:

«وـهـوـ الـذـيـ مـدـ يـمـيـنـهـ بـالـسـيـفـ وـالـقـلـمـ فـكـتـبـ فـيـ أـصـحـابـهـ وـسـطـرـ الـخـتـمـاتـ الـشـرـيفـةـ فـأـيـدـ اللـهـ حـزـبـهـ بـمـاـ سـطـرـهـ مـنـ أـحـزـابـهـ، وـاتـصـلـتـ مـلـائـكـةـ النـصـرـ بـلـوـائـهـ تـغـدوـ وـتـرـوـحـ، وـكـثـرـ فـتوـحـهـ لـأـمـلـيـاءـ الـغـرـبـ فـقـالتـ أـوـقـافـ الـشـرـقـ: لـاـ بـدـ لـلـفـقـرـاءـ مـنـ فـتـوحـ، ثـمـ وـصـلـتـ خـتـمـاتـ شـرـيفـةـ كـتـبـهاـ بـقـلـمـهـ الـمـجـيدـ الـمـجـدـيـ وـخـطـ سـطـورـهـ بـالـعـرـبـيـ وـطـالـمـاـ خـطـ فـيـ صـفـوـفـ الـأـعـدـاءـ بـالـهـنـدـيـ، وـرـتـبـ عـلـيـهـ أـوـقـافـأـ تـجـرـيـ أـقـلـامـ الـحـسـابـ فـيـ إـطـلـاقـهـ وـطـلـقـهـ وـجـبـسـ أـمـلـاكـ شـامـيـةـ تـحدـثـ بـنـعـمـ الـأـمـلـاكـ الـتـيـ سـرـتـ مـنـ مـغـرـبـ الـأـرـضـ إـلـىـ مـشـرـقـهـ، وـالـلـهـ تـعـالـىـ يـمـتـعـ مـنـ وـقـفـ هـذـهـ الـخـتـمـاتـ بـمـاـ سـطـرـ لـهـ فـيـ أـكـرمـ الصـحـافـ، وـيـنـفعـ الـجـالـسـ مـنـ وـلـةـ الـأـمـورـ فـيـ تـقـرـيرـهـ وـيـتـقـبـلـ مـنـ الـوـاقـفـ»ـ اـهـ، قـالـ المـقـريـ: وـقـدـ رـأـيـتـ أـحـدـ الـمـصـاحـفـ الـمـذـكـورـةـ وـهـوـ الـذـيـ بـبـيـتـ الـمـقـدـسـ وـرـيـعـتـهـ فـيـ غـاـيـةـ الـصـنـعـةـ اـهـ وـالـلـهـ تـعـالـىـ أـعـلـمـ.

وـاتـصـلـتـ الـوـلـاـيـةـ بـيـنـ السـلـطـانـ أـبـيـ الـحـسـنـ وـبـيـنـ الـمـلـكـ الـناـصـرـ إـلـىـ أـنـ هـلـكـ سـنـةـ إـحـدـيـ وـأـرـبعـينـ وـسـبـعـمـائـةـ وـولـيـ أـبـرـ مـصـرـ مـنـ بـعـدـ اـبـنـهـ أـبـوـ الـفـداءـ إـسـمـاعـيـلـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ قـلـاـوـونـ فـخـاطـبـهـ السـلـطـانـ أـبـوـ الـحـسـنـ أـيـضاـ عـلـىـ مـاـ نـذـكـرـهـ بـعـدـ إـنـ شـاءـ اللـهــ.

نكتة الأمير أبي عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبي الحسن وفرار وزيره زيان بن عمر الوطاسي والسبب في ذلك

كان السلطان أبو الحسن رحمة الله عندما نهض إلى تلمسان أولاً وثانياً ينتظر قدوم صهره السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي عليه لما كان انعقد بينه وبين أبيه أبي سعيد رحمة الله من الاجتماع على تلمسان والتعاون على حصارها، ولما فتح أبو الحسن تلمسان في التاريخ المتقدم كان وزير الحفصيين الشيخ أبو محمد بن تافراجين شاهداً لذلك الفتح قدم رسولًا من عند مخدومه السلطان أبي بكر المذكور، فأسر إلى السلطان أبي الحسن بأن مخدومه قادم عليه للقاء وتهنته بالظفر بعده فتشوف السلطان أبو الحسن إليها لما كان يحب الفخر ويعنى به، وارتحل عن تلمسان سنة ثمان وثلاثين وبسيعمائة وعسکر بمتيجة متطرأً لوفادة صهره عليه فتكاسل الحفصي عن القدوم بسبب تبیط محمد بن الحکیم من رجال دولته إیاہ عن ذلك وقال له: «إن لقاء سلطانين لا يتفق إلا في يوم على أحدهما» فکره الحفصي ذلك وتقادع عنه وطال مقام السلطان أبي الحسن في انتظاره ثم طرقه بفساطه مرض ألمه الفراش حتى تجده أهل العسکر بمهلكه.

وكان ابنه الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك متناغبين في ولایة عهد منذ أيام جدهما أبي سعيد وكان أبوهما قد جعل لهما لأول دولته ألقاب الإمارة وأحوالها من اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين وإثبات العطاء واستلحاق الفرسان، وإنفراد كل بعسکره على حدة وجعل لهما مع ذلك الجلوس بمقعد فصله مناوية لتنفيذ الأوامر السلطانية فكانا لذلك رديفين له في سلطانه، ولما اشتد وجع السلطان في هذه المرة تمشت سماسته الفتنه بينهما وتحزب أهل العسکر لهما حزبين وشوشاوا بواطنهما، فبث كل واحد منها المال وحمل على المقربات وصار الجيش شيئاً، وهم الأمير أبو عبد الرحمن بالتوثب على الأمر قبل أن يتبيّن حال السلطان بإغراء

وزرائه وبطانته بذلك. وتفطن خاصة السلطان لما وقع فأخبروه الخبر وحضوره على الخروج إلى الناس قبل أن يتفاقم الأمر ويتسع الخرق، فبرز السلطان إلى فسطاط جلوسه وتسامع أهل المعسكر به فازدحموا إلى بساطة وتقبيل يده، وتقبض على أهل الظنة من الجيش فأودعهم السجن وسخط على الأميرين وأمر برحلين من كان معهما من الجندي فردهم إلى معسكره، ثم رجع إلى فسطاطه وطفئت نار الفتنة وسكن سعي المفسدين وانتبذ الناس عن الأميرين المذكورين فبقيا أوحش من وتد بقاع، فاشتد جزع الأمير أبي عبد الرحمن وركب من فسطاطه وخاض الليل فأصبح بحلة أولاد على أمراءبني زغبة من هلال الموطين بأرض حمزة فتقبض عليه أميرهم موسى بن أبي الفضل ورده إلى أبيه فاعتقله بوجدة ورتب العيون لحراسته ولحق وزيره زيان بن عمر الوطاسي بالموحدين أصحاب تونس فأغاروه، ورضي السلطان صبيحة فرار أبي عبد الرحمن عن أخيه أبي مالك وعقد له على ثغور عمله بالأندلس وصرفه إليها وانكفاً راجعاً إلى تلمسان والله أعلم.

ثورة ابن هيدور الجزار وما كان من أمره

لما تقبض السلطان أبو الحسن على ابنه أبي عبد الرحمن وأودعه السجن تفرق خدمه وحشمه في الجهات، وكان منهم رجل جزار مرتب في مطبخه، يعرف بابن هيدور وكان له شبه في الصورة بأبي عبد الرحمن فلحق ببني عامر بن زغبة وكانوا لذلك العهد منحرفين عن طاعة السلطان أبي الحسن لاختصاصه عريف بن يحيى أميربني سويد أعدائهم، فلما لحق بهم ابن هيدور هذا انتسب لهم إلى السلطان أبي الحسن وأنه ابنه أبو عبد الرحمن فشبه لهم وبايعوه وأجلبوا به على نواحي لمدية فبرز إليهم قائدتها فهزمه، ثم جمع لهم ونزمار بن عريف بن يحيى فهزمهم وافترق جمعهم ونبذوا للجزار عهده، فلحق ببني يزناتن من زواوة فنزل على شيختهم شمسي منبني

عبد الصمد منهم، وكانت هذه المرأة قد ملكتهم وغابت عليهم بقومها ورجالها وكان لها بنون عشرة فاستفحل أمرها بهم ولما نزل عليها الجزار المذكور وانتسب لها إلى السلطان أبي الحسن قامت بأمره وشمرت عزائمها لاجارته وحملت قومها على طاعته وشاع في الناس خبره فمن مصدق ومن مكذب وسرب السلطان أبو الحسن الأموال في قومها وبينها على إسلامه إليه فأبانت ثم نمى إليها الخبر بكذبه وتمويهه فنبذت إليه عهده وخرج عنها إلى بلاد العرب فلحق بالذواودة أمراء رياح من بني هلال ونزل على سيدهم يعقوب بن علي وانتسب له في مثل ذلك فأجاروه إن صدق نسبة وأوعز السلطان أبو الحسن إلى صهره أبي بكر الحفصي في شأن الجزار فبعث الحفصي إلى يعقوب بن علي في ذلك، فأشخصه إلى السلطان أبي الحسن مع بعض حاشيته، فلحق به بمكانه بسببة يريد الجهاد فامتحنه وقطعه من خلاف وانحسم داؤه وبقي المغرب تحت جراية من الدولة إلى أن هلك في بعض السنين، وأما الأمير أبو عبد الرحمن فإنه لما سجن بوجدة بقي هنالك إلى سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فوثب ذات يوم بالسجان فقتله واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فأنفذ حاجبه علان بن محمد فقضى عليه رحم الله الجميع.

أخبار السلطان أبي الحسن في الجهاد وما كان من وقعة طريف التي محن الله فيها المسلمين وغير ذلك

لما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه وعلت على الأيدي يده وانفسح نطاق ملكه دعته همه إلى الجهاد وكان كلفاً به فأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك أمير الثغور الأندلسية سنة أربعين وسبعمائة بالدخول إلى دار الحرب وجهز إليه العساكر من حضرته وأنفذ إليه الوزراء، فشخص أبو مالك غازياً وتوغل في بلاد النصرانية واكتسحها وخرج بالسيسي والغنائم إلى أدنى صدر من أرضهم، وأناخ بها فاتصل به الخبر أن النصارى قد جمعوا له وأنهم

أعدوا السير في اتباعه فأشار عليه الملاً بالخروج من أرضهم وعبور الوادي الذي كان تخماً بين أرض المسلمين ودار الحرب ويتحيز إلى مدن المسلمين فيمتسع بها فلنج في إبادته وصمم على التعرس وكان قرماً ثبتاً إلا أنه غير بصير بالحرب لصغر سنه، فصيبحتهم عساكر النصرانية في مطراجعهم قبل أن يركبوا وحالطوهم في بياراتهم وأدركوا الأمير أبي مالك بالأرض قبل أن يستوي على فرسه فجذلوه^(١) واستلهموا الكثير من قومه واحتروا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ورجعوا على أعقابهم، واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فتفجع لهلاك ابنه واسترح له واحتسب عند الله أجره، ثم أندذ وزراءه إلى سواحل المغرب لتجهيز الأساطيل وفتح ديوان العطاء وعرض الجنود وأزاح عليهم واستنفر أهل المغرب كافة، ثم ارتحل إلى سبعة ليياشر أحوال الجهاد وتسامعت به أمم النصرانية فاستعدوا للدفاع وأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق ليمنع السلطان من الإجازة واستحدث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي المغرب، وبعث إلى أصحابه الحفصيين بتجهيز أسطولهم إليه فعقدوا عليه لزيد بن فردون قائد أسطول بجایة ووافي سبعة في ستة عشر أسطولاً من أساطيل إفريقية كان فيها من طرابلس وقباس وجربة وتونس وبونة وبجاية وتوافت أساطيل المغاربة بمرسى سبعة تناهز المائة، وعقد السلطان عليها لمحمد بن علي العزفي الذي كان صاحب سبعة يوم فتحها أيام السلطان أبي سعيد وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق وقد تكامل عديدهم وعدتهم، فاستلأموا وتظاهرموا في السلاح وزحفوا إلى أسطول النصارى وتوافقوا مليأً ثم قربوا الأساطيل بعضها من بعض وقرنوها للمصاف، فلم يمض إلا كلاً ولا حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين

(١) وحملت جثته إلى شالة وأقرب بها وقد وقف القنصل الفرنسي شيني Chénier على رحامة ضريحه انظر تأليفه المسمى أبحاث في تاريخ المغاربة ج 3 ص 287 فقد استقصى ذلك واستدل عليه بالأثر الذي عثر عليه بنفسه.

بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلهموهم هبراً بالسيوف وطعنًا بالرماح وألقوا أسلاءهم في اليم وقتلو قائدتهم الملند، واستاقوا أساطيلهم مجنبة إلى مرسى سبعة فبرز الناس لمشاهدتها وظيف بكثير من رؤوسهم في جوانب البلد ونظمت أصفاد الأسر، يدار الإنشاء، وعظم الفتح وجلس السلطان للتهنئة وأنشد الشعراء بين يديه وكان ذلك يوم السبت السادس شوال سنة أربعين وسبعينة فكان من أعز أيام الإسلام، ثم شرع السلطان أبو الحسن في إجازة العساكر من المتطوعة والمرتزقة، وانتظمت الأسطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة، ولما تكاملت العساكر بالعبور وكانت نحو ستين ألفاً أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعينة ونزل بساحة طريف وأناخ عليها ثالث محرم من السنة بعدها وشرع في منازلتها، ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن الأحمر في عسكر الأندلس من غزاةبني مرين وحامية الثغور ورجالة البدو، فعسکروا حذاء معسکره وأحاطوا بطريف نطاقاً واحداً وأنزلوا بها أنواع القتال ونصبوا عليها الآلات، وجهز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسکر، وطال مقام المسلمين بمكانتهم حول طريف ففتحت أزوادهم وقتلت العلوفات فوهن الظهر واختلت أحوالهم، ثم احتشد الطاغية أمم النصرانية وظاهره البرتقال صاحب أشبونة وغرب الأندلس وزحفوا إلى المسلمين لستة أشهر من نزولهم على طريف ولما قرب الطاغية من معسکر المسلمين سرب إلى طريف جيشاً من النصارى أكمنه بها إلى وقت الحاجة إليه فدخلوها ليلاً على حين غفلة من العسس الذين أرصدوا لهم وأحسوا بهم آخر الليل فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد فقتلوا منهم عدداً وقد نجا أكثرهم فلبسوا على السلطان أنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوطه، ثم زحف الطاغية من الغد في جموعه إلى المسلمين وعبا السلطان مواكبهم صفوفاً وتزاحفوا ولما نشب الحرب برب الجيش الكمين من البلد وهو الذي

دخل ليلاً وخالفوا المسلمين إلى معسكرهم وعمدوا إلى فسطاط السلطان فدافعهم عنه الناشبة الذين كانوا على حراسه فاستلهموهم لقتلهم، ثم دافعهم النساء عن أنفسهم فقتلوهن كذلك وخلصوا إلى حظاها السلطان منهن عائشة بنت عمها أبي بكر بن يعقوب بن عبد الحق وفاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي وغيرهما من حظاها فقتلوهن واستلبوهن ومثلوا بهن وانتهباوا سائر القسططاط وأضروا المعسكر ناراً ثم أحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان تأشفين ابن السلطان أبي الحسن صمم في طائفة من قومه وحاشيته حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به وتقبضوا عليه وعظم المصاب بأسره، وكان الخطب على الإسلام قلما فجع بمثله وذلك ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وولى السلطان أبو الحسن متوجزاً إلى فئة المسلمين واستشهد كثير من الغزاة وتقدم الطاغية حتى انتهى إلى فسطاط السلطان من المحلة فأنكر قتل النساء والولدان وكان ذلك منتهى أثره، ثم انكفا راجعاً إلى بلاده ولحق ابن الأحمر بغرنطة وخلص السلطان أبو الحسن إلى الجزيرة الخضراء ثم منها إلى جبل الفتح ثم ركب الأسطول إلى سبتة في ليلة غده ومحض الله المسلمين وأجزل ثوابهم.

استيلاء العدو على الجزيرة الخضراء

لما رجع الطاغية من طريق استأسد على المسلمين بالأندلس وطماع في التهامهم وجمع عساكر النصرانية ونالوا قلعةبني سعيد ثغر غرناطة وعلى مرحلة منها، وجمع الآلات والأيدي على حصارها وأخذ بمخنقة فأصحابهم الجهد من العطش فنزلوا على حكمتهم سنة اثنين وأربعين وسبعمائة، وأدال الله الطيب منها بالخيث وانصرف الطاغية إلى بلاده، وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعود إلى الجهاد لرجع الكرة فأرسل في المداين حاشرين وأخرج قواه إلى سواحل المغرب لتجهيز الأساطيل فتكامل

لَهُ مِنْهَا عَدْدٌ مُعْتَدِلٌ، ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى سَبَّةَ لِمَشَارِفِ ثُغُورِ الْأَنْدَلُسِ وَقَدِمَ عَسَاكِرُهُ إِلَيْهَا مَعَ وزِيرِهِ عَسَكِرُ بْنِ تَاحْضِرِيتِ وَعَقَدَ عَلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ لِمَحْمُودِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ تَاحْضِرِيتِ مِنْ قِرَابَةِ الْوَزِيرِ وَبَعْثَتْ إِلَيْهَا مَدَدًا مِنَ الْعَسَاكِرِ مَعَ مُوسَى بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْبِرِينَانِيِّ مِنَ الْمُرْشِحِينَ لِلْوَزَارَةِ نِيَّابَةً، وَبِلْغَ الطَّاغِيَّةِ خَبْرَهُ فَجَهَزَ أَسْطُولَهُ وَأَجْرَاهُ إِلَى بَحْرِ الزَّقَاقِ لِمَدَافِعِهِ وَتَلَاقَتِ الْأَسَاطِيلُ وَمَحْصُ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَشْهَدَ مِنْهُمْ أَعْدَادٌ وَتَغلَّبَ أَسْطُولُ الطَّاغِيَّةِ عَلَى بَحْرِ الزَّقَاقِ فَمَلَكَهُ دُونُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَقْبَلَ الطَّاغِيَّةُ مِنْ إِشْبِيلِيَّةِ فِي عَسَاكِرِ النَّصْرَانِيَّةِ حَتَّى أَنْأَخَ بَهَا عَلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ مِنْفَأًا أَسَاطِيلَ الْمُسْلِمِينَ وَفِرَضَهُ الْمَجَازَ وَرَجَأَ أَنْ يَنْظِمَهَا فِي مَمْلَكتِهِ مَعَ جَارِتِهِ طَرِيفَ وَحَسْرَ الْفَعْلَةِ وَالصَّنَاعَ لِلَّالَّاتِ وَجَمْعَ الْأَيْدِي عَلَيْهَا وَطَاولَهَا الْحَصَارُ وَاتَّخَذَ أَهْلَ الْمَعْسَكِرِ بَيْوتًا مِنَ الْخَشْبِ لِلْمَطَاوِلَةِ، وَجَاءَ السُّلْطَانُ أَبُو الْحَجَاجَ بْنُ الْأَحْمَرِ بِعَسَاكِرِ الْأَنْدَلُسِ فَنَزَلَ قَبْلَةَ الطَّاغِيَّةِ بِظَاهِرِ جَبَلِ الْفَتْحِ فِي سَبِيلِ الْمَمَانَعَةِ زَأْقَامَ السُّلْطَانُ أَبُو الْحَسَنِ بِمَكَانِهِ مِنْ سَبَّةَ يَسْرُبُ إِلَى أَهْلِ الْجَزِيرَةِ الْمَدَدُ مِنَ الْفَرَسَانِ وَالْمَالِ وَالْقُوَّتِ فِي أَوْقَاتِ الْغَفْلَةِ مِنْ أَسَاطِيلِ الْعُدُوِّ تَحْتَ جَنَاحِ الْلَّيلِ وَأَصَيبَ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ، وَلَمْ يَغُنِّ عَلَى أَهْلِ الْجَزِيرَةِ ذَلِكَ الْمَدَدُ شَيْئًا وَاشْتَدَ عَلَيْهِمُ الْحَصَارُ وَأَصَابَهُمُ الْجَهَدُ، وَأَجَازَ السُّلْطَانُ أَبُو الْحَجَاجَ إِلَى السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ يَفْاوِضُهُ فِي شَأْنِ السَّلْمِ مَعَ الطَّاغِيَّةِ بَعْدَ أَنْ أَذَنَ الطَّاغِيَّةُ لَهُ فِي الإِجازَةِ مَكْرَأً بِهِ وَأَصْدَرَ لَهُ بَعْضُ الْأَسَاطِيلِ فِي طَرِيقِهِ فَصَدَّقُوهُمُ الْمُسْلِمُونَ الْقَتَالَ وَخَلَصُوا إِلَى السَّاحِلِ بَعْدَ غَصْنِ الرِّيقِ، وَضَاقَتْ أَحْوَالُ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ وَمَنْ كَانَ بَهَا مِنْ عَسَاكِرِ السُّلْطَانِ فَسَأَلُوا الطَّاغِيَّةِ الْأَمَانَ عَلَى أَنْ يَنْزِلُوهُمْ مِنَ الْبَلَدِ فِي ذَلِكَ لَهُمْ وَخَرَجُوا فَوْفِي لَهُمْ وَأَجَازُوا إِلَى الْمَغْرِبِ سَنَةَ ثَلَاثَ وَأَرْبَعِينَ وَسِبْعِمِائَةِ، فَأَنْزَلُوهُمُ السُّلْطَانُ بِبَلَادِهِ عَلَى خَيْرِ نَزْلٍ وَلَقَاهُمْ مِنَ الْمَبْرَةِ وَالْكَرَامَةِ مَا عَوْضُهُمْ بِمَا فَاتَهُمْ وَخَلَعُ عَلَيْهِمْ وَحَمَلُهُمْ وَوَصَّلُهُمْ بِمَا تَحْدَثُ النَّاسُ بِهِ، وَتَقْبِضُ عَلَى وزِيرِهِ عَسَكِرِ بْنِ تَاحْضِرِيتِ عَقْوَبَةِ لَهُ عَلَى تَقْصِيرِهِ فِي الْمَدَافِعَةِ مَعَ تَمْكِينِهِ مِنْهَا، وَانْكَفَّ السُّلْطَانُ أَبُو الْحَسَنَ رَاجِعًا إِلَى حَضْرَتِهِ مُوقَنًا بِظَهُورِ أَمْرِ اللَّهِ وَإِنْجَازِ وَعْدِهِ وَاللَّهُ مَتْ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

بقية أخبار بنى أبي العلاء

قد تقدم لنا أن عثمان بن أبي العلاء كان يلي مشيخة الغزاة بالأندلس وأنه استشهد سنة ثلاثين وسبعين^(١) قام بأمره ابنه أبو ثابت فاستحوذ بعصبيته وقومه على بنى الأحمر، فقتلوا محمد بن إسماعيل منهم مرجعه من فتح جبل الفتح ونصبوا للأمر أخاه يوسف بن إسماعيل حسبما تقدم الإلماع بذلك، ثم إن السلطان أبي الحجاج هذا بقي بين جنبيه داء دخيل من بنى أبي العلاء الذين فتكوا بأخيه فلم يزل يسعى في أمرهم حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق، ثم غربهم إلى تونس فنزلوا على السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فكتب إليه باعتقالهم فعل، ثم بدا له فبعث إليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكرورن في إشخاصهم إلى حضرته فتوقف الحفصي عن ذلك وأبى من إخفار ذمته، فأشار عليه وزيره أبو محمد بن تافراجين ببعثهم إليه وأنه لا يريد بهم إلا الخير فبعثهم وبعث كتابه بالشفاعة فيهم فقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة اثنين وأربعين وسبعين فتلقاهم بالبر والكرامة إكراماً لشفيعهم وأنزلهم بمعسكره وحملهم على الخيول المسوقة بالمراكب الثقيلة وضرب لهم الفساطيط وأسنى لهم الخلع والجوانز وفرض لهم في أعلى رتب العطاء وصاروا في جملته، ولما احتل بسبعة لمنطقة أحوال الجزيرة الخضراء سعى عنده فيهم بأن كثيراً من المفسدين يدخلونهم في الخروج والتثبت على الأمر فتقبض عليهم وأودعهم السجن بمكناسة الزيتون، واستمروا هنالك إلى أن قام أبو عنان فأطلقهم واستعان بهم على أمره حسبما ذكره إن شاء الله.

(١) بل مات حتف نفسه.

مراسلة السلطان أبي الحسن لصاحب مصر أبي الفداء إسماعيل بن محمد بن قلاوون

قد تقدم لنا أن السلطان أبو الحسن راسل الملك الناصر صاحب مصر وهاده بما عظم وقوعه عند الخاصة وال العامة، واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين وسبعينة وولي الأمر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل، فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضاً وأنحفه وعزاه عن أبيه وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج أبي الفضل بن أبي عبد الله بن أبي مدين وفي صحبته الحرة أخت السلطان أبي الحسن فقضى من وفاته ما حمل، وأصحابه السلطان أبو الحسن كتاباً إلى الملك الصالح أبي الفداء وكان وصوله إلى مصر متتصف شعبان سنة خمس وأربعين وسبعينة.

ونص الكتاب بعد البسمة والصلوة على النبي ﷺ: «من عند أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله رب العالمين المنصور بفضل الله المتوكل عليه المعتمد في جميع أمره لديه سلطان البرين حامي العدوتين مؤثر المرابطة والمثاغرة موازراً حزب الإسلام حق المعاذرة ناصر الإسلام مظاهر دين الملك العلام ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين فخر السلاطين حامي حوزة الدين ملك البرين إمام العدوتين ممهد البلاد مبدد شمل الأعداء مجند الجنود المنصور الرایات والبنود محظ الرحال مبلغ الأمال أبي سعيد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين حسنة الأيام حسام الإسلام أبي الأملاء مشجي أهل العناد والإشراك مانع البلاد رافع علم الجهاد مدوح أقطار الكفار مصرخ من ناداه للانتصار القائم لله بإعلاء دين الحق أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أخلص الله لوجهه جهاده ويسر في قهر عداه الدين مراده إلى محل ولدنا الذي طلع في أفق العلا بدرأً تماً وصدع بأنواع الفخار فجلى ظلاماً وظلمأً وجمع شمل المملكة الناصرية فأعلى منها علماً وأحيى رسمأً حائط الحرمين القائم بحفظ القبلتين باسط الأمان قابض كف

العدوان الجزيel النوال الكفيل تأمينه بحياة النفوس والأموال قطب المجد وسماكه حسب الحمد وملاكه السلطان الجليل الرفيع الأصيل العاشر العادل الفاضل الكامل الشهير الخطير الأضخم المعان المؤزر المؤيد المظفر الملك الصالح أبي الوليد إسماعيل بن محل أخيها الشهير علاء المستطير في الآفاق ثناؤه زين الأيام والليالي كمال عين إنسان المجد وإنسان عين الكمال وارث الدول النافت بصريح رأيه في عقود أهل الملل والنحل حامي القبلتين بعدله وحسامه النامي في حفظ الحرمين أجر اضطلاعه بذلك وقيامه هازم أحزاب المعاندين وجيوشها هادم الكنائس والبيع فهي خاوية على عروشها السلطان الأجل الهمام الأحفل الأضخم الفاضل العادل الشهير الكبير الرفيع الخطير المجاهد المرابط المقتسط عده في الجائز والقاسط المؤيد المنعم المقدس المظہر زين السلاطين ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد بن الملك الأرضي الهمام الأمضى والد السلاطين الآخيار عاقد لواء النصر في قهر الأرمن والفرنج والتنار محيي رسوم الجهاد معلى كلمة الإسلام في البلاد جمال الأيام ثمال الأعلام فاتح الأقاليم صالح ملوك عصره المتقدام الإمام المؤيد المنصور المسدد قسيم أمير المؤمنين فيما تقلد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون مكن الله له تمكين أوليائه ونمى دولته التي أطعلها له السعد شمساً في سمائه وأحسن إيزاعه للشكر أن جعله وارث آبائه سلام كريم يفاوح زهر الربى مسراء وينافح نسميم الصبا مجرأه يصحبه رضوان يدوم ما دامت تقلل الفلك حركاته ويتولاه روح وريحان تحبيه به رحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله مالك الملك جاعل العاقبة للتقوى صدعاً بالبيقين ودفعاً للشك وخاذل من أسر النفاق في النجوى فاصل على الدخن والإفك والصلة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محبى بأنوار الهدى ظلم الشرك ونبيه الذي ختم به الأنبياء وهو واسطة ذلك السلك ودعا به حجة الحق فماتت بالكفرة محمولة الأفلاك وماجت بهم حاملة الفلك والرضا عن آله وصحابه الذين سلكوا سبيل هداه فسلك في قلوبهم أجمل السلك وملكوأ عنده هواهم فلزموا من محاجة الصواب أنجع السلك وصابروا في جهاد

الأعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهب يزيد خلوصاً على السبك والدعاء لأولياء الإسلام ورحماته الأعلام بنصر لمضائمه في العدى أعظم الفتوك ويسر بقضائه درك آمال الظهور وأحفل بذلك الدرك فكتبناه إليكم كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوع النعم من حضرتنا مدينة فاس المحروسة وصنع الله سبحانه يعرف مذاهب الأنطاف ويكيف مواهب تلهج الألسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف ويصرف من أمره العظيم وقضائه المتلقى بالتسليم ما يتكون بين النون والكاف ومكانكم العتيد سلطانه سلطانكم العجيد مكانه وولاؤكم الصحيح برهانه وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال ميدانه وإلى هذا زاد الله سلطانكم تمكيناً وأفاد مقامكم تحصيناً وتحسيناً وسلك بكم من سنن من خلفتموه سبيلاً مبيناً فلا خفاء بما كانت عقدته أيدي التقوى ومهدته الرسائل التي على الصفاء تطوى بيتنا وبين والدكم نعم الله روحه وقدسه وبقربه مع الأبرار في علينا أنسه من مؤاخة أحكمت منها العهود تالية الكتب والفاتحة وحفظ عليها محكم الإخلاص معوذاتها المحبة والنية الصالحة فانعقدت على التقوى والرضوان واعتضدت بتعارف الأرواح عند تنازع الأبدان حتى استحكمت وصلة الولاء والتآمت كلحمة النسب لحمة الإباء فما كان إلا وشيكأً من الزمان ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان ورد وارد أورد رنق المشارب وحقق قول «ومن يسأل الركبان عن كل غائب» أئباً باستشارة الله تعالى بنفسه الزكية وإن كان درته السنية وانقلابه إلى ما أعد له من المنازل الرضوانية بجليل ما وقر لفقده في الصدور وعظيم ما تأثرت له النفوس لوقعه ذلك المقدور حناناً للإسلام بتلك الأقطار وإشقاها من أن يعتور قاصدي بيت الله الحرام من جراء الفتنة عارض الإضرار ومساهمة في مصاب الملك الكريم والوصي الحميم ثم عميت الأخبار وطويت طي السجل الآثار فلم نر مخبراً صدقأً ولا معلماً بمن استقر له ذلکم الملك حقاً وفي أثناء ذلك حفزنا للحركة عن حضرتنا استصرخ أهل الأندلس وسلطانها وتواتر الأخبار بأن النصارى أجمعوا على خراب أوطنها ونحن أثناء ذلك الشأن نستخبر الوراد من تلکم البلدان عما أجيلى عنه ليل الفتنة بتلکم الأوطان فيبعد لأي

وَقَعْنَا مِنْهَا عَلَى الْخَبِيرِ وَجَاءُنَا بِوْقَايَةِ حَرَمِ اللَّهِ بَكُمُ الْبَشِيرِ وَتَعْرَفُنَا أَنَّ الْمَلِكَ اسْتَقَرَّ مِنْكُمْ فِي نَصَابِهِ وَتَدَارِكَهُ تَعَالَى مِنْكُمْ بِفَاتِحِ الْخَيْرِ مِنْ أَبْوَابِهِ فَأَطْفَأَهُ بَكُمْ نَارَ الْفَتْنَةِ وَأَخْمَدَهَا مِنْ أَدْوَاءِ النَّفَاقِ مَا أَعْلَمُ الْبَلَادِ وَأَفْسَدَهَا فَقَامَ سَبِيلُ الْحَجَّ سَابِلًا وَعَبَرَ طَرِيقَهُ لَمَنْ جَاءَ قَاصِدًا وَقَافِلًا وَلِمَا احْتَفَتْ بِهَذَا الْخَبِيرِ الْقَرَائِنِ وَتَوَاتَرَ بِنَقْلِ الْحَاضِرِ الْمَعَايِنِ أَثَارَ حَفْظِ الاعْتِقَادِ الْبَوَاعِثَ وَالْوَدِ الْصَّحِيحِ تَجْرِيهِ حَقًّا الْمَوَارِثَ فَأَصْدَرْنَا لَكُمْ هَذِهِ الْمُخَاطِبَةِ الْمُتَفَنِّنَةِ الْأَطْوَارِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ الْخَبِيرِ وَالْإِسْتِخْبَارِ الْمُلْبِسَةِ مِنَ الْعَزَاءِ وَالْهَنَاءِ ثُوبِيِّ الشَّعَارِ وَالدَّثارِ وَمِثْلُ ذَلِكَ: الْمَلِكُ رَضِوانُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ تَجْلِي الْمَصَابِ لِفَقْدَانِهِ وَتَحْلُلِ عَرَى الْأَصْطَبَارِ بِمَوْتِهِ وَلَاتِ حَيْنِ أَوَانِهِ وَلَكِنَّ الصَّبَرَ أَجْمَلُ مَا ارْتَدَاهُ ذُو عَقْلٍ حَصِينٍ وَالْأَجْرُ أُولَى مَا افْتَنَاهُ ذُو دِينِ مُتَّيِّنٍ وَمِثْلَكُمْ مَنْ لَا يَخْفِي وَقَارِهِ وَلَا يَشْفُ عنْ ظَهُورِ الْجَزَعِ الْحَادِثِ أَصْطَبَارِهِ وَمِنْ خَلْفِتُمُوهُ فَمَا مَاتَ ذَكْرُهُ وَمِنْ قَمْتُمْ بِأَمْرِهِ فَمَا زَالَ بِلَ زَادَ فَخْرُهُ وَقَدْ طَالَتْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعِيشَةُ الرَّاضِيَةُ بِالْحَقْبِ وَطَابَ بَيْنَ مَبَاهِهِ وَمَحْتَضُرِهِ هَنِيَّاً بِمَا مِنَ الْأَجْرِ اكْتَسَبَ وَصَارَ حَمِيدًا إِلَى خَيْرِ مُنْقَلِبٍ وَوَفَدَ مِنْ كَرَمِ اللَّهِ عَلَى أَفْضَلِ مَا مِنْحَ مُوقَنًا وَوَهَبَ فَقَدَ ارْتَضَاكُمُ اللَّهُ بَعْدَهُ لِحَيَاةِ أَرْضِهِ الْمَقْدَسَةِ وَحِمَايَةِ زُوَارِ بَيْتِهِ مُقْبِلَةً أَوْ مُعَرَّسَةً وَنَحْنُ بَعْدَ بَسْطِ هَذِهِ التَّعْزِيَةِ نَهَيْنِكُمْ بِمَا خَوْلُكُمُ اللَّهُ أَجْمَلُ التَّهْنِيَةِ وَفِي ذَاتِ اللَّهِ الْإِبْرَادِ وَالْإِصْدَارِ وَفِي مَرْضَاتِهِ سَبِحَانَهُ الْأَضْمَارُ وَالْإِظْهَارُ فَاسْتَقْبِلُوا دُولَةَ أَلْقَى الْعَزِّ عَلَيْهَا رَوَاقَهُ وَعَقْدَ الظَّهُورِ عَلَيْهَا نَطَاقَهُ وَأَعْطَاهُ أَمَانَ الزَّمَانِ عَقْدَهُ وَمِثْلَقَهُ وَنَحْنُ عَلَى مَا عَاهَدْنَا عَلَيْهِ الْمَلِكَ النَّاصِرِ رَضِوانُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ عَهْدِ مُؤْتَقَةٍ وَمُوَالَةِ مُحَقَّقَةٍ وَثَنَاءِ كَمَانِمَهُ عَنْ أَذْكَى مِنَ الزَّهْرِ غَبَ القَطْرِ مُفْتَقَهُ وَلَمْ يَغْبِ عَنْكُمْ مَا كَانَ مِنْ بَعْثَنَا الْمُصَحَّفِينَ الْأَكْرَمِينَ الَّذِينَ خَطَّتْهُمَا مِنْ أَيْمَنِيْنَ وَأَوْتَ بِهِمَا الرُّغْبَةَ مِنَ الْحَرَمِينِ الشَّرِيفِيْنِ إِلَى قَرَارِ مَكْبِينَ وَإِنَّهُ كَانَ لِوَالَّدِكُمُ الْمَلِكِ النَّاصِرِ تَوْلَاهُ اللَّهُ بِرِضْوَنَهُ وَأَوْرَدَهُ مَوَارِدَ إِحْسَانِهِ فِي ذَلِكَمْ مِنَ الْفَعْلِ الْجَمِيلِ وَالصَّنْعِ الْجَلِيلِ مَا نَاسَبَ مَكَانَهُ الرَّفِيعِ وَشَاكِلَ فَضْلَهُ مِنَ الْبَرِّ الَّذِي لَا يَضِيَعُ حَتَّى طَبَقَ فَعْلَهُ الْآفَاقَ ذَكْرًا وَطَوْقَ أَعْنَاقِ الْوَرَادِ وَالْقَصَادِ بِرًا وَكَانَ مِنْ أَجْمَلِ مَا بِهِ تَحْفَى وَأَتَحْفَ وَأَعْظَمَ مَا بِعْرَفَهُ إِلَى الْمَلِكِ الْعَلَامِ فِي ذَلِكَ تَعْرُفُ إِذْنَهُ

للمتوجهين إذا ذاك في شراء ريع توقف على المصحفيين ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدين فجرت أحوال القراء فيها بذلك الخراج المستفاد ريشما يصلهم من خراج ما وقناه عليهم بهذه البلاد على ما رسمه رحمة الله عليه من عنابة بهم متصلة واحترام في تلك الأوقاف فوائدها به متوفرة متحصلة وقد أمرنا مؤدي هذا لكمالكم وموفده على جلالكم كاتبنا الأستاذ الفقيه الأجل الأحظى الأكمل أبا المجد ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الأجل الحاج الأنقى الأرضي الأفضل الأحظى الأكمل المرحوم أبي عبد الله بن أبي مدین حفظ الله عليه رتبته ويسر في قصد البيت الحرام بغية بأن يتفقد أحوال تلك الأوقاف ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف وأن يتخير لها من يرتضي لذلك ويحمد تصرفه فيما هنالك وخطبنا سلطانكم في هذا الشأن جرياً على الود الثابت الأركان وإعلاماً بما لوالدكم رحمة الله تعالى في ذلك من الأفعال الحسان وكمالكم يقتضي تحليذ ذلك البر الجميل وتتجدد عمل ذلك الملك الجليل وتشيد ما اشتمل عليه من الشراء الأصيل والأجر الجزييل والتقدم بالإذن السلطاني في إعانته هذا الوارد بهذا الكتاب على ما يتواهه في ذلك الشأن من طرق الصواب وثناونا عليكم الثناء الذي يفاوح زهر الربا وبطارح نغم حمام الأيك مطرباً وبحسب المصافحة ومقتضى المواراة نشرح لكم المتزايدات بهذه الجهات ونبثكم بموجب إبطاء إنفاذ هذا الخطاب على ذلك الجناب وذلك أنه لما وصلنا من الأندلس الصريح ونادى من للجهاد عزماً لمثل ندائها يصبح أنفسنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب وفرض عليهم ببابهم اللعين التناصر من كل أوب وأن تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بإيجافها وتتفقص بالمنازلة أرضها من أطرافها ليمحو كلمة الإسلام منها ويقلصوا ظل الإيمان عنها فقدمتنا من يشتعل بالأساطيل من القواد وسرنا على أثرهم إلى سبة منتهى الغرب الأقصى وباب الجهاد فما وصلناها إلا وقد أخذ أخذه العدو الكافور وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور وأتوا من أجهانهم بما لا يحصى عدداً وأرصدوها بمجمع البحرين حيث المجاز إلى دفع العدا وتقلصوا عن

الانبساط في البلاد واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل من جمعوه من الأعداء لكننا مع انسداد تلك السبيل وعدم أمرور نستعين بها في ذلك العمل الجليل حاولنا إمداد تلكم البلاد بحسب الجهود وأصرخناهم بما يمكن من الجندي وجهزنا أجهزانا مختلسين فرصة الإجازة تردد على خطير بمن جهز للجهاد جهازه وأمرنا لصاحب الأندلس من المال بما يجهز به حركته لمدانته محلة حزب الضلال وأجرينا له ولجيشه العظاء الجزل مشاهرة وأرضخنا لهم من التوالي ما نرجو به ثواب الآخرة وجعلت أجهزانا تردد في مينا السواحل وتلنج أبواب الخوف العاجل لإحراز الأمان الآجل مشحونة بالعدد الموفورة والأبطال المشهورة والخيل المسومة والأقوات المقومة فمن ناج حارب دونه الآجل وشهيد مضى لما عند الله عز وجل وما زالت الأجهزة تتردد على ذلك الخطير حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية أجرها عند الله يدخل ثم لم نقنع بهذا العمل في الإمداد فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله مساهمة به لأهل تلك البلاد فلقي من هول البحر وارتاجاه والحاج العدو ولتجاهه ما به الأمثال تضرب ويمثله يتحدى ويستغرب ولما خلص لتلك العدوة بمن أبنته الشدائدين نزل بيازاء الكافر الجاحد حتى كان منه بفرسخين أو أدنى وقد ضرب بعطن يصايع العدو ويماسيه بحرب بها يملي وقد كان من مدتنا بالجزيرة جيش شرقي شرارةه وقويت في الحرب بإدارته يبلون البلاء الأصدق ولا يبلون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الأورق إلا أن المطاولة بمحاصارها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ومنازلتها في البر نحو عامين معقوداً عليها الصف بالصف أدى إلى فناء الأقوات في البلد حتى لم يبق لأهليه قوت شهر مع انقطاع المدد وبه من الخلق ما يربى على عشرة آلاف دون الحرم والولد فكتب إلينا سلطان الأندلس يرغب في الإذن له في عقد الصلح ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجاح فأذنا له فيه الإذن العام إذ في إصراره وإصراره من بقطره من المسلمين توخيها ذلك المرام هنالك دعى النصارى إلى السلم فاستجابوا وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا فتم الصلح إلى عشر سنين وخرج من بها من فربان

ورجال وأهل وبنين ولا رزقنا مالاً ولا عدة ولا لقوا في خروجهم غير التزوح عن أول أرض من الجلد ترابها شدة ووصلوا إلينا فأجزلنا لهم العطاء وأسليناهم بما جرى بالعباء فمن خيل تزيد على الألف عتاقها وخلع تربى على عشرة آلاف أطواقها وأموال عمت الغني والفقير ورعاية شملت الجميع بالعيش التضير وكف الله ضر الطواغيت عما عدتها وما انقلبوا بغير مدرة عفا رسمها وصم صداتها وقد كان من لطف الله حين قضى بأخذ هذا الشغر أن قدر لنا فتح جبل طارق من أيدي الكفر وهو المطل على هذه المدرة والفرصة منه إن شاء الله تعالى متيسرة حتى يفرق عقد الكفار ويخرج بهذه الجهة منهم مجاورو هذه الأقطار فلولا إجلابهم من كل جانب وكونهم سدوا مسلك العبور بما لجميعهم من الأجناف والمراكب لما باليمن بأصفاقهم ولحلتنا بعون الله عقد اتفاقهم ولكن للموانع أحکام ولا راد لما جرت به الأقلام وقد أمرنا لذلك الشغر بمزيد المدد وتخيرنا له ولسائر تلك البلاد العدد والعدد وعدنا لحضرتنا فاس لتسريح الجيوش من وعثاء السفر وترتبط الجياد ونتخب العدد لوقت الظهور المنتظر ونكون على أهبة الجهاد وعلى مرقبة الفرصة عند تمكناها في الأعداء وعند عودنا من تلك المحاولة نيسر الركب الحجازي موجهاً إلى هناكم رواحله فأصدرنا إليكم هذا الخطاب بإصدار الود الخالص والحب للباب وعندنا لكم ما عند أخنى الآباء واعتقادنا فيكم في ذات الله لا يخشى جديده من البلاء ومالكم من غرض بهذه الأنجاء موفي قصده على أكمل الأهواء موالي تتميمه على أجمل الآراء والبلاد باتحاد الود متحدة والقلوب والأيدي على ما فيه مرضاعة الله عز وجل منعقدة جعل الله ذلكم خالصاً لرب العباد مدحوراً ليوم التناد مسطوراً في الأعمال الصالحة يوم المعاد بمنته وفضله هو سبحانه يصل إليكم سعداً تتفاخر به سعود الكواكب وتتضاير على الانقياد له صدور المواكب وتتقاصر عن نيل مجده متطاولات المناكب والسلام الأثم يخصكم كثيراً أثيراً ورحمة الله وبركاته وكتب في يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين وسبعمائة وصورة العلامة وكتب في التاريخ المؤرخ.

قال ابن خلدون: «فقضى أبو الفضل بن أبي عبد الله بن أبي مدين من وفاته ما حمل وكان شأنه عجباً في إظهار أبهة سلطانه والإإنفاق على المستضعفين من الحاج في طريقه وإتحاف رجال الدولة التركية بذات يده والتعفف عما في أيديهم رحمة الله» وقال العلامة المقرizi: «وفي منتصف شعبان من سنة خمس وأربعين وسبعمائة قدمت الحرة أخت صاحب المغرب في جماعة كثيرة وعلى يدها كتاب السلطان أبي الحسن يتضمن السلام وأن يدعوه الخطباء في يوم الجمعة ومشايخ الصلاح وأهل الخير بالنصر على عدوهم ويكتب إلى أهل الحرمين بذلك» اه ولعل هذا الكتاب آخر غير الذي سردناه يتضمن ما ذكره والله أعلم.

ونسخة الجواب عن الكتاب الذي سردناه من إنشاء خليل الصفدي شارح لامية العجم: بعد البسمة في قطع النصف بقلم الثالث: «عبد الله ووليه» صورة العلامة، ولده إسماعيل بن محمد السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المنصور، عماد الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين محبي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين وارت الملك ملك العرب والعجم والترك فاتح الأقطار واهب الممالك والأقصار، إسكندر الزمان مملك أصحاب المنابر والأسرة والتختوت والتيجان ظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه مالك البحرين، خادم الحرمين الشريفين، سيد الملوك والسلطانين جامع كلمة الموحدين، ولـي أمير المؤمنين أبو الفداء إسماعيل بن السلطان الشهيد السعيد الملك الناصر ناصر الدنيا والدين قلاوون خلد الله تعالى سلطانه وجعل الملائكة أنصاره وأعوانه يخص المقام العالي الملك الأجل الكبير المجاهد المؤيد المرابط المثاغر المعظم المكرم المظفر المعمر الأسعد الأصعد الأوحد الأمجاد السنوي السوري المنصور أبو الحسن علي بن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أمده الله بالظفر وقرن عزمه بالتأييد في الأصال والبكر سلام وشت البروق وشائعه وادخرت الكواكب وداعنه

واستو عب الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه وثناء اتخد النفحات المسكية
طلائعه ونبه بالتغريد في الروض سوا جمه وجلى في كأسه من الشفق الممحمر
مدامه ومن النجوم فواقعه «أما بعد» حمد الله على نعم أدت لنا الأمانة في عود
سلطنة والدنا الموروثة وأجلستنا على سرير مملكة زرايها بين النجوم مبثوثة،
وأحسنت بنا الخلف عن سلف عهده في الأعناق غير منكورة ولا منكوتة،
وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه الذين بلغ بجهادهم
في الكفرة غاية أمله وسؤاله صلاة تحط بالرضوان سيلها وتجر بالغفران ذيلها
ما تراسل أصحاب وتواصل أحباب فيوضح للعلم الظاهر ورود كتابكم العظيم
وخطابكم الفائق على الدر النظيم تفاخر الخمائل سطوره، ويصبح خد الورد
بالخجل منتشره ويبحكي الرياض اليانعة فالآلفات غصونه والهمزات عليها
طيوره ويخلع على الآفاق حلل الأيام والليالي فالطرس صباحه والنفس ديجوره
لفظه يطرب ومعناه يعرب فيغرب وبلاعنه تدل على أنه آية لأن شمس بيانها
طلعت من المغرب فاتخذنا سطوره ريحاناً ورجعنا الفاظه أحاناً ورجعنا إلى
الجد فشبهنا ألفاته بظلال الرماح وورقه بصفال الصفاح وحروفه المفرقة بأفواه
الجرح وسطوره المنتظمة بالفرسان المزدحمة يوم الكفاح وانتهينا إلى ما
أودعتموه من اللفظ المسجوع والمعنى الذي يطرب طائره المسموع والبلاغة
التي فضح التطبيع بيانها المطبوع فاما العزاء بأخيكم الوالد قدس الله روحه
وسقى عهده وأحسن لسلفه خلفاً بعده فلنبرسول الله أسوة حسنة ولو لا
الوثوق بأنه في عدة الشهداء ما رام القلب قراره ولا الطرف وسن عاش سعيداً
يملك الأرض ومات شهيداً يفوز بالجنة يوم العرض قد خلد الله ذكره يسير
مسير الشمس في الآفاق ويوقف عند نضارة خدائنه الأدحاق وورثنا منه حسن
الأخاء لكم والوفاء بعهود مودة تشبه في اللطف شمائلكم - وأما الهباء بوراثة
ملكه والانحراف مع الملوك في سلكه فقد شكرنا لكم منحى هذه المنحة
وقابلناها بشناء يعطر النسيم في كل نفحه ووقفنا عليها حمداً جعل الود علينا
إيراده وعلى أنفاس سرحة الروض شرحه وتحققتنا به حسن ودكم الجميل
وكرم إخائكم الذي لا يميد طرد رسوخه ولا يميل .

وأما ما ذكرتموه من أمر المصحفين الكريمين الشريفين اللذين وقفتموهم على الحرميين المنفيفين وإنكم جهزتم كاتبكم الفقيه الأجل الأنسى الأسنى أبا المجد ابن كاتبكم أبي عبد الله بن أبي مدين أعزه الله لتفقد أحوالهما والنظر في أمر أو قافهما فقد وصل المذكور بمن معه في حرب السلامة وأكرمنا نزليهم وسهلنا بالترحيب سبلهم وجمعنا على بذلك الإحسان إليهم شملهم وحضر المذكور بين أيدينا وقربنا وسمعنا كلامه وخطبناه وأمرنا في أمر المصحفين الشريفين بما أشرتم ورسمنا لتوائنا في توخي أو قافهما بما ذكرتم وهذا الوقف المبرور جار على أحسن عادة ألفها وأثبتت قاعدة عرفها مرعي الجوانب محمي المنازل والمضارب آمن إزالة رسمه أو إذالة حكمه بدره أبداً في مطالع تمه وزهره دائمًا يرقص في كمه لا يزداد إلا تخليداً ولا إطلاق ثبوته إلا تقيداً ولا عنق اجتهاده إلا تقليداً جرياً على قاعدة أو قاف ممالكنا وعادة تصرفاتنا في مسالكنا وله مزيد الرعاية وإفاده الحماية ووفادة العناية. وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلها ومني به من الكفار حزنها وسهلها فإنه شق علينا سماعه الذي انكى أهل الإيمان وعدد به نوب الزمان كل قلب بأنامل الحفقات وطالما فزتم بالظفر ورزقتم النصر على عدوكم فجر ذيل الهزيمة وفر ولكن الحرب سجال وكل زمان لدوازره دولة ولرجائه رجال ولو أمكنت المساعدة لطارات بنا إليكم عقبان الجياد المسمومة وسالت على عدوكم أباطحهم بقسيتنا المعوجة وسهامنا المقومة وكحلنا عين النجوم بمراؤد الرماح وجعلنا ليل العجاج ممزقاً ببروق الصفاح واتخذنا رؤوسهم لصواج القوانم كرات وفرجنا مضائق الحرب بتوازي الكرات وعطقنا عليهم الأعنة وخضنا جداول السيف ودنسنا شوك الأسنة وفلقنا الصخرات بالصراخات وأسلنا العبرات بالرعبات ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول وأين الشريا من يد المتناول وما لنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا والتوجه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا - وأما - ما فقدتموه من

الأجفان التي طرقها طيف الإتلاف وأم حرم فناتها الفناء وطاف به بعد الألطاف فقد روع هذا الخبر قلب الإسلام ونوع له الحزن على اختلاف الإباح والإظام وهذه الدار لا يخلو صفوها من كدر القدر وطالما أنيامت بالأمن أول الليل وخطب بالخطب في السحر ولكن في بقائكم ما يسلى عن خطب العطب ومع سلامه نفسكم الكريمة فالامر هين لأن الدر يفدى بالذهب - وأما - ما رأيتموه من الصلح فرأى عقده مبارك وأمر ما فيه فارت عزم وإن كان في تدارك والأمر يجيء كما يحب لا كما نحب والحروب يزورها نصرها تارة ويغب مع اليوم غداً وقد يرد الله الردى ويعيد الظفر بالعدا وأما عودكم إلى فاس المحروسة طلباً لإراحة من عندكم من الجنود وتجهيزاً لمن يصل من عندكم إلى الحجاز الشريف من الوفود فهذا أمر ضروري التدبير سروري التشير لأن التفوس تمل وثير المهداد فكيف ملزمة صهوات العجاد وتسأم من مجالسة الشرب فكيف بممارسة الحرب وتعرض عن دوام اللذة فكيف ب المباشرة المنايا الفذة وهذا جبل طارق الذي فتح الله به عليكم وساق هدي هديته إليكم لعله يكون سبباً إلى ارجاع ما شرد وحسماً لهذا الطاغية الذي مرد ورداً لهذا النازل الذي كدر ورد الصبر لما ورد فعادة الألطاف بكم معروفة وعزماتكم إلى جهات الجهاد مصروفة وقد تفأملنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمن يطرق وجبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار ويمرق وأما ما منحتموه من الخيال العتاق والملابس التي تتطلع بدور الوجه من مشارق الأطواق والأموال التي زكت عند الله تعالى ونمط على الإنفاق فعلى الله عز وجل خلفها ولكم في منازل الدنيا والآخرة سرفها وشرفها وإليكم تساق هدايا أثنيتها وتحفكم تحفها وإذا وصل وفديكم الحاج وأنار له بوجه إقبالنا عليهم لي لهم الداج وكانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا يتخلون تحفاً أنتم سببها ويتناولون طرفاً في كؤوس الاعتناء بهم ينضد حبها وإذا كان أوان الرحيل إلى الحج فسحنا لهم الطريق وسهلنا لهم الرفيق وبلغناهم بحول الله تعالى منهم مني وسألهم من من إذا

زاروا حجراته الشريفة حازوا الراحة من العناء وفازوا بالغنى وإذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسىهم مشقة ذلك الدرك ويغشيل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب وغمزناهم بالإحسان في العود إليكم وأمرناهم بما ينهونه شفاهًا لدیکم وعنایة الله تعالى تحوط ذاتکم وتتوفر لأخذ الثار حماتکم وتخصلکم بتائید تنزلون روضه الأنضروتجنون به ثمر النصر اليانع من ورق الحديد الأخضر وتحتفظکم بسعد لا يبلی قشیبه وعز لا يمحو شبابه مشیبه وتحیته المباركة تغادیکم وترواحکم وتفاوحکم أنفاسها المعتربرة وتنافحکم بمته وكرمه، في سادس رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة».

قال ابن خلدون: «ثم شرع السلطان أبو الحسن بعد استيلائه على إفريقية كما نذكره في كتب نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس فلم يقدر إتمامها وهلك قبل فراغه من نسخها» اهـ وهو يقتضي أن السلطان المذكور ما كتب سوى مصحفين اثنين ويرجعه ظاهر الكتابين المسروردين آنفاً مع أنه تقدم النقل عن الشيخ أبي العباس المقرري أنه وقف على النسخة الموقوفة ببيت المقدس والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر.

هدية السلطان أبي الحسن إلى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب

اعلم أن أرض السودان المجاورة للمغرب تشتمل على ممالك منها مملكة غانة ومنها مملكة مالي ومنها مملكة كاغو ومنها مملكة برنو وغير ذلك، وكان ملك مالي وهو السلطان منسى موسى بن أبي بكر من أعظم ملوك السودان في عصره، ولما استولى السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط وغلببني زيان على ملکهم عظم قدره وطال ذكره وشاعت أخباره في الآفاق فسمى هذا السلطان وهو منسى موسى إلى مخاطبة السلطان أبي الحسن وكان مجاوراً لمملكة المغرب على نحو مائة مرحلة في القفر، فأوفد

عليه جماعة من أهل مملكته مع ترجمان من الملثمين المجاورين لبلادهم من صنهاجة، فوفدوا على السلطان أبي الحسن في سبيل التهنة بالظفر فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم وزرع إلى مذهبة في الفخر فانتخب طرفاً من متاع المغرب وماعونه وشيئاً من ذخيرة داره وأسنى الهدية وعين رجالاً من أهل دولته كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدین ومولاه عنبر الخصي فأوفدتهم بها على ملك مالي منسى سليمان لمهلك أخيه موسى قبل مرجع وفده وأوزع إلى أعراب الفلاة من يني معقل بالسير معهم ذاهبين وجاءين فشمر لذلك علي بن غانم أمير أولاد جرار من معقل وصحبهم في طريقهم امتنالاً لأمر السلطان وتوجل ذلك الركب في القفر إلى بلد مالي بعد الجهد وطول الشقة فأحسن منسى سليمان ميرتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم، وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظمون السلطان أبي الحسن ويوجبون حقه ويؤدون طاعته ويدذكرون من خصوص مرسلهم وقيامه بحق السلطان أبي الحسن واعتماله في مرضاته ما استو صاهم به.

واعلم أن منسى موسى الذي ذكرناه كان من كبار الملوك كما قلنا وهو الذي صحبه أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجي^(١) من شعراء الأندلس، كان قد لقيه في الموسم بعرفة فحلى عينيه وحظيت منزلته عنده فصحبه إلى بلاده وأقام عنده مصحوباً بالبر والكرامة وبنى للسلطان المذكور قبة رائعة فازدادت حظوظه عنده، قال ابن خلدون: «أطرف أبو إسحاق الطويجي سلطان منسى موسى بنى ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته وكان صناع اليدين وأضفى عليها من الكلس والرخام على أنها بالأصباغ المشبعة، فجاءت من أتقن المبني ووُقعت من سلطان منسى موسى موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ووصله باثنى عشر ألفاً من مثاقيل التبر مشوبة عليها» اهـ وكانت وفاة أبي إسحاق بتتباكون يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة.

(١) صوابه الطويجي تصغير طاجين الإناء المغربي المعروف.

مصاہرة السلطان أبي الحسن ثانياً مع السلطان أبي بكر الحفصي رحمهما الله

قد تقدم لنا ما كان من وقعة طريف وإنه هلك فيها حرم السلطان أبي الحسن من جملتهن فاطمة بنت السلطان أبي بكر الحفصي فلما فقدها أبو الحسن بقي في نفسه منها حنين إلى ما شغفته به من خلالها ولذادة العيش في عشرتها فسما له من الاعتياض عنها بعض أخواتها، فأوفد في خطبتها وليه عريف بن يحيى أمير عرب سويد منبني زغبة الهلاليين وكاتب الجبائية والعسكر بدولته أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وفقيه الفتوى بمجلسه أبا عبد الله محمد بن سليمان السطفي ومولاه عنبر الخصي، فوفدوا على السلطان أبي بكر سنة ست وأربعين وسبعيناً فأنزلهم منزل البر والكرامة ثم دس إليه حاجبه أبو محمد عبد الله بن تافرجين غرض وفادتهم وأنهم قدموه خاطبين بعض كرائمهم لسلطانهم فأبى من ذلك صوناً لحرمه عن جولة الأقطار وتحكم الرجال مثل ما وقع في ابنته الأولى، فلم يزل حاجبه المذكور يخوض عليه الشأن ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته مع ما بينهما من الصهر السابق والمخالصة القديمة والمهود المتأكدة إلى أن أجاب وأسعف وجعل ذلك للحاجب المذكور فانعقد الصهر بين السلطانين على ابنته عزونة شقيقة ابنه أبي العباس الفضل بن أبي بكر صاحب بونة، وأخذ الحاجب في شوار العرس وتألق فيه واحتفل واستكثر وطال مقام الرسل بتونس إلى أن استكمل الجهاز فارتحلوا منها في ربیع سنة سبع وأربعين وسبعيناً وأوزع السلطان أبو بكر إلى ابنه الفضل شقيق العروس المذكورة أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياماً بحقه وبعث من بايه جماعة من مشيخة الموحدين فوفدوا جميعاً على السلطان أبي الحسن واتصل بهم الخبر في طريقهم بوفاة السلطان أبي بكر فجأة ليلة الأربعاء ثاني رجب من السنة المذكورة، فزعهم السلطان أبو الحسن عنه عند ما وصلوا إليه واستبلغ في إكرامهم وأجمل موعد

أخيها الفضل بسلطانه ومظاهرته على تراث أبيه فاطمأنَت به الدار عند السلطان أبي الحسن إلى أن سار في جملته وتحت لوائه إلى إفريقيَّة كما نذكره إن شاء الله.

غزو السلطان أبي الحسن إفريقيَّة واستيلاؤه على تونس وأعمالها

كان السلطان أبو بكر الحفصي رحمة الله قد عهد بالأمر بعده لابنه أبي العباس أحمد، وكان أوفد على السلطان أبي الحسن حاجبه أبي القاسم بن عتو في غرض له وأصحابه كتاب العهد إلى السلطان المذكور ليوافق عليه فوقف عليه السلطان أبو الحسن وكتب على حاشيته بخطه ووافقه عليه رحمة الله وأحكم العقد في ذلك، ولما مات السلطان أبو بكر كان ولِي العهد غالباً عن الحضرة فباع أبو محمد بن تافراجين لابنه عمر.

ذكر الشيخ أبو العباس الوانشريسي في أقضية «المعيار» عن الشيخ ابن عرفة أنَّ سلطان إفريقيَّة أبي بكر الحفصي كتب العهد لولده أحمد فلما توفي السلطان المذكور أحضر أبو محمد بن تافراجين قاضيَّ تونس قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام وقاضي الأنكحة أبي عبد الله الأجمي وأمرهما أن يبايعا ولد الخليفة عمر فقالا: «كيف نبايعه ونحن شهدنا بيعة أخيه أحمد والتزمناها» وكان الحاجب ابن تافراجين نبيلاً فلما دخلَ أحضر الحاجب المذكور أهل العقد والحل وأمرهم أن يبايعوا عمر فباعوه، فلما خرج القاضيان وجدا البيعة قد حصلت وكان في انتظار أحمد المشهود له بالعهد وهو غائب بقصبة خوف الفتنة فباع القاضيان، وكان ابن عرفة يستصوب فعل الحاجب وامتناع القاضيين أولاً وبيعهما ثانياً، ثم قدم ولِي العهد ووقع بينه وبين أخيه قتال وجرت خطوب كان في آخرها قتل ولِي العهد وقتله ولِي أبي الهرول بن حمزة أمير الكعوب من عرب سليم في آخرين منهم وقطع عمر

أيضاً أخيه عبد العزيز و خالدأ من خلاف فهلكا» وكان الحاجب أبو محمد بن تافرجين قد أحس بالشر من جهة عمر المتغلب وتوقع النكبة من جانبه فسلل إلى قصره وأخذ ما خف من ذخيرته ولحق بالسلطان أبي الحسن وقص عليه الخبر وأغراه بتملك إفريقيا وأوجب عليه النظر لل المسلمين فيها وكان السلطان أبو الحسن يتمنى ذلك لولا مكان صهره أبي بكر فأقام يتحين لها الأوقات ويترقب لها الفرصة حتى كانت هذه، (وانما تنبع المقالة في المرء إذا صادفت هو في الفواد) فأظهر أبو الحسن الامتعاض لما فعله عمر بأخيهولي العهد من منعه من حقه أولاً ثم إراقة دمه ثانياً لا سيما وقد كان أعطى خط يده بالموافقة على العهد المذكور، فأجمع الحركة إلى إفريقيا ولحق به خالد بن حمزة بن عمر أخو أبي الهول المقتول معولي العهد فاستعداه على عدوه، ففتح السلطان أبو الحسن ديوان العطاء ونادي في الناس بالمسير إلى إفريقيا وأزاح عللهم وعسکر بظاهر تلمسان ثم نهض في صفر من سنة ثمان وأربعين وبعمادة يجر الدنيا بما حملت، بعد أن عقد لابنه الأمير أبي عنان على المغرب الأوسط وعهد إليه بالنظر في أمره كافة وجعل إليه جيابته وقدمت عليه في طريقه أغرب إفريقيا وولاية قابس وبلاط الجريد وأطاعته طرابلس والزارب وبجایة وصاحبها يومئذ أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء بن أبي بكر ولما وصل إلى قسنطينة خرج إليه أبناء الأمير أبي عبد الله بن أبي بكر فباعوه فأقبل عليهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جيابتها، وأنزل بقسنطينة خلفاء وعماله وقد كان صرف أبا عبد الله صاحب بجاية إلى ندرومة فأنزله بها وأقطعه الكفاية من جيابتها، ثم وفد عليه بنو حمزة بن عمر أمراء الكعوب من سليم فأخبروه بإجفال عمر المتغلب بتونس مع ظاعنة أولاد مهلل واستحثوه في اعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر، فسرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو بن يحيى العسكري.

وتلوم السلطان أبو الحسن بقسنطينة وعرض جيوشة بسطح العجائب منها، ثم ارتحل على أثرهم وأخذ حمو بن يحيى السير مع ناجعة أولاد أبي الليل فلحقوا بعمر صاحب تونس بأرض الحامة من ناحية قابس فدافعوا عن

أنفسهم بعض الشيء ثم انهزوا وكبا بعمر جواده في نافقاء بعض اليرابيع وانجلى الغبار عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبض عليهم وأوثقهما قائد العسكر بيده حتى إذا جن الليل ذبحهما خوفاً من أن تفتكتهما العرب من يده. وبعث برأسيهما إلى السلطان أبي الحسن فوصل إليه بباجية وخلص الفل من تلك الواقعة إلى قابس، فتقبض عبد الملك بن مكي صاحبها على رجالات من أهل الدولة كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش وغيرهما من أعيان الدولة، فبعث بهم ابن مكي إلى السلطان أبي الحسن مقرنين في الأصفاد فأاما ابن عتو وصخر بن موسى وعلي بن منصور فقطعهم من خلاف لفتيا الفقهاء بجرابتهم واعقل الباقى.

وسرح السلطان عساكره إلى تونس وعقد عليهم لصهره على ابنته يحيى بن سليمان منبني عسكر فاحتلوا بتونس، ثم جاء السلطان على أثرهم فنزل بظاهرها يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وتلقاء وفدى تونس وشيوخها من أهل الفتيا وأرباب الشورى فآتواه طاعتهم وانقلبوا مسرورين بولايته مغتبطين بملكه، وكانت تونس يومئذ مشحونة بالأعلام الأكابر منهم ابن عبد السلام وابن عرفة وابن عبد الرفيع وابن راشد الفقهي وابن هارون وأعلام آخرون، ثم عبا السلطان أبي الحسن يوم السبت مواكبه لدخول الحضرة فصف جنوده سماطين من معسكره بسيجوم إلى باب البلد نحو أربعة أميال وركبت بنو مرین من مراكزهم من جموعهم وتحت راياتهم، وركب السلطان من فساطنه وعن يمينه وليه عريف بن يحيى كبير سويد وليه أبو محمد عبد الله بن تافاجين وعن يساره الأمير أبو عبد الله ابن أخيه خالد كانوا معتقلين بقسطنطينة فأطلقهما السلطان أبو الحسن وصحابه إلى تونس فكانوا طراز ذلك الموكب فيمن لا يحصى من أعياصبني مرین وكبارهم، وهدرت طبله وخفقت راياته وكانت يومئذ نحو المائة وجاء السلطان والمواكب تجتمع عليه صفاصفاً إلى أن وصل إلى البلد

وقد ماجت الأرض بالجيوش، قال ابن خلدون: وكان يوماً لم ير مثله فيما عقلناه، قلت: كان سن ابن خلدون يومئذ ست عشرة سنة لأنه ولد غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعيناً.

وكان قدم في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من أعلام المغرب كان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه ثم دخل القصر الخلافي وخلع على أبي محمد بن تافراجين وقرب إليه فرساً بسرجه ولجامه وطعن الناس بين يديه وانتشروا إلى منازلهم ثم دخل السلطان أبو الحسن مع ابن تافراجين إلى حجر القصر ومساكن الخلفاء فطاف عليها ودخل منها إلى الرياض المتصلة بها المدعوة برأس الطابية فطاف على تلك البستانين وسرح نظره فيها واعتبر بحالها ثم أفضى منها إلى معسكره وأنزل يحيى بن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحمايتها ثم ارتحل من الغد إلى القيروان فجال في نواحيها ووقف على آثار الأولين ومصانع الأقدمين والطلول المائة لصنهاجة والعبيدين والتمس البركة في زيارة القبور التي تذكر للصحابة والسلف من التابعين والأولياء في ساحتها ثم سار إلى سوسة ثم إلى المهدية ووقف على ساحل البحر منها وتطرف في معالمهما ونظر في عاقبة الذين كانوا من قبله أشد قوة وآثاراً في الأرض واعتبر بأحوالهم ومر في طريقه بقصر الأجم ورباط المنستير وانكفا راجعاً إلى تونس فاحتل بها غرة رمضان من السنة ونزل المسالع على ثغور إفريقية وأقطعبني مرين البلاد والضواحي وأمضى إقطاعات العرب التي كانت لهم من قبل الحفصيين واستعمل على الجهات وخفت الأصوات وسكنت الدهماء وانقضت أيدي أهل الفساد وانقرض أمر الحفصيين في هذه المدة إلا أنه عقد على بونة لصهره الفضل ابن السلطان أبي بكر إكراماً لصهره ووفاته عليه واتصلت ممالك السلطان أبي الحسن ما بين مسراه إلى السوس الأقصى من هذه العدوة وإلى رندة من عدوة الأندلس ودخل المغرب بأسره في طاعته وحضر ملوك مصر والشام ما شاع من بسطته وانفساح دولته ونفوذه كلمته والملك لله يؤتى به من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقد كان الشعراء رفعوا إليه قصائد في سبيل التهنة بالفتح وكان سابق

الحلبة يومئذ أبو القاسم الروحي في قصيدة يقول في مطلعها:
 أجابك شرق إذ دعوت ومغرب فمكة هشت لقاء ويشرب
 وهي طولية تخطيناها اختصاراً والله تعالى ولـي التوفيق بمنه.

انتقام عرب سليم بإفريقية على السلطان أبي الحسن وما نشأ عن ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على العرب الداخلين إلى المغرب أن جمهورهم كان منبني جشم بن معاوية بن بكر وبني هلال بن عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور، وإن الذين يقروا منهم بإفريقية هم بنو سليم وبعض هلال وكان لهم استطالة على الدول واعتزاز عليها، فكان ملوك الحفصيين يتآلفون بهم بالولايات والإقطاعات ونحو ذلك، وكان السلطان أبو الحسن المريني حاله مع عرب المغرب الأصلي غير حال الحفصيين مع عرب إفريقيه وملكته لأهل باديه غير ملكتهم لأهل باديه، فلما ورد إفريقيه واستولى عليها رأى من اعترز العرب بها على الدولة وكثرة إقطاعاتهم من الضواحي والأمصال ما تجاوز الحد المعتاد عنده، فأنكر ذلك وضرب على أيديهم وعوضهم عنه بأعطيات فرضها لهم في الديوان من جملة الجنـد واستكثـر جـابـتهم فـنقـصـهم الكـثـيرـ منهاـ، ثمـ شـكـاـ إـلـيـهـ الرـعـيـةـ منـ أولـئـكـ العـرـبـ وـماـ يـنـالـونـهـ بهـ منـ الـظـلـامـاتـ وـضـرـبـ الإـتـاوـةـ التـيـ يـسـمـونـهـ الـخـفـارـةـ فـقـبـضـ أـيـديـهـمـ عـنـ ذـلـكـ كـلـهـ وـتـقـدـمـ إـلـىـ الرـعـاـيـاـ يـمـنـعـهـمـ مـنـهـ، فـأـرـتـابـتـ العـرـبـ لـذـلـكـ وـفـسـدـتـ ضـمـائـرـهـمـ وـنـقـلتـ وـطـأـةـ الدـوـلـةـ المـرـيـنـيـةـ عـلـيـهـمـ فـتـرـيـصـوـ بـهـاـ وـتـحـزـبـواـ لـهـاـ وـتـعـاـوـتـ ذـلـبـهـمـ فـيـ بـوـادـيـهـمـ فـاجـتمـعـواـ وـأـغـارـواـ عـلـىـ قـيـاطـيـنـ بـنـيـ مـرـيـنـ وـمـسـالـحـهـمـ فـيـ ثـغـورـ إـفـرـيـقـيـةـ حـتـىـ أـنـهـمـ أـغـارـواـ عـلـىـ ضـواـحـيـ تـونـسـ فـاستـاقـواـ الـظـهـرـ الـذـيـ كـانـ فـيـ مـرـعـاهـ وـالـسـلـطـانـ يـوـمـئـذـ بـهـاـ فـعـظـمـ عـلـيـهـ ذـلـكـ وـحـقـدـ عـلـىـ كـبـرـائـهـمـ وـأـظـلـمـ الـجـوـيـهـ بـيـنـهـ وـبـيـنـهـمـ، ثـمـ وـفـدـ عـلـيـهـ أـيـامـ الـفـطـرـ مـنـ رـجـالـهـمـ خـالـدـ بـنـ حـمـزةـ أـمـيـرـ بـنـ كـعبـ وـأـخـوـهـ أـحـمـدـ وـخـلـيـفـةـ بـنـ عـبـدـ اللهـ مـنـ بـنـيـ مـسـكـينـ وـابـنـ عـمـهـ خـلـيـفـةـ بـنـ

أبي زيد من أولاد القوس فأنزلهم السلطان أبو الحسن وأجمل لقاءهم مغضياً عما صدر من غوغائهم، ثم رفع إليه عبد الواحد بن اللحياني من أولاد الملوك الحفصيين أنهم بعثوا إليه مع بعض حاشيته يطلبون منه الخروج معهم لينصبوه للأمر يافريقيا وأنه خشي على نفسه بادرة السلطان فتبراً إليه من ذلك، فقامت قيامة السلطان أبي الحسن عند سماعه ذلك فأحضرهم وأحضر الحفصي معهم وقرره بما دار بينه وبينهم فبهتوا وأنكروا فويتهم وأمر بهم فسحبوا إلى السجن ثم فتح ديوان العطاء وعرض الجندي لغزوهم وعسكر بسيجوم من ظاهر تونس وذلك بعد قضاء نسك الفطر من سنة ثمان وأربعين وسبعين.

وأتصل الخبر بأولاد أبي الليل وأولاد القوس باعتقال وفدهم وجمع السلطان لغزوهم فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وانطلقو في أحياائهم يحزبون الأحزاب ويستثيرون الشوار وعطفوا على أعدائهم من أولاد مهلل فوصلوهم بعد القطيعة وكانتوا بعد مقتل سلطانهم عمر بن أبي بكر قد لحقوا بالقفر خوفاً من أبي الحسن لأنهم كانوا شيعة لعمر المذكور، فلما وقع بين أبي الحسن وبين أولاد أبي الليل ما وقع ركب قتيبة بن حمزة إليهم ومعه أمه ونساء أولادها فنطارحوا عليهم ورغبوا إليهم في الاجتماع معهم على الخروج على السلطان ومنابتته، فكان أولاد مهلل إليها مسرعين فارتاحلوا معهم وتواتفت أحياء سليم منبني كعب وبني حكيم بتوزر من بلاد الجريد فتدامروا وتصافوا وأهدروا الدماء بينهم وتبايعوا على الموت وصاروا نفساً واحدة على تباين أغراضهم وفساد ذات بينهم، والتمسوا من أغياض الملك من ينصبوه للأمر فدلهم بعض سمسارة الفتنة على رجل منبني عبد المؤمن وهو أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر ملوكبني عبد المؤمن وكان يحترف بالخياطة في توزر بعد ما طرحت به الطوائح فانطلقو إلية وجاؤوا به ونصبوه للأمر وجمعوا له شيئاً من الفساطيط والخيول والآلات والكسوة وأقاموا له رسم السلطان وعسكرروا عليه بقياطينهم وحللهم وتحالفوا على نصره.

ولما فضى السلطان أبو الحسن نسك عيد الأضحى من السنة المذكورة

ارتحل من ساحة تونس يريد العرب فوافاهم بالوضع المعروف بالتينة بين بسيط تونس ويسقط القิروان فأجفلوا أمامه فأتباعهم وألح عليهم إلى أن وصلوا إلى القิروان فلما رأوا أن لا ملجأ لهم منه عزموا على الثبات له وتحالفوا على الاستماتة وكان عسكر السلطان أبي الحسن يومئذ مشحوناً بأعدائه منبني عبد الواد المغلوبين على ملكهم ومغراوة وبني توجين وغيرهم، فدسوا إلى العرب أثناء هذه المناوشة بأن يناجزوا السلطان غداً حتى يتحيزوا إليهم ويجرروا عليه الهزيمة فأجابوهم إلى ذلك وصيغوا معسكر السلطان من الغد فركب إليهم في التعبية، ولما تقابلوا تحيز إليهم الكبير منمن كان معه واحتل مصادفه فانهزم هزيمة شنعاء ويادر إلى القิروان فدخلتها فيمن معه من الفل مستجيرأ بها ودافع عنه أهلها، وتسابقت العرب إلى معسكره فاتهبوه بما فيه من المضارب والعدد والآلات ودخلوا فسطاط السلطان فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه، وأحاطوا بالقิروان وزحفت إليها حملهم فدارت بها سياجاً واحداً وتعاونت ذئابهم بأطراف البقاع وأجلب ناعق الفتنة منهم بكل قاع وأضطرمت إفريقية ناراً، وكانت الهزيمة يوم الاثنين سابع محرم من سنة تسع وأربعين وسبعمائة وبلغ الخبر إلى تونس وكان السلطان قد خلف بها عند رحيله الكبير من أبنائه وحرمه ووجوه قومه وأمناء بيت ماله وبعض الحاشية من جنده فتحصنتوا بالقصبة وأحاط بهم الغوغاء كي يستنزلوهم عنها فامتنعوا عليهم و كانوا بها أملاك منهم، وكان الأمير أبو سالم إبراهيم بن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب في هذا التاريخ فوافاه الخبر قرب القิروان فانقض معسكره ورجع إلى تونس فكان معهم في القصبة، ثم نزع أبو محمد بن تافراجين عن السلطان أبي الحسن وكان محصوراً معه بالقิروان وكان قد سُنم صحبته ومل خدمته لأنه كان أيام حجاته للسلطان الحفصي مستبداً عليه مفوضاً إليه في جميع أموره، فلما استوزره السلطان أبو الحسن لم يجره على تلك العادة لأنه كان قائماً على أمره بنفسه وليس التفويف للوزراء من شأنه، وكان ابن تافراجين يظن أنه سيوكل إليه أمر إفريقية وينصب معه لملكها الفضل ابن السلطان أبي بكر شقيق زوجته وربما زعموا أنه عاهده على ذلك

فكان في قلبه من الدولة المرينة مرض وكان العرب أيام عزهم على الخروج يفاوضونه بذات صدورهم فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان وحصاره بالقيروان احتالوا في أمر ابن تافراجين، فبعثوا إلى السلطان يطلبون منه بعثه إليهم ليفاوضوه في الرجوع إلى الطاعة والانحراف في سلك الجماعة، فأذن له فخرج إليهم ووصل يده بيدهم ولم يرجع إلى السلطان أبي الحسن، فقلدوه حجابة سلطانهم ابن أبي دبوس ثم سرحوه إلى حصار من بالقصبة من بنى مرين وطمعوا في الاستيلاء عليها وفض ختامها فسار ابن تافراجين إليها وانضم إليه أشياخ الموحدين في زعانف من الغوغاء وأحاطوا بالقصبة، ثم لحق بهم ابن أبي دبوس فعاودوها القتال ونصبوا عليها المجانيق فامتنعت عليهم ولم يغنو شيئاً، وابن تافراجين في أثناء ذلك يحاول الفرار بنفسه لاضطراب الأمور واحتلال الرسوم إلى أن بلغه خلوص السلطان أبي الحسن من القيروان إلى سوسة.

وكان من خبره أن العرب بعد حصارهم إيه بالقيروان اختلفت كلمتهم لديه وكان قد دخل أولاد مهلل في الإفراج عنه وشرط لهم على ذلك أموالاً ونذر بنو أبي الليل بذلك فاضطربت كلمتهم ودخل عليه قتيبة بن حمزة منهم بمكانه من القيروان زعيماً بالطاعة فتقبله وأطلق أخويه خالداً وأحمد ومع ذلك فلم يطمئن إليهم ثم جاء إليه محمد بن طالب من أولاد مهلل وخليفة بن أبي زيد وأبو الهول بن يعقوب من أولاد القوس وعاهدوه على الإفراج عنه والقيام معه حتى يصل إلى مأمه فخرج معهم ليلاً على التعبية وذؤبان العرب تطاً أذياله وضباعها تنوشه إلى أن استقر بسوسة وأمن على نفسه وقد أتى النهب على جل ما كان معه ولما سمع ابن تافراجين وهو محاصر للقصبة بوصول السلطان إلى سوسة تسلل من أصحابه وركب البحر إلى الإسكندرية فأصبحوا وقد فقدوا فاضطرب أمرهم وارتبا سلطانهم ابن أبي دبوس لما علم بخبره فانقض جمعهم عن القصبة وأفرجوا عنها وخرج بنو مرين فملكوا البلد وخربيوا منازل الحاشية بها، ثم ركب السلطان أبو الحسن من سوسة البحر فاحتل بتونس في ربيع الآخر سنة تسع وأربعين

وبعدها فاجتمع شمله واستتب أمره، وكتب إلى صاحب مصر في التقبض على ابن تافراجين فأجراه بعض الأمراء وانصرف لقضاء فريضة الحج واعتمل السلطان أبو الحسن في إصلاح أسوار تونس وإدارة الخندق عليها وأقام لها من الصيانة والحسانة رسمًا دفع به في نحر عدوه وبقي له ذكره من بعده ثم أجلب العرب وسلطانهم ابن أبي دبوس على تونس ونازلوا أبي الحسن بها واستبلغوا في حصاره وخلصت ولاية أولاد مهلل للسلطان فعول عليهم، ثم راجع بنو حمزة بصائرهم وصاروا إلى مهادنته فعقد لهم السلم ودخل عليه عمر بن حمزة وافداً فحبسه حتى قبض إخوانه على أميرهم ابن أبي دبوس وقادوه إليه استبلاغاً في الطاعة وأمحاضاً للولاية، فقبل فتتهم وأودع ابن أبي دبوس السجن وعقد الصهر بينه وبين عمر بن حمزة فزوج ابنة عمر بابنه أبي الفضل، واختلفت أحوال هؤلاء العرب على السلطان أبي الحسن في الطاعة تارة والانحراف أخرى مدة إقامته بتونس إلى أن كان ما ذكره والله غالب على أمره.

انتقام الأطراف وثورة أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن واستيلاؤه على المغرب

قد تقدم لنا أن السلطان أبي بكر الحفصي رحمه الله لما زوج ابنته من السلطان أبي الحسن بعث معها في زفافها شقيقها أبي العباس الفضل بن أبي بكر وأن خبر وفاة والده أدركه وهو بالطريق، ولما وصل إلى السلطان أبي الحسن عزاه عن مصاب أبيه ووعده بالمشاهدة على ملكه فبقي عنده بتلمسان إلى أن نهض في صحبته إلى إفريقيا فلما غلب السلطان أبو الحسن على بجاية وقسطنطينة وارتحل إلى تونس عقد له على بونة التي كان يلي عملها أيام أبيه فانقطع أمله وفسد ضميره وطوى على البث حتى إذا كانت نكبة القิروان سما إلى التورّب على ملك سلفه وكان أهل قسطنطينة وبجاية قد سئموا ملكة بني مرین ويرموا بولائهم لمخالفتهم بعض العوائد التي كانت لهم مع الملوك

الحفصيين ولأن الصبغة الحفصية كانت قد رسخت في نفوسهم جيلاً بعد جيل فصعب عليهم تزعمها.

ما الحب إلا للحبيب الأول
وحتىّه أبداً لأول منزل

فasherأبوا إلى الثورة على المرينيين لما سمعوا بنكبة القبروان واتفق أن قدم قسنطينة ركب من أهل المغرب فاصدرين إلى السلطان أبي الحسن وكان فيهم عمال الجباية قدموا بجيابتهم عند راس الجول كما جرت به عادتهم في ذلك ومعهم ابن صغير للسلطان اسمه عبد الله وفيهم وفد من رؤساء الفرنج بعثهم طاغيتهم بقصد التهنة بفتح إفريقيا ومعهم تاشفين ابن السلطان الذي أسر يوم طريف أطلقه الطاغية بعد أن أصابه خبال في عقله وأرسل معه بهدية نفيسة وفيهم أيضاً وفد من أهل مالي بعثهم السلطان منسا سليمان بقصد التهنة أيضاً فتوافت هؤلاء الوفود بقسنطينة وقد طم عباب الفتنة على إفريقيا فأراد غوغاؤها وانتهاب ما معهم ثم تخلصوا منهم في خبر طويل.

وفي أثناء ذلك ثار الفضل بن السلطان أبي بكر صاحب بونة فراسله أهل قسنطينة في القدوم عليهم والقيام بأمرهم فقدمها وجرت خطوب واتصل بأهل بجاية ما فعله أهل قسنطينة فتبعوهم على رأيهم من الانتهاض ووثبوا على من كان عندهم من حاميةبني مرين فاستلبوهم وأخرجوهم عراة واستدعوا الفضل بن أبي بكر من قسنطينة فبادر إليهم واستولى على بجاية واستتب أمره بها وأعاد ألقاب الخلافة وبينما هو يحدث نفسه بغزو تونس ثار عليه أبناء أخيه أبي عبد الله بن أبي بكر فانتزعوا منه بجاية وردوه إلى عمله الأول وانتقض على السلطان أبي الحسن أيضاً سائر زناته منبني عبد الواد ومغراوة وبنني توجين وباعي بنو عبد الواد لعثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان وساروا إلى تلمسان فاستجدوا بها ملك سلفهم في أخبار طويلة.

وجرت هذه الخطوب والسلطان أبو الحسن مقيم بتونس تغاديه العرب

بالقتال وتراوحة وتعوج عليه تارة وتستقيم أخرى وطال مقامه بها وعميت أباؤه على أهل المغرب وحدث في الخلق الوباء العظيم الذي عم المشرق والمغرب فأرجف بموته واضطربت الأحوال بالمخاوف الثلاثة الأدنى والأوسط والأقصى واتصل ذلك بالأمير أبي عنان وهو يومئذ بتلمسان كان أبوه قد ولاه عليها عند ذهابه إلى إفريقيا حسبما مر، فلما أرجف بهملاك أبيه وتساقط إليه الفل من عسکره عراة زرافات ووحداناً تطاول إلى الاستئثار بملك أبيه دون سائر إخوته وكان مرشحاً عنده لذلك لمزيد فضله عليه في غير وصف، واتفق أن كان عنده رجل منبني عبد الواد اسمه عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار وكان ينسب إلى علم الحدثان، ولما سافر السلطان إلى إفريقيا كان هذا الرجل أول المرجفين به وأنه لا يرجع من سفرته وأن الأمر صادر إلى أبي عنان ونفع ذلك في أبي عنان لموافقته هواء، فاشتمل على ابن جرار وخلطه بنفسه فلما ورد الخبر بنكبة السلطان وانحصاره أولاً بالقيروان ثم بتونس لم يستزب أبو عنان في صدق ابن جرار وأنه على بصيرة من أمره فتحفز للوثبة وصمم على الثورة، ثم أكد عزمه على ذلك ما اتصل به من خبر ابن أخيه منصور بن أبي عبد الواحد بن أبي الحسن بفاس الجديد وأنه ثار بها وفتح ديوان العطاء واستلحق واستركب ورام التغلب على المغرب واحتياز الأمر لنفسه دون غيره وورى في ذلك بأنه إنما عزم على الذهاب إلى إفريقيا لاستنقاذ السلطان من هوة الحصار يسر من ذلك حسوا في ارتقاء وتفطن لشأنه الحسن بن سليمان بن يرزيكن عامل القصبة بفاس وصاحب الشرطة بالضواحي، فاستأذنه في اللحاق بالسلطان فأذن له راحة منه فلتحق بأبي عنان على حين أمضى عزيمته على التوقيف فأخرج ما كان بقصر السلطان بالمنصورة من المال والذخيرة وجاهر بالدعاء لنفسه وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره في ربيع الثاني من سنة تسعة وأربعين وسبعيناً فبايعه الملاً وقرأ كتاب يعترض على الأشهاد، ثم بايعه العامة وانقض المجلس وقد استتب سلطانه ورست قواعد ملكه وركب في التعبية والآلية حتى نزل بقبة الملعب وطعم الناس وانتشروا وعقد على وزارته للحسن بن سليمان بن

يرز يكن القادر عليه، ثم لفارس بن ميمون بن وردار وجعله رديفاً له ورفع مكان ابن جرار عليهم كلهم واحتضن لمناجاته كاتبه أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو، ثم فتح الديوان وجعل يستركب كل من تساقط إليه من قبل أبيه ويخلع عليهم وارتحل إلى المغرب وعقد على تلمسان لابن جرار وأنزله بالقصر القديم منها فاستمر بها واستبد إلى أن قدم عليه بنو عبد الواد مجتمعين على سلطانهم عثمان بن عبد الرحمن فقتلوه غرقاً في خبر طويل، ولما انتهى الأمير أبو عنان إلى وادي الزيتون وشى إليه بالوزير الحسن بن سليمان وأنه عازم على الفتكت به بتازا تقرباً إلى السلطان أبي الحسن ووفاء بطاعته، وأنه قد داشر في ذلك حافظه منصور بن أبي مالك الشائر بفاس وأطلعه هذا الواشي على كتاب الوزير في ذلك فلما قرأه تقبض عليه ثم قتله خنقاً في مساء ذلك اليوم وأخذ السير إلى المغرب.

وانتهى الخبر إلى منصور صاحب فاس فرحف للقاءه والتقي الجمعان بوادي أبي الأجراف من ناحية تازا فاختل مصاف منصور وانهزمت جموعه ولحق بفاس الجديد فتحصن بها وتبعه أبو عنان فأناخ عليه خارجها وقد تسائل الناس على طبقاتهم إليه وآتوه طاعتهم وكان قد سلك مع الرعية والجناد من البذل والاستيلاف طريقاً لم يسبق إليه، وكانت منازلته لفاس الجديد في رباع الآخر من السنة المذكورة فأخذ بمخنقها وأجمع الأيدي والفعلة على الآلات لحصارها، ثم أرسل إلى مكتناسة بإطلاق أولاد أبي العلاء المعقلين بالقصبة منها فأطلقوا ولحقوا به وحاصروا معه فاس الجديد وضيقوا عليها إلى أن ضاقت أحوال أهلها واحتلت أهواؤهم ونزع إلى أبي عنان أهل الشوكة منهم، ثم أن إدريس بن عثمان بن أبي العلاء احتال في فتح البلد بأن أظهر النزوع عن أبي عنان إلى منصور المحصور فدخل البلد وتمكن منه وثار به فيما من حاشيته واتحده الأمير أبو عنان عليهم ونزل منصور على حكمه فاعتقله إلى أن قتله بمحبسه واستولى على ذلك الملك، وتسابقت إليه وفود الأمصار للتهدئة باليبيعة وتمسك أهل سبتة بطاعة السلطان

أبي الحسن ثم رجعوا عن ذلك وثاروا على عاملهم عبد الله بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء فقبضوا عليه وقادوه إلى أبي عنان مبايعين له متقربيه به إليه وتولى كبر ذلك فيهم زعيمهم الشريف أبا العباس أحمد بن محمد بن رافع الصقلي من آل الحسين السبط رضي الله عنه كان سلفه قد انتقلوا من صقيلة إلى سبتة فاستوطنوها، ثم استوطنوا بعدها حضرة فاس واستوست للإمير أبي عنان ملك المغرب واجتمع إليه قومه منبني مرين إلا من أقام مع أبيه بتونس وفأ بحقه وحص جناح أبيه عن الكرا علىبني كعب الناكثين لعهده الناكثين عن طاعته فأقام السلطان أبو الحسن رحمه الله بتونس يرجو الأيام ويأمل الكرا والأطراف تنتقض والخوارج تتجدد وقطنط من كان معه من حاشيته وسئموا المقام بأرض ليست لهم بدار مقام فحسنوا له النهوض إلى المغرب فأسعفهم وعزم على الرحلة كما نذكره إن شاء الله، وفي هذه المدة كتب إليه السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر كتاباً من إنشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب يسائله عن أحواله ويعزره عن مصابه ويتأسف له ونص الكتاب : «المقام الذي أقام سعده في انتظام واتساق، وجیاد عزه إلى الغایة القصوى ذات استباق، والقلوب على حبه ذات اتفاق، وعنایة الله تعالى عليه مدیدة الرواق، وأیاديه الجمة في الأعناق ألزم من الأطواق، وأحاديث مجده سمر التوادي وحدیث الرفاق، مقام محل أبینا الذي شأن قلوبنا الاهتمام بشأنه، وأعظم مطلوبنا من الله تعالى سعادة سلطانه، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاء الله تعالى والصنائع الإلهية تحظ ببابه والأطاف الخفية تعرس في جنابه والنصر العزيز يحف برکابه وأسباب التوفيق متصلة بأسبابه والقلوب الشجية لفراقه مسروقة باقتراه، معظم سلطانه الذي له الحقوق المحتملة، والفوائل المشهورة المعلومة، والمكارم المسطورة المرسومة والمفاخر المنسوبة المنظومة الداعي إلى الله تعالى في وقاية ذاته المعصومة وحفظها على هذه الأمة المرحومة الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر سلام كريم، طيب عميم،

الحاضر والغائب وخلص الخلوص الذي لا تغيره الشوائب ما عندنا من الحب الذي وضحت منه المذاهب وإنه لما اتصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التي صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعصمة وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمـة لا يستقر بقلوبنا القرار ولا تتأتى بأوطاننا الأوطار تشوفـاً لما تتيحـه لكم الأقدار ويرزـه من سعادتكم الليل والنهار ورجـاؤنا في استئناف سعادتكم يشتد على الأوقات ويقوى علمـاً بأن العاقبة للنـوى وفي هذه الأيام عمـيت الأنـباء وتـكالـبت في البر والـبحر الأـعداء وـاختـلـفت الفـصـول والأـهـواء وـعـاقتـ الـوارـدـ الـأـنـوـاءـ وـعـلىـ ذـلـكـ مـنـ فـضـلـ اللهـ الرـجـاءـ ولوـ كـنـاـ نـجـدـ لـلـاتـصالـ بـكـمـ سـبـباـ أوـ نـلـفـيـ لـإـعـانـتـكـمـ مـذـهـبـاـ لـمـاـ شـغـلـنـاـ بـعـدـ الـذـيـ بـيـنـنـاـ اـعـتـرـضـ وـالـعـدـوـ بـسـاحـتـنـاـ فـيـ هـذـهـ أـيـامـ رـيـضـ وـكـانـ خـدـيمـكـمـ الـذـيـ رـفـعـ مـنـ الـوـفـاءـ رـايـةـ خـافـقةـ وـاقـتـنـيـ مـنـهـ فـيـ سـوقـ الـكـسـادـ بـضـاعـةـ نـافـقـةـ الشـيـخـ الـأـوـفـيـ الـأـوـدـ الـأـخـلـصـ الـأـصـفـيـ عـلـىـ أـبـوـ مـحـمـدـ بـنـ آـجـانـاـ سـنـيـ اللهـ مـأـمـولـهـ وـبـلـغـهـ مـنـ سـعـادـ أـمـرـكـمـ سـؤـلـهـ وـقـدـ وـرـدـ عـلـىـ بـابـنـاـ وـتـحـيـزـ إـلـىـ الـلـحـاقـ بـجـانـبـنـاـ لـيـتـيـسـرـ لـهـ مـنـ جـهـتـنـاـ الـقـدـومـ،ـ وـيـتـائـيـ لـهـ بـيـاعـانـتـاـ الـغـرـضـ الـمـرـومـ فـيـنـيـ نـحـنـ نـظـرـ فـيـ تـمـيمـ غـرـضـهـ وـإـعـانـتـهـ عـلـىـ الـوـفـاءـ الـذـيـ قـامـ بـمـفـتـرـهـ إـذـاـ اـتـصـلـ بـنـاـ خـبـرـ قـرـقـورـتـيـنـ مـنـ الـأـجـانـ الـتـيـ اـسـعـتـنـ بـهـاـ عـلـىـ الـحـرـكـةـ وـالـعـزـمـ الـمـقـرـنـةـ بـالـبـرـكـةـ حـطـتـ إـحـدـاهـاـ بـمـرـسـيـ الـمـنـكـبـ وـالـأـخـرـ بـمـرـسـيـ الـمـرـيـةـ فـيـ كـنـفـ الـعـنـيـةـ الـإـلـهـيـةـ فـتـلـقـيـنـاـ مـنـ الـوـاـصـلـيـنـ فـيـهـاـ الـأـنـبـاءـ الـمـحـقـقـةـ بـعـدـ التـبـاسـهـ وـالـأـخـبـارـ الـتـيـ يـغـنـيـ نـصـهاـ عـنـ قـيـاسـهـ وـتـعـرـفـنـاـ مـاـ كـانـ مـنـ عـزـمـكـمـ عـلـىـ السـفـرـ وـحـرـكـتـكـمـ الـمـقـرـونـةـ بـالـيـمـنـ وـالـظـفـرـ إـنـكـمـ اـسـتـخـرـتـمـ اللهـ تـعـالـىـ فـيـ الـلـحـاقـ بـالـأـوـطـانـ الـتـيـ يـؤـمـنـ قـدـومـكـمـ خـافـفـهـاـ وـيـؤـلـفـ طـوـافـهـاـ وـيـسـكـنـ رـاجـفـهـاـ وـيـصلـحـ أـحـوالـهـاـ وـيـذـهـبـ أـهـواـهـهـاـ وـإـنـكـمـ سـبـقـتـ حـرـكـتـهـاـ بـعـشـرـةـ أـيـامـ مـسـتـظـهـرـيـنـ بـالـعـزـمـ الـمـبـرـورـ وـالـسـعـدـ الـمـوـفـورـ وـالـيـمـنـ الـرـائـقـ السـفـورـ وـالـأـسـطـوـلـ الـمـنـصـورـ فـلـاـ تـسـأـلـوـاـ عـنـ اـنـبـاعـ الـأـمـالـ بـعـدـ سـكـونـهـاـ وـنـهـوضـ طـيـورـ الـرـجـاءـ مـنـ وـكـونـهـاـ وـاستـشـارـ الـأـمـةـ الـمـحـمـدـيـةـ مـنـكـمـ بـقـرـةـ عـيـونـهـاـ وـتـحـقـقـ ظـنـونـهـاـ وـارـتـياـحـ الـبـلـادـ إـلـىـ دـعـوتـكـمـ الـتـيـ أـلـبـسـهـاـ مـلـابـسـ الـعـدـلـ وـالـإـحـسانـ وـقـلـدـتـهـاـ

قلائد السير الحسان وما منها إلا من باح بما يخفيه من وجده وجهه بشكر الله تعالى وحمده وابتله إلية في تيسير غرض مقامكم الشهير وتتميم قصده واستئناس نور سعده وكم مظل الانتظار بديون آمالها والمطاولة من اعتلالها وأما نحن فلا تسأوا عنمن استشعر دنو حبيبه بعد طول مغيبه إنما هو صدر راجعه فؤاده وطرف ألمه رقاده وفكرا ساعده مراده فلما بلغنا هذا الخبر بادرنا إلى إنجاز ما بذلنا لخدمتكم المذكور من الوعد واغتنمنا ميقات هذا السعد ليصل سببها بأسبابكم ويسرع لحاقه بجنابكم فعنده خدم نرجو أن ييسر الله تعالى بحوله أسبابها ويفتح بنيتكم الصالحة أبوابها وقد شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذي ندين له بالتشيع الكريم اللوداد ونصل له على بعد المزار وزراعة الأقطار سبب الاعتداد ما يعني عن القلم والمداد وقد ألقينا إليه من ذلك كله ما يلقيه إلى مقامكم الرفيع العماد وكتبنا إلى من بالسواحل من ولاتنا نحد لهم ما يكون عليه عملهم في بُرٍّ من يرد عليهم من جهة أبوتكم الكريمة. ذات الحقوق العظيمة والأيدي الخديثة والقديمة وهم يعملون في ذلك بحسب المراد وعلى شاكلة جميل الاعتقاد ويعلم الله تعالى أننا لو لم تعق العوائق الكبيرة والموانع الكثيرة والأعداء الذين غصت بهم في الوقت هذه الجزيرة ما قدمنا عملاً على الملحاق لكم والاتصال بسيبكم حتى نوفي لأبوتكم الكريمة حقها ونوضح من المسرة طرقها لكن الأعذار واضحة وضوح المثل السائر وإلى الله تعالى نبتهل في أن يوضح لكم من التيسير طريقاً و يجعل لكم السعد مصباحاً ورفيقاً ولا يعدكم عنابة منه وتوفيقاً ويتم سرورنا عن قريب بتعریف أنباتكم السارة وسعودكم الدارة فذلك منه سبحانه غایة آمالنا وفيه أعمال ضراعتنا وابتلهانا هذا ما عندنا بادرنا لإعلامكم به أسرع البدار والله تعالى يوفد علينا أكرم الأخبار بسعادة ملككم السامي المقدار وييسر ما له من الأوطار ويصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته» اهـ.

ركوب السلطان أبي الحسن البحر من تونس إلى المغرب وما جرى عليه من المحن في ذلك

كان الأمير أبو العباس الفضل أبو السلطان أبي بكر الحفصي بعد أن لحق بعمله القديم من بونة قد وفد عليه مشيخة العرب من أولاد أبي الليل وأغروه بملك إفريقيا والنهوض إلى تونس ومحاصرة السلطان أبي الحسن بها فأجابهم إلى ذلك ونهض إليها بعد عيد الفطر سنة تسع وأربعين وسبعمائة فحاصرها مدة ثم انفض عنها ثم عاود حصارها، ثم انفض عنها ودخل القفر مع أولاد أبي الليل إلى أن بايعه أهل بلاد الجريد بإشارة أبي القاسم بن عتو المقطوع، ودخل في طاعته توzer وقفصة ونقطة والحامة وقباس وجربة وانتهى الخبر إلى السلطان أبي الحسن باستيلاء الفضل على هذه الأقصارات واستفحال أمره بها وأنه ناهض إلى تونس فأهمه شأنه وخشي على الأمر، وكانت بطانته تووس إليه بالرحلة إلى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه مع ما أصابهم بتونس من الغلاء والموت الذريع فأجابهم إلى ذلك وشحن أساطيله بالأقوات وأزاح علل المسافرين، ولما قضى نسك عيد الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ركب البحر في فصل الشتاء وهيجان البحر وكلب البرد بعد أن عقد لابنه أبي الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين عمر بن حمزة من المصاهرة وتفادياً بمكانه من معرة الغوغاء وثورتهم به، وكانت مدة محاصرة السلطان أبي الحسن بتونس سنة ونصفاً، واتصل خبر رحيله بالفضل بن أبي بكر وهو ببلاد الجrid فأغذ السير إلى تونس ونزل بها على أبي الفضل المريني ومن كان معه من حاشيته وأهل دولته ثم اقتحموا واتصلت يده بيد أحد البلد ثم أحاطوا بالقصبة يوم مني حتى استنزلوا أبو الفضل على الأمان فخرج إلى دار أصحابه منبني حمزة فبقي عندهم حتى أنفذوا معه من أوصله إلى أبيه فلحق به بشغر الجزائر.

وأما السلطان أبو الحسن وجيشه الراكب البحر معه فإنهما لما لججوا احتاجوا إلى الماء فدخلوا مرسى بجاية لخمس ليال من إقلاعهم عن تونس فمنعهم صاحب بجاية الحفصي من الورود وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم

فرزحوا إلى الساحل وقاتلوا من صدهم عن الماء إلى أن غلبواهم واستقوا وأقلعوا ثم عصفت بهم الريح في تلك الليلة وجاءهم الموج من كل مكان وتكسرت الأجفان وغرق الكثير من بطانة السلطان وعامة الناس وقدف الموج بالسلطان فألقاه على حجر قرب الساحل من بلاد زواوة عاري الجسد مباشراً للموت، وقد هلك من كان معه من الفقهاء والعلماء والكتاب والأسراف والخاصة وهو يشاهد مصارعهم واحتطاف الموج لهم من فوق الصخور التي تعلقوا بها فمكثوا ليلتهم على ذلك وصيبحهم جفن من بقية الأساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف فبادر أهل الجفن إليه حين رأوه فاحتملوه وقد تصاير به البربر من العجب والتوأثروا إليه حين وضح النهار وأبصروه، فتداركه الله بهذا الجفن فاحتملوه وقدفوا به في مدينة الجزائر.

وفي نفح الطيب أن أساطيل السلطان أبي الحسن كانت نحو المستمائة فغرقت كلها ونجا هو على لوح وهلك من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو أربعينمائة عالم منهم أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي شارح الحوفي، وأبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذي أملى في مجلس درسه بمكناة على حدث يا أبا عمير ما فعل النغير أربعينمائة فائدة، والأستاذ الرواوي أبو العباس وغير واحد وكان غرق الأسطول على ساحل تدلس. وذكر الشيخ أبو عبد الله الأبي في شرح مسلم كلامه على أحاديث العين ما معناه: أن رجلاً كان بتلك الديار معروفاً بإصابة العين فسأل منه بعض المؤتوريين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين وكانت كثيرة نحو المستمائة فنظر إليها الرجل العائن فكان غرقها بقدرة الله الذي يفعل ما يشاء ونجى السلطان بنفسه وجرت عليه محن اهـ.

ولما احتل بالجزائر وقد تمسك أهلها ببطاعته استثنق ريح الحياة ولأم الصدع وأقام الرسم وخلع على من وصل إليه من فل الأساطيل واستلتحق واستركب ولحق به ابنه الناصر من بسكرة والتلف عليه بعض العرب من أحواز الجزائر ووفد عليه أولياؤه من عرب سويد فنهض إلى جهة تلمسان وقد استولى عليها بنو زيان وسلطانهم عثمان بن عبد الرحمن فبرز إليه أبو ثابت

أخو عثمان المذكور ولما التقى الجماعان احتل مصاف السلطان أبي الحسن واستبيح معسكره وانتهت فساطيته وقتل ابنه الناصر، وظهر يومئذ من بسالته وصدق دفاعه وشدة حملاته حتى أنه أركب ظعاته وخلص محامياً عنها واحتفل ولده جريحاً فتوفي بالطريق فواراه في التراب وأخفي قبره، ثم خلص إلى الصحراء مع وليه وزمار بن عريف بن يحيى السويدي ولحق بحلل قومه قبلة جبل وانشريس وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزه ودار ملكه فارتاحل معه وليه وزمار بالتاجعة من قومه وخرجوا إلى جبل راشد ثم قطعوا المقاوز إلى سجلماسة في القفر، فلما أطلوا عليها وعاين أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفراش على ضوء السراج حتى خرج إليه العذاري من ستورهن ميلاً إليه ورغبة في ولائه، وفر العامل بسجلماسة إلى منجاته.

وكان الأمير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد أبيه سجلماسة نهض إليه في قومه وجماعوه بعد أن أزاح علّهم وأفاض عطاءه فيهم، وكانت بنو مرین نافرة عن السلطان أبي الحسن حاذرة من عقوبته لجنائيتهم بالتخاذل في المواقف والفرار عنه في الشدائـد ولما كان يبعد بهم في الأسفار ويتجشم بهم المهالك والأخطار فكانوا لذلك مجتمعين على منابذته ومخلصين في طاعة ابنه، ولما اتصل خبر قدومهم بالسلطان أبي الحسن علم من حاله أنه لا يطيق دفاعهم وكان وزمار قد أجهل عنه في قومه سعيد لأن آباء عريف بن يحيى كان قد نزع إلى أبي عنان قبل قدم السلطان من تونس فأكرم محله ورفع منزلته فكتب إلى ابنه وزمار ينهاه عن ولایة السلطان أبي الحسن ومظاهرته له وأقسم له لشن لم يفارق السلطان ليوقعن بابنه عنتر وكان معه في جملة الأمير أبي عنان فائز وزمار رضا أبيه وعلم أن غناه عن السلطان في وطن المغرب قليل فأجهل عنه ولحق بسكنة فكان بها إلى أن رجع إلى أبي عنان بعد هذا، ولما قرب أبو عنان من سجلماسة أجهل السلطان عنها إلى ناحية مراكش ودخل أبو عنان سجلماسة فتفق أطرافها وسد فروجها وعقد عليها ليحاتن بن عمر بن عبد المؤمن كبيربني ونكاسن وبلغه أن آباء قد سار إلى مراكش فاعتزم على اتباعه إليها فلم تطاووه بنو مرین فرجع بهم إلى فاس إلى أن كان ما ذكره.

استيلاء السلطان أبي الحسن على مراكش ثم انهزامه عنها إلى هناته أهل جبل درن ووفاته هناك

لما أجهل السلطان أبو الحسن عن سجل ماسة سنة إحدى وخمسين
وسبعمائة قصد مراكش وركب إليها الأوار من جبال المصاصدة، ولما شارفها
تسارع إليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب ونسروا إليه من كل حدب، وفر
عامل مراكش إلى أبي عنان ونزع إلى السلطان أبي الحسن صاحب ديوان
الجباية أبو المجد بن محمد بن أبي مدين بما كان في الخزانة من مال الجباية
فاختصه واستكتبه وجعل إليه علامته، واستركب واستلحق وجيبي الأموال
وبيث العطاء ودخل في طاعته قبائل العرب من جسم وسائر المصاصدة، وثاب
له بمراكب ملك رجي معه أن يستولي على سلطانه ويرتاجع فارتطف أمره.

وكان أبو عنان لما رجع إلى فاس عسكر بساحتها وشرع في العطاء
وإزاحة العلل، ثم ارتحل في جموعبني مرين إلى مراكش ويرز السلطان أبو
الحسن للقاء وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم الربع وتربص كل
واحد بصاحب عبرة الوادي فعبره أبو الحسن، وكان اللقاء بتامدغوسن في
آخر صفر من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فاختلت مصادف السلطان وانهزم
عسكره، ولحق به أبطالبني مرين ثم راجعوا عنه حياء وهيبة وكببي به فرسه
يومئذ في مفره فسقط إلى الأرض والفرسان تحوم حوله، فاعتراضهم دونه أبو
دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الذواودة من عرب رياح ورديف أخيه
يعقوب كان هاجر مع السلطان من الجزائر ولم يزل في جملته إلى هذا اليوم
فدافع عنه حتى ركب وسار من ورائه ردأ له، وأسر حاجبه علال بن محمد
فأودعه أبو عنان السجن ثم امتن عليه بعد وفاة أبيه.

وخلص السلطان أبو الحسن رحمه الله إلى جبل هناته من جبال درن
ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي الهناتي فنزل عليه وأجاره
واجتمع إليه الملا من قومه هناته ومن انصاف إليهم من المصاصدة وتأمروا

وتعاهدوا على المدافعة عنه وبابيعوه على الموت وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل بمراكيش وأنزل عساكره على جبل هناتنة ورتب المسالح لحصاره وحربه وطال عليه ثراؤه حتى طلب السلطان من ابنه الإبقاء عليه وأن يبعث إليه حاجبه أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمر فحضر عنده وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان والتمس له الرضا منه فرضي عنه وكتب له بولاية عهده وأوعز إليه بأن يبعث له مالاً وكسي فسرح الحاجب ابن أبي عمر بإخراجها من المودع بدار ملكهم واعتقل السلطان خلال ذلك فمرضه أولياؤه وخاصة وافتقد لإخراج الدم ثم باشر الماء للطهارة فورم محل الفصادة ومات رحمة الله في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة الثتين وخمسين وسبعمائة^(١) هكذا عند ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما، والذيرأيته مكتوباً بالنقش على رخامة قبره بشالة أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ربيع الأول من السنة المذكورة ويعث أولياء السلطان بالخبر إلى ابنه وهو بمعسكره من ساحة مراكيش ورفعوه على أعواذه نعشة إليه فتلقاء حافياً حاسراً، وقبل أعواذه وبكي واسترجع ورضي عن أوليائه وخاصة وأنزلهم بال محل الذي رضوه من دولته؛ ثم دفن أبوه بمراكيش قبلي جامع المنصور من القصبة بالموضع الذي به اليوم قبور الملوك الأشرف السعديين، ثم لما نهض أبو عنان إلى فاس احتمل شلو أبيه معه حتى دفنه بشالة مقبرة سلفهم ولا زال ضريحه قائماً العين والأثر إلى الآن رحمة الله تعالى.

بقية أخبار السلطان أبي الحسن وسيرته

كان السلطان أبو الحسن رحمة الله أسمراً طويلاً القامة عظيم الهيكل معندي اللحية حسن الوجه، وكان عفناً مائلاً إلى التقوى، مولعاً بالطيب لم يشرب الخمر قط لا في صغره ولا في كبره، محباً للصالحين عدلاً في رعيته

(١) حكى المؤلف قوله آخر في كتابه «كشف العرين عن ليوث بنى مرين» أنه مات مسموماً، وفي الروضة أنه مات بذات الجنب والله أعلم.

يحب الفخر ويعنى به، وقال بعض المشارقة في حقه ما صورته: «ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله، وجرت إلى المشرق أنواع نواله وطابت نسماته واشتهرت عزماه كان حسن الكتابة كثير الإنابة ذا بلاغة وبراعة وشهامة وشجاعة». اهـ وينى رحمه الله عدة مدارس منها المدرسة العظمى بمراكن قبلي جامع ابن يوسف، قال العلامة اليفريني في «النزهة»: «إن الذي بناها هو السلطان أبو الحسن المذكور» قلت: «ومن وقف على هذه المدرسة وتأمل تنجيدها وتنميقها قدر قدر هذا السلطان وعلم عظم أهميته ومحبته للعلم وأهله» ومنها المدرسة العظمى بطاعة سلا قبلي المسجد الأعظم منها، بناها رحمة الله على هيئة بديعة وصنعة رفيعة؛ وأودع جوانبها من أنواع النتش وضروب التخرير ما يغير البصر ويدهش الفكر، ووقف عليها عدة أوقاف رصع أسماءها بالنقش والأصباغ على رخامة عظيمة ثم نصب الرخامة بالحاط الجوفي منها كل ذلك محافظة على تلك الأوقاف أن تغير، وأما المسجد الأعظم ومدرسته الجوفية فهما من بناء يعقوب المنصور الموحدي حسبما تقدم ذلك في أخباره وعندى أن سور المحمول عليه الماء الداخل إلى سلا المعروف عندهم بسور الأقواس من بناء السلطان أبي الحسن رحمة الله، ولې في ذلك مستند غريب: وهو أنى كنت ذات يوم أفاوض بعض القناقة بسلا من كان يباشر أمر المياه بها ويصلح ما احتاج إلى الإصلاح منها، فقلت كالمستفهم لنفسي من غير قصد توجيه الخطاب إليه. يا ترى من الذي بني سور الماء الداخل إلى البلد، فقال على البديهة: الذي بني المدرسة هو الذي بني سور الماء، فقلت له وكنت متشوشاً يومئذ لتحقيق ذلك. وما علمك بهذا؟ فقال: إن بيلة المدرسة بنيت يوم بنيت المدرسة بدليل الزليج المرصوف حولها بالعمل الكبير الموجود نظيره في سائر حيطان المدرسة وسواريها، وهذه البيلة لم تتغير عن حالها إلى أن باشرت إصلاحها في هذه الأيام؛ فحفرت عن قنواتها وتبعثت مادة الماء الواصل إليها فإذا عمل تلك القوايس وصنعة بنائهما حتى الكلس المفرغ عليها الجامع بينها مماثل لعمل قنوات مبنية بالسور المذكور، داخلة فيه بحيث بني عليها يوم تأسيسه من غير

فوق بين هذه وتلك في جميع عملهما، وليس بشيء من القنوات الحادثة بعدهما يشبههما، فلعلت أن الذي بناهما واحد فأعجبني كلامه وباحتته في ذلك فصمم على معتقده وحاولت تشكيكه بكل وجه فلم يتشكل فظهر لي صدق دليله وغلب على ظني ما جزم به وعنده الله علم حقيقة الأمر.

واعلم أن هذا السور من المبني العادي والهياكل العظيمة التي تدل على فخامة الدولة وكمال قوتها مثل ما يقال عن حنابا قرطاجنة ونحوها، وهذا السور مسوق من عيون البركة خارج مدينة سلا على أميال كثيرة ممتداً من القبلة إلى الجوف على أضخم بناء وأحكمه، موزون سطحه بالميزان الهندسي ليأتي جريان الماء فوقه على استواء ولذلك ينخفض إلى الأرض متى ارتفعت ويعلو عنها إذا انخفضت، ويجري على متنه من الماء مقدار النهر الصغير في ساقية قد اتخذت له، ولما شارف البلد عظم ارتفاعه جداً لأجل انخفاض الأرض عنه وكلما مر في سيره بطريق مسلوك فتحت له فيه أبواب فسمى لذلك سور الأقواس، وبالجملة فهو شاهد لبانيه بضخامة الدولة وعظم الهمة.

للسلطان أبي الحسن رحمه الله بفاس ومكناة وغيرهما من بلاد المغرب آثار كثيرة، فمن آثاره بفاس بيلة الرخام الأبيض المجلوبة من المرية زنتها مائة قطار وثلاثة وأربعون قطاراً، سقطت من المرية إلى مرسى العرائش ثم طلت في وادي قصر كتامة؛ ثم حملت على عجل الخشب تجرها القبائل إلى منزل أولاد محبوب الذين على ضفة وادي سبو فوصلت فيه إلى أن وصلت إلى ملتقاه مع وادي فاس، ثم حملت على عجل الخشب أيضاً يجرها الناس إلى أن وصلت إلى مدرسة الصهريج التي بعدها الأندلس؛ ثم نقلت منها بعد ذلك بأعوام إلى مدرسة الرخام التي أمر رحمه الله ببنائها جوف جامع القرويين المعروفة اليوم بمدرسة مصباح، ومصباح هذا هو أبو الضياء مصباح بن عبد الله الباصلي الفقيه المشهور، وإنما نسبت إليه لأن السلطان أبي الحسن لما بناها كان أبو الضياء أول من تصدى للدرس بها فنسبت إليه وقد تقدم لنا خبر المدرسة التي بناها غربي جامع الأندلس أيام أبيه وأنفق عليها أكثر من مائة ألف دينار، ومن آثاره بمكانة الزيتون الزاويتان القديمة والجديدة وكان بني القديمة

في زمان أبيه والجديدة حين ولـي الخلافة، ولـه في هذه المدينة عـدة آثار سـوى الزـاويتين من القـنـاطـر والـسـقاـيات وـغـيرـها، وـمـنـأـجلـذـلـكـالمـدـرـسـةـالـجـدـيـدـةـبـهـاـوـكـانـقـدـمـلـلـنـظـرـعـلـىـبـنـاـنـهـاـقـاضـيـهـعـلـىـالـمـدـيـنـةـالـمـذـكـورـةـوـلـمـتـبـنـاـزـهـاـجـاءـإـلـيـهـاـمـنـفـاسـلـيـقـعـلـيـهـاـوـبـرـىـعـلـمـهـاـوـصـنـعـتـهـاـفـقـعـدـعـلـىـكـرـاسـيـمـنـكـرـاسـيـالـوـضـوءـحـولـصـهـرـيـجـهـاـ،ـوـجـيـءـبـالـرـسـومـالـمـتـضـمـنـةـلـلـتـنـفـيـذـاتـالـلـازـمـةـفـيـهـاـ،ـفـغـرـقـهـاـمـنـالـصـهـرـيـجـقـبـلـأـنـيـطـالـعـمـاـفـيـهـاـوـأـنـشـدـ:ـ

لا بأس بالغالـيـإـذـاـقـيـلـحـسـنـلـيـسـلـمـاـقـرـتـبـهـالـعـيـنـثـمـ

وـكـانـلـهـمـعـرـفـةـبـالـشـعـرـفـمـنـشـعـرـهـقـوـلـهـ:

أـرضـيـالـلـهـفـيـسـرـوـجـهـرـ وأـحـمـيـالـعـرـضـعـنـدـنـسـأـرـيـابـ
وـأـعـطـيـالـوـفـرـمـنـمـالـيـأـخـتـيـارـاـ وأـضـرـبـبـالـسـيفـطـلـيـالـرـقـابـ

وـأـخـبـارـهـكـثـيرـةـوـمـنـأـرـادـالـوـقـوفـعـلـىـتـفـاصـيلـهـاـفـعـلـيـهـبـكـتاـبـالـخـطـيـبـبـنـمـرـزـوقـالـذـيـأـلـفـهـفـيـدـوـلـتـهـوـسـيـرـتـهـوـسـمـاهـ«ـالـمـسـنـدـالـصـحـيـحـالـحـسـنـمـنـأـحـادـيـثـالـسـلـطـانـأـبـيـالـحـسـنـ»ـوـلـمـذـكـرـالـوزـيرـابـنـالـخـطـيـبـفـيـكـتاـبـهـرـقـمـالـحـلـلـهـذـاـالـسـلـطـانـوـصـفـهـبـقـوـلـهـ:

وـمـجـمـوعـالـقـوـلـإـذـالـقـوـلـاـخـتـلـفـ	الـمـلـكـالـمـعـدـودـمـنـخـيـرـسـلـفـ
وـالـعـزـوـالـقـدـرـوـالـجـزـالـهـ	الـدـيـنـوـالـعـفـافـوـالـجـلـالـةـ
وـصـفـوـةـالـصـفـوـةـمـنـمـرـيـنـ	وـالـعـلـمـوـالـحـلـمـوـفـضـلـالـدـيـنـ
وـوـاحـدـالـدـهـرـوـفـخـرـالـزـمـنـ	مـمـهـدـالـمـلـكـوـمـسـدـيـالـمـنـنـ
بـمـقـتـضـىـهـمـنـهـالـمـنـيـفـهـ	بـانـيـالـمـبـانـيـالـنـخـبـةـالـشـرـيفـةـ
شـاهـدـةـبـأـنـهـالـخـلـيـفـهـ	وـتـارـكـالـمـدـارـسـالـظـرـيـفـهـ
فـيـمـجـلـسـمـعـظـمـأـوـبـهـرـ	وـقـاطـعـالـدـهـرـبـغـيرـلـهـوـ
أـوـلـبـلـادـمـنـعـدـوـتـحـرـسـ	أـمـاـلـتـدـرـيـسـوـعـلـمـيـدـرـسـ
أـوـلـشـوـابـوـرـضـاـيـلـتـمـسـ	أـوـلـأـيـادـفـيـعـبـادـتـغـرسـ
أـوـنـسـخـقـرـآنـوـعـرـضـحـزـبـ	أـوـنـسـخـقـرـآنـوـعـرـضـحـزـبـ
وـمـنـأـعـيـانـوـزـرـائـهـعـامـرـبـنـفـتـحـالـلـهـالـسـدـرـاتـيـ،ـوـعـبـدـالـلـهـبـنـإـبـراـهـيمـ	

الفودودي ومن أعيان كتابه أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي وأبو محمد بن عبد الله بن أبي مدين العثماني، وأبو الحسن علي بن القباعيلي التينملي رحم الله الجميع يمتهن.

ولنذكر ما كان من الأحداث في هذه المدة⁽¹⁾:

ففي سنة سبعمائة أسس السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق
تلمسان الجديدة المسمى بالمنصورة حسبما تقدم الخبر عنها مستوفى .

وفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة كان القحط بالمغرب فاستسقى الناس
وخرج السلطان أبو سعيد ماشياً على قدميه لإقامة سنة الاستسقاء وذلك يوم
الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان من السنة المذكورة وتقدمت أمامه الصالحة
والفقهاء والقراء يدعون الله تعالى، وقدم بين يدي نجواه صدقات، وفرق
أموالاً، وفي يوم السبت بعده خرج في جنده إلى قبر الشيخ أبي يعقوب الأشقر
بجبل الكندرتين فدعا هنالك ورحم الله تعالى عباده وغاث أرضه وبلاده.

وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة توفي الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي المعروف بالصغير بضم الصاد وفتح الغين وكسر الياء المشددة قاله ابن الخطيب في الإحاطة، وكان ربعة آدم اللون حفيف العارضين يلبس أحسن زي، ويدرس بجامع الأجدع من فاس يقعد على كرسي عال ليسمع القريب والبعيد على انخفاض كان في صوته وكان حسن الإقراء وفوراً صبوراً ثبتاً، وكان أحد الأقطاب الذين تدور عليهم الفتيا بالمغرب فيحسن

(١) قد ذكر صاحب روضة النسرين بعض أولاد السلطان أبي الحسن فقال: «أولاده الذكور السلطان أبو عمر تاشفين والسلطان أبو عنان فارس والسلطان أبو سالم إبراهيم والسلطان أبو فارس عبد العزيز وأبو مالك عبد الواحد وأبو عبد الرحيم بعقوب وأبو عامر عبد الله وسعود وداود ويوسف عبد الحق وأبو غالب محمد وأحمد ومحمد المنتصر بالله ومحمد المسعود بالله. بناته: حضرية وأم العز وتابو وتعزنت وسونة وريمة ويامنة والزهراء وصفية وزروا وكان جميع ما ولد بين ذكر وأئش وسقط وغيره ألفاً وثمانمائة اثنين وستين أخبرني بذلك ثقته الشيخ المعمر علال بن محمد بن مصمرود الهمسكوني».

التتوقيع عليها على طريق الاختصار وترك فضول القول ولاه السلطان أبو الربيع القضاة بفاس وشد عضده فجرى في العدل على صراط مستقيم.

وفي سنة إحدى وعشرين وسبعمائة توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء الإمام المشهور في علم التعاليم والهيئة والتنجوم والأزياج وغير ذلك، وكان رحمة الله عز وجل معروفاً باتباع السنة موسوماً بظهوره الاعتقاد منعوتاً بالصلاح وكان انتفاعه بصحة الشيخ أبي زيد الهمزميري رضي الله عنه.

وفي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة في ذي القعدة منها هبت ريح شديدة بفاس ومكناسة وأحوازهما واستمر هبوبها يومين وليلتين فعاقت عن الأسفار وهدمت الدور وقلعت الأشجار.

وفي سنة ثلاث وعشرين بعدها في المحرم منها جرت العين الموالية للمشرق من عيون صنهاجة بأحواز فاس بدم عبيط من وقت العصر إلى نصف الليل ثم عادت إلى حالها وفيها كان المطر العظيم والثلج الكثير بال المغرب وعدم الفحم والخطب حتى بيع الفحم بفاس بدرهمين للرطل، وفي جمادي الأولى منها احترق سوق العطارين الكبير بفاس فجدده السلطان أبو سعيد من باب مدرسة العطارين إلى رأس عقبة الجزارين، وعقد عليه هنالك بابة ضخماً وأفرده للعطارين دون غيرهم.

وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة كانت المجاعة بالمغرب وارتقت الأسعار في جميع البلاد فبلغ المد من القمح بفاس خمسة عشر درهماً والصحفة منه تسعين ديناراً وغلا الإدام وعدمت الخضر بأسراها، وكسى السلطان أبو سعيد وأطعم في هذه المسغية شيئاً كثيراً، ودام ذلك إلى قرب منتصف السنة بعدها، وفيها في يوم الثلاثاء ثالث عشر رمضان منها نشا خارج فاس من جهة جوفها سحاب عظيم وظلمة شديدة ورياح عاصفة أعقب ذلك برد كثير عظيم الجرم تزن الواحدة منه ربع رطل وأقل وأكثر ونزل في خلاله مطر وأبل جاءت منه السيول طامية حملت الناس والدواب وأهلكت جميع ما يجبل زالغ من الكروم والزيتون وسائر الشجر.

وفي سنة خمس وعشرين يعدها ليلة الجمعة السادس والعشرين من جمادى منها دخل السبيل العظيم مدينة فاس وكاد يأتي عليها بحث هدم الدور والمساجد والأسواق وأهلك آلافاً من الخلق حتى خيف على البلد التلف.

وفي سنة ست وعشرين وسبعين انتهى تاريخ ابن أبي زرع المسمى: «بالأنبياء المغرب القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» وما هو الغاية في باب الأغраб ما ذكره ابن خلدون قال: «حضر أشياعنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه أمرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنتين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا وذكرهما أيضاً الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقرري في كتابه المسمى بـ «المحاضرات» قال: «وردت على تلمسان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رندة لا تأكل ولا تشرب ولا تبول ولا تتغوط وتحيض فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الإمام وتلى: «كانا يأكلان الطعام» فأخذ الناس يبتون ثقات نسائهم ودهنهن إليها فكشفوا عنها بكل وجه يمكنهن فلم يقفن على غير ما ذكر، وسئلته هل تستهين الطعام، فقالت: «هل تستهين التبن بين يدي الدواب» وسئلته هل يأتيها شيء فأخبرت «أنها صامت ذات يوم فأدركها الجوع والعطش فنامت فأفاتها آت في النوم بطعم وشراب فأكلت وشربت فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت فهي على تلك الحال تؤتي في المنام بالطعام والشراب إلى الآن»، ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى تجيء أمرها به إذا أتت إليها أربعين يوماً فلم يوقف لها على أمر، قال: «بيد إني أردت أن يزداد في عدد العدول وبضم إليهم الأطباء ومن يخوض في المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم ويوكل من نساء الفرق من يبالغ في كشف من يدخل إليها ولا يترك أحداً يخلو بها (وبالجملة) يبالغ في ذلك ويستخدم رعيتها عليه سنة لاحتمال أن يغلب عليها طبع فسقتنى في فصل دون فصل، ثم يكتب هذا في العقود ويشاع أمره في العالم، وذلك لأنه يهدى حكم الطبيعة الذي

هو أضر الأحكام على الشريعة، ويبين كيفية غذاء أهل الجنة، وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء ويبطل التأثير والتولد، ويوجب أن الاقترانات بالعادات لا باللزوم، وعند الأسباب لا بها إلى غير ذلك، إلا إني لما أشرت بهذا انقسم من أشرت عليه بتبلیغه إلى من لم يفهم ما قلت ومن لم يرفع به رأساً لإیشار الدنيا على الدين فإنما الله وإنما إليه راجعون.

قال المقرئ: «وقد ذكر أن امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة» وحدثني غير واحد من الثقات ممن أدرك عائشة الجزرية أنها كانت كذلك، وإن عائشة بنت أبي بكر يعني زوجة السلطان أبي الحسن التي استشهدت في طريف اختبرتها أربعين يوماً أيضاً وكم من آية أضيعت وحججة نسيت مما لم يعرف مثله قبل المائة الثامنة، وكذلك الوباء العام القريب فروطه يوشك أن يطول أمره فينسى ذكره ويكتبه المحدث به إذا انقضى عصره، وكم فيه من أدلة على أصول الملة» اهـ كلام الشيخ أبي عبد الله المقرئ رحمة الله يعني بالوباء القريب فروطه: وبناء منتصف المائة الثامنة أيام كان السلطان أبو الحسن بتونس فإنه كان وباء عظيماً لم يعهد مثله قد عم أقطار الأرض وتحيف العمران جملة حتى كاد يأتي على الخليقة أجمع والأمور كلها بيد الله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

الخبر عن دولة السلطان المتكفل على الله أبي عنان فارس بن أبي الحسن رحمة الله

كان هذا السلطان محبوباً في قومه وعشائره، أثيراً عند والده متميزاً بذلك عن سائر إخوته لفضله وعمله وصيانته وعفافه واستظهار القرآن الكريم وغير ذلك من الأوصاف الحسنة، أمّه أم ولد رومية اسمها شمس الضحى وقبرها بشالة معروفة إلى الآن رأيت مكتوبًا عليه بالنقش: «أنها توفيت ليلة السبت رابع رجب الفرد سنة خمسين وسبعمائة، ودفنت إثر صلاة الجمعة في الخامس والعشرين من الشهر المذكور وحضر لدفنها أعيان المشرق

والمغرب»، اهـ وكان مولد السلطان أبي عنان بفاس الجديد في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وسبعمائة وبوبيع في حياة والده يوم ثار عليه بتلمسان حسبما قدمنا الخبر عنه وذلك يوم الثلاثاء منسلخ ربيع الأول سنة تسع وأربعين وسبعمائة. ولما هلك والده أبو الحسن يجلب هتاتنة وانقضى شأن الحصار ارتحل السلطان أبو عنان إلى فاس ونقل شلو أبيه إلى شالة فدفنه بها، وأخذ السير إلى فاس وقد استتب أمره وخلاله الجو فاحتل بدار ملكه وأجمع^(١) أمره على غزوبني عبد الواد لارتفاع ما بأيديهم من الملك الذي تطاولوا إليه. ولما دخلت سنة ثلاثة وخمسين وسبعمائة نادي بالعطاء وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد وعرض جيشه ثم نهض يريد تلمسان.

وأتصل خبره بسلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن الزياني فجتمع له قومه ومن شايدهم من زناته والعرب، ثم نهض إليه ومعه أخوه وزيره أبو ثابت فكان اللقاء ببساط أنكاد آخر ربيع الثاني من السنة المذكورة، وأجمع بنو عبد الواد على صدمة المرينيين وقت القائلة وعند ضرب الأبنية وسقاء الركاب وافتراق أهل المعسكر في حاجاتهم، فحملوا عليهم وأجعلوه عن ترتيب المصفاف وركب السلطان أبو عنان لتلافي الأمر وخاض بحر القتال وقد أظلم الجو بالغبار، حتى إذا خلص إليهم وحالطهم في صفوفهم ولدوا الأدباء، واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوهم قتلاً وسبباً وصفدوهم أسرى ولم يزالوا في اتباعهم إلى الليل، وتقدمو على التعبية سلطانهم أبي سعيد فساقوه إلى السلطان أبي عنان فاعتقله، وتقدم على التعبية إلى تلمسان فدخلها في ربيع المذكور واستوت في ملكها قدمه، وأحضر أبا سعيد فوبخه وأراه أعماله حسرات عليه، ثم أحضر الفقهاء وأرباب الفتيا

(١) في بغية الرواد أن الأمر كان على ما ينبغي بين أبي عنان وملك تلمسان أبي سعيد إلى أن كتب أبو عنان لأبي سعيد متشفعاً في مغراوة الذين كان محاصراً لهم فرد شفاعته فحقن على بنوي عبد الواد من أجل ذلك واستنفر الناس لغزو تلمسان الخ بغية الرواد ص 158 وما بعدها جزء أول طبع الجزائر 1321.

فأقتوا بحرابته وقتلته فأمضى حكم الله فيه فذبح في محبسه لتسعة من اعتقاله.

وفر أخوه الرعيم أبو ثابت إلى قاصية الشرق بعد أن احتمل معه حرمه وحرم أخيه ومتخلفهم، واحتل بوادي شلف من بلاد مغراوة فعسكر هنالك واجتمع عليه أوشاب من زناته وحدث نفسه باللقاء ووعدها بالصبر والثبات.

واتصل خبره بالسلطان أبي عنان فسرح إليه وزيره فارس بن ميمون في عساكربني مرين والجند فأخذ السير إليهم، ثم ارتحل السلطان أبو عنان من تلمسان على أثره، ولما تراءى الجمعان تصادقا الحملة وخاض النهر بعضهم إلى بعض ثم صدق بنو مرين الحملة فاجتازوا النهر وانكشفت بنو عبد الواد وتابع بنو مرين آثارهم فاستحلّ حموهم ثانية واستباحوا معسكرهم واستاقوا نساءهم وأموالهم ودوايهم، وكتب الوزير بالفتح إلى السلطان أبي عنان وفر أبو ثابت إلى قاصية الشرق في نفر من عشيرته وبني أبيه فاعتراضتهم قبائل زواوة فانتهياً أسلابهم وأرجلوهم عن خيولهم ومرروا على وجوههم حفاة عراة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وكتب الوزير إلى أمراء الشغور في شأن أبي ثابت وأصحابه فأذكروا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمرصاد حتى عشر عليهم بعض الحشم، فقبضوا على أبي ثابت وابن أخيه أبي زيان بن أبي سعيد المقتول وزيرهم يحيى بن داود، فرفعوهم إلى أمير بجاية أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء بن أبي بكر الحفصي وكان خالصه للسلطان أبي عنان منذ أيام والده فاعتقلهم عنده حتى وفدهم عليه بلدية، فأكرم السلطان أبو عنان وفادته وركب للقاء، لما تراءيا نزل الحفصي عن فرسه إعظاماً للسلطان فنزل السلطان مكافأة له ولقاء مبرة وكراهة، وأودع أبي ثابت السجن وتواتفت إليه وفود الذواودة بمكانه من لمدية فأكرم وفادتهم، وأسنى عطياتهم من الخلع والحملان والذهب والفضة وانقلبوا خيراً منقلب، ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل بسكرة والزارب مع وفدهم فأكرمهم ووصلتهم، وفرغ السلطان أبو عنان من شأن المغرب الأوسط وبث عماله في نواحيه وثقف أطراfe وسمى إلى تملك إفريقياً على ما نذكره إن شاء الله.

تملك السلطان أبي عنان بجایة وتولية عمر بن علي الوطاسي عليها

لما وفَدَ أبو عبد الله الحفصي على السلطان أبي عنان بل مدية في شعبان من سنة ثلاثة وخمسين وسبعين وسبعيناً وبلغ في إكرامه ناجاه بذات صدره، وشكَا إليه ما يلقاه من رعيته من الامتناع من الجباية والسعى في الفساد وما يتبع ذلك من شفاق الحامية واستبداد البطانة، وكان السلطان أبو عنان متشففاً لمثلها فأشار عليه بالنزول عنها وأن يعرضه عنها ما شاء من بلاده، فسارع إلى قبول ذلك ودس إليه السلطان مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يشهد بذلك على رؤوس الملاّف ففعل وعرضه عنها مكناسة الريتون، ونقم بطانة الحفصي عليه ونزع بعضهم عنه إلى إفريقية وأمره السلطان أبو عنان أن يكتب بخطه إلى عامله على بجایة بالنزول عنها وتمكن عمال السلطان منها ففعل، وعقد أبو عنان عليها لعمر بن علي الوطاسي من بني الوزير الذين قدمنا خبر ثورتهم بحسن تزاوطاً أيام يوسف بن يعقوب، ولما قضى السلطان أبو عنان حاجته من المغرب الأوسط واستولى على بجایة ثغر إفريقية انكفاً راجعاً إلى تلمسان لشهود عيد الفطر بها ودخلها في يوم مشهود، حمل أبا ثابت الزبياني وزيراً يحيى بن داود على جملين ودخل بهما تلمسان يخطowan بهما في ذلك المحفل بين السماطرين فكانوا عبرة لمن حضر، ثم جنباً من الغد إلى مصارعهما فقتلا قعضاً بالرماح وإلى الله عاقبة الأمور.

ثورة أهل بجایة ومقتل عمر بن الوطاسي بها

لما قدم عمر بن علي الوطاسي بجایة واستقر بها ثقل أمره على نفوس أهلها لأنهم ملکة الحفصيين واصباغهم بالميل إليهم، فتربيصوا بالوطاسي الدوائر وكان أبو عبد الله الحفصي قد استصحب معه في وفاته على السلطان أبي عنان حاجبه فارحاً مولى ابن سيد الناس، فلما نزل

للسلطان عن بجاية نقم فارح عليه ذلك وأسرها في نفسه إلى أن بعثه الحفصي المذكور مع الوطاسي لينقل حرمته ومتاعه وما عنون داره إلى المغرب، فانتهى إلى بجاية وبينما هو يحاول ما أرسل في شأنه شكا إليه الصنهاجيون سوء ملكةبني مرين فنجع كلامهم فيه ونفت لهم بما عنده من الصفن ودعاهم إلى الثورة بالمربيين والقيام بدعاوة الحفصيين، فأجابوه إلى ذلك وتواعدوا للفتك بعلي بن عمر الوطاسي بمجلسه من القصبة، وتولى كبرها منصور بن إبراهيم بن الحاج من مشيختهم وباكره في داره على عادة الأمراء، ولما أكب عليه ليثم أطراقه طعنه بخنجره ثم ولج عليه الباكون فاستلجموه وذلك في ذي الحجة من سنة ثلاثة وخمسين وسبعمائة وثارت الغوغاء بالبلد وهتف الهاتف بدعاوة أبي زيد بن محمد بن أبي بكر الحفصي صاحب قسنطينة، وطيروا إليه بالخبر واستدعوه فتناقل عنهم وبلغ الخبر إلى السلطان أبي عنان فاتهم أبا عبد الله الحفصي بمحاولة حاجبه فارح في ذلك فاعتقله بداره واعتقل وفداً من أشراف بجاية كانوا ببابه، ثم راجع شيوخ بجاية بصائرهم وتداركوا أمرهم في الرجوع إلى طاعة السلطان أبي عنان واتفق رأيهم على أن يرقصوا هذا الخرق ويسدوا هذه الثلمة برأس الحاجب فارح وصنهاجة الشائزين معه، ودخلتهم في ذلك القائد هلال مولى ابن سيد الناس ولما عزموا على أمرهم دعوا الحاجب فارحاً إلى المسجد ليقاوضوه فيما نزل بهم فأحسن بالشر ولجا إلى دار الشيخ أبي العباس أحمد بن إدريس البجائي إمام بجاية ومفتيها، فاقتربوا عليه الدار وبشره مولاه محمد بن سيد الناس بطعنة فأنفذه ورمى بشلوه من أعلى الدار، فاحتزوا رأسه وبيتوا به إلى السلطان أبي عنان وفر منصور بن إبراهيم بن الحاج وقومه صنهاجة عن البلد، وسرح السلطان أبو عنان إليها حاجبه أبا عبد الله محمد بن أبي عمرو في الكتاب فدخلها فاتح سنة أربع وخمسين وسبعمائة، وذهبت صنهاجة في كل وجه ولحق أصحاب الفعلة منهم بتونس وتقبض الحاجب ابن أبي عمرو على جماعة من غوغاء بجاية

المتهمين بالخوض في الفتنة ينهازون المائتين فاعتقلهم وأركبهم الأسطول إلى المغرب فأطمان الناس وسكنوا، وتوافت لديه وفود الذواودة من كل جهة فأجزل صلاتهم، ووفد عليه عامل الزاب يوسف بن مزنني فأكرم وفادته، ثم ارتحل إلى تلمسان غرة جمادى الأولى من السنة ومعه شيخ الذواودة ووجوه بجایة.

قال ابن خلدون: وكنت يومئذ في جملتهم فجلس السلطان للوفد وعرض ما جنب إليه من الجياد والهدايا وكان يوماً مشهوداً، وانصرفوا إلى مواطنهم فاتح شعبان من السنة المذكورة، قال: وانقلب مع الحاجب بعد إسناء الجائزة والخلع والحملان من السلطان والوعد العجميل بتجديد ما إلى قومي بيلاقي من الإقطاعات، ولما احتل الحاجب ابن أبي عمرو بجایة ضبط أمرها وأقام أودها وألح على قسطنطينة بترديد البعثة وتجهيز الكتاب إلى أن أذعنوا للطاعة ومكنته من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنصوب هناك للفتنة وأوفد أبو زيد الحفصي صاحب قسطنطينة ابنه على السلطان أبي عنان فقبل وفادته وشكر سعيه وانكفا الحاجب ابن أبي عمرو إلى بجایة وأقام بها إلى أن هلك في المحرم سنة ست وخمسين وسبعينة فذهب حميد السيرة عند أهل البلد، وعقد السلطان أبو عنان على بجایة لعبد الله بن علي بن سعيد أحد وزرائه فنهض إليها في ربيع من سنة ست وخمسين المذكورة فاستقر بها وسلك سنن الحاجب قبله وسيرته وجهز العساكر إلى حصار قسطنطينة إلى أن كان من فتحها ما ذكره بعد إن شاء الله.

خروج أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن ببلاد السوس ثم مقتله عقب ذلك

قد تقدم لنا أن السلطان أبا الحسن لما ركب البحر من تونس إلى المغرب عقد على تونس لإبنه أبي الفضل هذا، وأنه لما أفلح عنها ثار أهل البلد وشيعة الحفصيين عليه فأخرجوه عنها ولحق بأبيه فكان معه إلى أن هلك وخلص الأمر إلى السلطان أبي عنان فلحق به هو وأخوه أبو سالم، ففكر أبو

عنان في أمرهما وخشي عاقبة ترشيحهما فأشخاصهما إلى الأندلس ليكونا مع الغزارة والقرابة في إبالة السلطان أبي الحجاج يوسف بن الأحمر ثم ندم على ذلك ولما استولى على تلمسان والمغرب الأوسط ورأى أن قد استفحلا أمره واعتزل سلطانه أخذ الرسل إلى أبي الحجاج في أن يشخصهما إليه لأن مقامهما عنده أحوط لجمع الكلمة بخلاف ما إذا غابا عن حضرته، وخشي أبو الحجاج غائلته عليهما فأبي من إسلامهما اليد وأجاب الرسل بأنه لا يخفر ذمته ولا يسيء جوار المسلمين المجاهدين لديه، فغضب السلطان أبو عنان لذلك وقام وقعد وأمر حاجبه ابن أبي عمرو أن يكتب إليه ويبالغ في التوبيخ واللوم ففعل الحاجب المذكور.

قال ابن خلدون: وقد أوقفني الحاجب على ذلك الكتاب بيعجاشية فقضيت عجبأً من فصوله وأغراضه، ولما قرأه أبو الحجاج ابن الأحمر دس إلى أبي الفضل وكان أكبر الأخرين باللحاق بالطاغية وكانت بينهما ولادة ومخالصة فنزع إليه أبو الفضل وجهز الطاغية له أسطولاً أركبه فيه وأنزله بساحل السوس من أرض المغرب، ونذر السلطان أبو عنان بذلك فأوعز إلى قائد أسطوله باعتراض أسطول الطاغية فاعتراضه وأوقع به وكتب ابن الأحمر أثناء ذلك كتاباً إلى السلطان أبي عنان يعتذر عن أمر أبي الفضل من إنشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب ونصه:

«المقام الذي شهد الليل والنهار بأصالة سعادته وجرى الفلك الدوار بحكم إرادته وتعود الظفر بمن يناويه فاطرد والحمد لله جريان عادته فوليه متحقق لإفادته وعدوه مرتفع لإبادته وحلل الصنائع الإلهية تضفو على أعطاف مجادته مقام محل أخيها الذي سهم سعاده صائب وأمل من كاده خاسر خائب وسير الفلك المدار في مرضاته دائم وصنائع الله تعالى له تصحبها الألطاف العجائب فسيان شاهد منه في عصمة وغائب السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاء الله تعالى مسدداً لسهم ماضي العزم، تجل سعده عن تصور الوهم ولا زال مرهوب الحد ممثلاً الرسم موفر الحظ من نعمة الله تعالى عند تعدد القسم، فائزأً بفلج الخصم عند لد الخصم معظم قدره»

وملتزم بره مبتهج بما يسببه الله تعالى له من إعزاز نصره وإظهار أمره فلان، سلام كريم طيب بر عمي، يخص مقامكم الأعلى، ومتباينكم الفضلى التي حازت في الفخر الأمد البعيد وفازت من التأييد والنصر بالحظ السعيد ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذي فسح لكم الرفيع في العز مدى وعرفه عوارف آلاه وعوايد النصر على أعدائه يوماً وغداً وحرس سماء علاته بشهب من قدره وقضائه فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصاداً، يجعل نجع آماله وحسن مآلته قياساً مطرداً فرب مرید ضر نفسه وهاد إليه الجيش أهدي وما هدي والصلة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه ورسوله الذي ملا الكون نوراً وهدى وأحيا مراسم الحق وقد صارت طرائق قدداً أعلى الآنام يداً وأشرفهم محتداً الذي بجهاه نليس أثواب السعادة جدداً ونظفر بالنعم الذي لا ينقطع أبداً والرضا عن آله وأصحابه الذين رفعوا لسماء سنته عمداً وأوضحوا لسبيل اتباعه مقصداً وتقبلوا شيمه الطاهرة ركعاً وسجداً سيفوا على من اعتدى ونجوماً لمن اهتدى حتى علت فروع ملته صعداً وأصبح بناؤها مدیداً مخلداً والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذي يتواتي مثئى وموحداً كما جمع لكم رحمة ما تفرق من الألقاب على توالى الأحباب فجعل سيفكم سفاحاً وعلمكم منصوباً ورأيكم رشيداً وعزمكم مؤيداً فإنما كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم صنعاً يشرح للإسلام خلداً ونصرأ يقيم للدين الحنيفي أوداً وعزمأ يملاً أفتدة الكفر كمداً وجعلكم من هيا له من أمره رشدأ ويسراً لكم العاقبة الحسنة كما وعد به في كتابه العزيز والله أصدق موعداً من حمراء غرنطة حرستها الله ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا استطلاع سعادكم في آفاق العناية واعتقاد جميل صنع الله في البداية والنهاية والعلم بأن ملکكم تحدي من الظهور على أعدائه بآية وأجرى جياد السعد في ميدان لا يحد بغایة وخرق حجاب المعتاد بما لم يظهر إلا لأصحاب الكرامة والولادة ونحن على ما علمتم من السرور بما يهز لكم رحمة المنصور عطفاً ويسدل عليه من العصمة سجفاً فقاسمه الارتياح لموقع نعم الله تعالى نصفاً ونصفاً ونعقد بين أنباء مسرته وبين الشكر لله حلفاً ونعد التشيع له مما يقربنا إلى الله زلفى

ونؤمل من إمداده ونرتفب من جهاده وقتاً يكفل به الدين ويكتفى وتروى غلـلـ التفـوسـ وتشـفـىـ وإلىـ هـذـاـ وـصـلـ اللـهـ سـعـدـكـ وـوـالـىـ نـصـرـكـ وـعـضـدـكـ فـلـاـنـاـ مـنـ لـدـنـ صـدـرـ عـنـ أـخـيـكـمـ أـبـيـ الـفـضـلـ مـاـ صـدـرـ مـنـ الـأـنـقـيـادـ لـخـدـعـ الـآـمـالـ وـالـأـغـرـارـ بـمـوـارـدـ الـآـلـ وـقـالـ رـأـيـهـ فـيـ اـقـتـحـامـ الـأـهـوـالـ وـتـورـطـ فـيـ هـفـوةـ حـارـ فـيـهاـ حـيـرةـ أـهـلـ الـكـلـامـ فـيـ الـأـهـوـالـ وـنـاصـبـ مـنـ أـمـرـكـمـ السـعـيدـ جـبـلاـ قـضـىـ اللـهـ لـهـ بـالـاسـقـارـ وـالـاسـقـلـالـ وـمـنـ ذـاـ يـزـاحـمـ الـأـطـوـادـ وـيـزـحـزـجـ الـجـبـالـ وـأـخـلـفـ الـظـنـ مـنـاـ فـيـ وـفـائـهـ وـأـضـمـرـ عـمـلـاـ إـسـتـأـثـرـ عـنـاـ بـإـخـفـائـهـ وـاسـتـعـانـ مـنـ عـدـوـ الـدـيـنـ بـمـعـينـ فـلـاـ وـرـىـ لـمـنـ اـسـتـنـصـرـ بـهـ زـنـدـ وـلـاـ خـفـقـ لـمـنـ تـوـلـاهـ بـالـنـصـرـ بـنـدـ وـإـنـ الـطـاغـيـةـ أـعـانـهـ وـأـنـجـدـهـ وـرـأـيـهـ أـنـ سـهـمـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ سـدـهـ وـعـضـبـ لـلـفـتـنـةـ جـرـدـهـ فـسـخـرـ لـهـ الـفـلـكـ وـأـمـلـ أـنـ يـسـتـخـدـمـهـ بـسـبـبـ ذـلـكـ الـمـلـكـ فـأـورـدـهـ الـهـلـكـ وـالـظـلـمـ الـحـلـكـ عـلـمـنـاـ أـنـ طـرـفـ سـعـادـتـهـ كـابـ وـسـحـابـ آـمـالـهـ غـيـرـ ذـاتـ اـنـسـكـابـ وـقـدـمـ عـزـتـهـ لـمـ يـسـتـقـرـ مـنـ السـدـادـ فـيـ غـرـزـ رـكـابـ فـيـانـ نـجـاحـ أـعـمـالـ الـنـفـوسـ مـرـتـبـ بـنـيـاتـهـاـ وـغـيـابـاتـ الـأـمـورـ تـظـهـرـ فـيـ بـدـايـاتـهـاـ وـعـوـائـدـ اللـهـ تـعـالـىـ فـيـمـنـ نـازـعـ قـدـرـتـهـ لـاـ تـجـهـلـهـ وـمـنـ غالـبـ أـمـرـ اللـهـ خـابـ مـنـ الـمـعـولـ فـيـنـماـ نـحـنـ نـرـتـقـبـ خـسـارـ تـلـكـ الصـفـقـةـ الـمـعـوـدةـ وـخـمـودـ تـلـكـ الشـعـلـةـ الـمـوـقـوـدةـ وـصـلـنـاـ كـتـابـكـ يـشـرـحـ الصـدـورـ وـيـشـرـحـ الـأـخـبـارـ وـيـهـدـيـ طـرـفـ الـمـسـرـاتـ عـلـىـ أـكـفـ الـاـسـتـبـشـارـ وـيـعـرـبـ بـلـسـانـ حـالـ الـمـسـاـرـعـةـ وـالـاـبـتـدـارـ عـنـ الـلـوـدـ الـواـضـعـ وـضـوحـ النـهـارـ وـالـتـحـقـقـ بـخـلـوصـنـاـ الـذـيـ يـعـلـمـ عـالـمـ الـأـسـرـارـ فـأـعـادـ فـيـ الإـفـادـةـ وـأـبـداـ وـأـسـدـىـ مـنـ الـفـضـائلـ الـجـلـائـلـ مـاـ أـسـدـىـ فـعـلـمـ مـنـهـ مـآلـ مـنـ رـامـ يـقـدـحـ زـنـدـ الشـتـاتـ مـنـ بـعـدـ الـاـلـتـامـ وـيـشـيرـ عـجـاجـةـ الـمـنـازـعـةـ مـنـ بـعـدـ رـكـوبـ الـقـتـامـ هـيـهـاتـ تـلـكـ قـلـادـةـ اللـهـ تـعـالـىـ الـتـيـ مـاـ كـانـ لـيـتـرـكـهـ بـغـيـرـ نـظـامـ وـلـمـ يـدـرـ أـنـكـمـ نـصـبـتـ لـهـ مـنـ الـحـزـمـ جـبـالـ لـاـ يـفـلـتـهـ قـنـيـصـ وـسـدـدـتـمـ لـهـ مـنـ السـعـدـ سـهـمـاـ مـاـ لـهـ عـنـهـ مـنـ مـحـيـصـ بـمـاـ كـانـ مـنـ إـرـسـالـ جـوـارـ الـأـسـطـولـ السـعـيدـ فـيـ مـطـارـهـ حـائـلـاـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ أـوـطـارـهـ فـمـاـ كـانـ إـلـاـ التـسـمـيـةـ وـالـإـرـسـالـ ثـمـ الـإـمسـاكـ وـالـقـتـالـ ثـمـ الـاقـيـاتـ وـالـاستـعـمالـ فـيـاـ لـهـ مـنـ زـجـرـ اـسـتـنـطـقـ لـسـانـ الـوـجـودـ مـجـدـلـهـ وـاسـتـنـصـرـ الـبـحـرـ فـخـذـلـهـ وـصـارـعـ الـقـدـرـ فـجـدـلـهـ لـمـاـ جـدـ لـهـ وـإـنـ خـدـامـكـمـ اـسـتـولـواـ عـلـىـ مـاـ كـانـ فـيـهـ مـنـ مـؤـملـ غـاـيـةـ بـعـيـدةـ وـمـتـسـبـ إـلـىـ نـسـبةـ غـيـرـ سـعـيـدةـ

وشاينه غمرته من الكفار خدام الماء وأولياء النار تحكمت فيهم أطراف العوالى وصدرور الشفار وتحصل منهم من تخطاه الحمام فى قبضة الأسار فعجبنا من تيسير هذا المرام وإخmad الله لهذا الضرام وقلنا تكيف لا يحصل فى الأوهام وتسديد لا تستطيع إصابةه السهام كلما قدر الخلاف زندأً أطفأ سعدكم شعلته أو أظهر الشتات ألمًا أبداً يمن طائركم عليه ما ذاك إلا لنية صدقـت معاملتها في جنب الله تعالى وصحت واسترسلت بركتها وساحت وجهـاد نذرتموه إذا فرغـت شواغلـكم وتمـت واهتمام بالـإسلام يكـفيـه الخطـوبـ التي أهـمت فـنـحـنـ نـهـيـكـمـ بـمـنـحـ اللهـ وـمـنـهـ وـنـسـأـلـهـ أـنـ يـلـبـسـكـمـ مـنـ إـعـانـتـهـ أـوـقـىـ جـنـنـهـ فـأـمـلـنـاـ أـنـ تـطـرـدـ آـمـالـكـمـ وـتـنـجـحـ فـيـ مـرـضـاتـ اللهـ أـعـمـالـكـمـ فـمـقـامـكـمـ هوـ العـمـدةـ الـتـيـ يـدـافـعـ الـعـدـوـ بـسـلاـحـهـ وـتـبـلـجـ ظـلـمـاتـهـ بـصـفـاحـهـ وـكـيفـ لـاـهـتـكـمـ بـصـنـعـ عـلـىـ جـهـتـنـاـ يـعـودـ وـيـشـابـقـنـاـ تـلـعـ مـنـ السـعـودـ فـتـيقـنـواـ مـاـعـنـدـنـاـ مـنـ الـاعـقـادـ الـذـيـ رـسـومـهـ قـدـ اـسـتـقـلـتـ وـاـكـتـفـتـ وـدـيـمـهـ بـسـاحـةـ الـوـدـ قـدـ وـكـفـتـ وـالـهـ عـزـ وـجـلـ يـجـعـلـ لـكـمـ الـفـتوـحـ عـادـةـ وـلـأـيـدـمـكـمـ عـنـيـةـ وـسـعـادـةـ وـهـوـ سـبـحـانـهـ يـعـلـيـ مـقـامـكـمـ وـيـنـصـرـ أـعـلـامـكـمـ وـيـهـنـيـ الـإـسـلـامـ أـيـامـكـمـ وـالـسـلـامـ الـكـرـيمـ يـخـصـكـمـ وـرـحـمـةـ اللهـ وـبـرـكـاتـهـ» اـهـ.

ولما نـزـلـ أـبـوـ الفـضـلـ بـسـاحـلـ السـوسـ لـحـقـ بـعـدـ اللهـ السـكـسيـويـ صـاحـبـ الجـبـلـ المـنـسـوبـ إـلـيـهـ وـدـعـاـ لـنـفـسـهـ، وـكـانـ ذـلـكـ إـثـرـ مـقـدـمـ الـحـاجـبـ اـبـنـ أـبـيـ عـمـروـ مـنـ فـتـحـ بـجـاـيـةـ سـنـةـ أـرـبـعـ وـخـمـسـيـنـ وـسبـعـمـائـةـ، فـجـهزـ السـلـطـانـ أـبـوـ عـنـانـ إـلـيـهـ عـسـكـرـهـ مـنـ تـلـمـسـانـ وـعـقـدـ عـلـىـ حـرـبـ السـكـسيـويـ وـأـبـيـ الفـضـلـ لـوـزـيـرـهـ فـارـسـ بـنـ مـيمـونـ بـنـ وـرـدـارـ فـسـارـ حـتـىـ نـزـلـ عـلـىـ جـبـلـ السـكـسيـويـ وـأـحـاطـ بـهـ وـأـخـذـ بـمـخـنـقـهـ وـاـخـتـطـ مـدـيـنـةـ لـمـعـسـكـرـهـ وـتـجـمـيـرـ كـتـابـهـ بـسـفـعـ ذـلـكـ الجـبـلـ سـماـهـ الـقـاهـرـةـ، وـلـمـ اـشـتـدـ الـحـصـارـ عـلـىـ السـكـسيـويـ بـعـثـ إـلـىـ الـوـزـيـرـ يـسـأـلـهـ الرـجـوعـ إـلـىـ طـاعـتـهـ الـمـعـرـوفـةـ وـأـنـ يـنـبذـ الـعـهـدـ إـلـىـ أـبـيـ الفـضـلـ، فـفـارـقـهـ وـاـنـتـقـلـ إـلـىـ جـبـالـ الـمـصـامـدـةـ، وـدـخـلـ الـوـزـيـرـ فـارـسـ أـرـضـ السـوسـ فـدـوـخـ أـقـطـارـهـ وـمـهـدـ أـكـنـافـهـ وـسـارـ الـأـلـوـيـةـ وـالـجـيـوشـ فـيـ جـهـاتـهـ وـرـتـبـ الـمـسـالـحـ فـيـ ثـغـورـهـ وـأـمـصارـهـ.

وـسـارـ أـبـوـ الفـضـلـ يـتـنـقـلـ فـيـ جـبـالـ الـمـصـامـدـةـ إـلـىـ أـنـ اـنـتـهـىـ إـلـىـ صـنـاكـةـ

وألقى بنفسه على ابن الحميدي منهم مما يلي بلاد درعة فأجراه وقام بأمره ونازله عامل درعة يومئذ عبد الله بن مسلم الزرداي من مشيخةبني عبد الواد كان السلطان أبو الحسن رحمة الله قد اصطبه أيام فتحه لتلمسان فاستقر في دولتهم واندرج في صنائعهم، فأخذ بمحنة ابن الحميدي وأرهبه بوصول العساكر والوزراء إليه، وداخله في التقبض على أبي الفضل وأن بيذل له من المال في ذلك ما أحب، فأجاب ولاطف عبد الله بن مسلم الأمير أبي الفضل ووعلمه من نفسه الدخول في الأمر وطلب لقاءه، فركب إليه أبو الفضل ولما استمكن منه ابن مسلم يقبض عليه ودفع لابن الحميدي ما اشترط له من المال وأشخصه معتقلًا إلى أخيه السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين وسبعينة فأودعه السجن وكتب بالفتح إلى القاصية ثم قتله لليل يسيرة من اعتقاله خنقًا بمحبسه وانقضى أمر الخوارج وتمهدت الدولة إلى أن كان ما ذكره إن شاء الله.

وفادة الوزير ابن الخطيب من قبل سلطانه الغني بالله على السلطان أبي عنان رحمهم الله

كان السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر قد أوفد وزيره لسان الدين ابن الخطيب على السلطان أبي عنان إثر مهلك السلطان أبي الحسن معزيًا له بمصابه، فقدم ابن الخطيب وأدى الرسالة وجل في أغراض تلك السفارة وعاد إلى غرناطة، ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعينة بمصلى عيد الفطر وهو ساجد طعنه بعض الزعانف فأصماء لوقته، وبایع الناس ابنه محمد بن يوسف الغني بالله وقام بأمر دولته مولاه رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصغر من ملوكهم واستبد بالأمر وانفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه من قبل، واتخذ لكتابه غيره وجعل ابن الخطيب رديفاً لرضوان في أمره وشاركا في الاستبداد

معاً، فجرت الدولة على أحسن حال، ثم إن السلطان الغني بالله بعث وزير ابن الخطيب سفيراً عنه إلى السلطان أبي عنان مستمدأ له على عدو الطاغية على عادة سلفه في ذلك، قال ابن الخطيب: لما أشرفت على مدينة فاس في غرض هذه الرسالة خاطبني الخطيب الرئيس أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني بمنزل الشاطبي على مرحلة منها بما نصه:

أبشر بما تلقاه من أفراح
تنل المنى وتفز بكل سماح
تظفر ببحر الندا طفاح
بسواه قاس البحر بالضخماح
قبل السؤال وقبل بسطة راح
ذكر محاه عن نداء ماح
من أريحي للندا مرتاح
قد أحفوا منه بظل جناح
حتى حكى سع الغمام الساح
فاقت وأعيت السن المداح
كل المنى تنقاد بعد جماح
متلافة الأحزان والأتراح
تبغيه من أمل ونيل نجاح
من راحة المولى بكل صباح

يا قادماً وافي بكل نجاح
هذا ذرى ملك الملوك فلذ بها
مغنى الإمام أبي عنان يممن
من قاس جود أبي عنان في الندا
ملك يفيض على العفة نواله
فلجود كعب وابن سعد في الندا
ما أن سمعت ولا رأيت بمثله
بسط الأمان على الأنام فأصبحوا
وهمى على العافين سيب نواله
فنواله وجلاله وفعاليه
وبه الدنا أصبحت تروق وأصبحت
من كان ذا ترح فرورية وجهه
فانهض أبا عبد الإله تفز بما
لا زلت ترتشف الآمني راحة

فالحمد لله يا سيدي وأخي على نعمه التي لا تحصى، حمدأً يوم به
جميعنا المقصد الأسمى فيبلغ الأمد الأقصى، فطالما كان معظم سيدى للأسى
في خبال وللأسف بين اشتغال بال وأشتعال بليل وقدومكم على هذا المحل
المولوي في ارتقاء ولمواعيدهم بذلك في تحقق وقوعه من غير شك ولا
ارتياب، فها أنت تجتني من هذا المقام العلي بتشيعك وجوه المسرة صباحاً
وتتلقي أحاديث مكارمه ومواهبه مستندة صحاحاً بحول الله تعالى ولسيدي

الفضل في قبول مركوبه الواصل إليه بسرجه ولجامه فهو من بعض ما لدى
المعظم من إحسان مولاه وإنعامه ولعمري لقد كان وافد على سيدي في
مستقره مع غيره فالحمد لله الذي يسر في إيصاله على أفضـل أحواله قال ابن
الخطيب : فراجعته بما نصه :

راحت تذكرني كؤوس الراح
وسرت تدل على القبور لأنما
حسناء قد غنيت بحسن صفاتها
أمست تحض على اللياد بن جرت
بخليفة الله المؤيد فارس
ما شئت من شيء ومن هم غدت
فضل الملوك فليس يدرك شاؤه
أسنىبني عباسهم بلوائه الـ
وغدت مغاني الملك لما حلها
وحياة من أهداك تحفة قادم
ما زلت أجعل ذكره وثناءه
ولقد تمازج حبه بجوارحي
ولو أنني أبصـرت يوماً في يدي
فلاآن ساعـدنـي الزمان وأيقـنتـ
إـيـهـ أـبـاـ عـبـدـ الإـلـهـ وـإـنـهـ
أـمـاـ إـذـاـ استـنـجـدـتـنـيـ مـنـ بـعـدـ مـاـ
فـإـلـيـكـهـ مـهـزـولـةـ وـأـمـرـقـ
سيـديـ أـبـقـاكـ اللهـ لـعـهـدـ تـحـفـظـهـ،ـ وـوـلـاءـ بـعـينـ الـوـفـاءـ تـلـحـظـهـ،ـ وـصـلـتـنيـ
رـقـعـتـكـ التـيـ اـبـتـدـعـتـ وـبـالـحـقـ مـنـ مـوـلـىـ الـخـلـيـفـةـ صـدـعـتـ وـالـفـتـنـيـ وـقـدـ سـطـتـ بـيـ
الـأـوـحـالـ حـتـىـ كـادـتـ تـلـفـ الرـحـالـ وـالـحـاجـةـ إـلـىـ الـغـدـاءـ قـدـ شـمـرـتـ عنـ كـشـعـ
الـبـطـيـنـ وـثـانـيـةـ الـعـجـمـاـوـيـنـ قـدـ تـوـقـعـ فـوـاتـ وـقـتـهـ وـإـنـ كـانـتـ صـلـانـهـ صـلـةـ الطـيـنـ

والتفكير قد غاض معينه وضعف وعلى الله جزاء المولى الذي يعيشه، فغزتني بكتيبة بيان أسدتها هسور وعلمها منصور وألفاظها ليس فيها قصور ومعانيها عليها الحسن مقصور واعتراف مثلـي بالعجز في المضايق حول ومنته وقول لا أدرى للعالم فكيف بغيره جنة لكنها بشرتني بما يقل لمؤديه بذل التفوس وإن جلت وأطلعتني من السراء على وجه تحسده الشمس إذا تجلت بما أعلمني به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله في عبده وصدق المخيلة في كرم مجده وهذا هو الجود الممحض والفضل الذي شكره هو الفرض وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات من يبدأ بالنـوال من قبل الضراعة والسؤال من غير اعتبار للأسباب ولا مجازات للأعمال نسأل الله تعالى أن يبقي منها على الإسلام أوفي الظلال وبلغها من فضله أقصى الآمال ووصل ما بعثه سيدى صحبتها من الهدية والتحفة الودية وقبلتها امثـالـاً واستجلـيت منها عـنـقاً وجـمالـاً وسيـدي في الوقت أـنـسب بـاتـخـاذـ ذلكـجـنسـ وأـقـدرـ عـلـىـ الاـسـتكـثارـ منـ إـنـاثـ الـبـهـمـ وـالـإـنـسـ وـأـنـاـ ضـعـيفـ الـقـدـرـةـ غـيرـ مـسـطـطـيـ لـذـلـكـ إـلـاـ فـلـوـ رـأـيـ سـيـديـ وـرـأـيـهـ سـدـادـ وـقـصـدـهـ فـضـلـ وـوـدـادـ أـنـ يـنـقـلـ القـضـيـةـ إـلـىـ بـابـ العـارـيـةـ مـنـ بـابـ الـهـبـةـ مـعـ وـجـودـ الـحـقـوقـ الـسـرـتـبـةـ لـبـسـطـ خـاطـرـيـ وـجـمـعـهـ وـعـمـلـ فـيـ رـفـعـ الـمـؤـنـةـ عـلـىـ شـاكـلـهـ حـالـيـ مـعـهـ وـقـدـ اـسـتـصـبـتـ مـرـكـوـبـاًـ يـشـقـ عـلـىـ هـجـرـهـ وـيـنـاسـبـ مـقـامـيـ شـكـلـهـ وـنـجـرـهـ،ـ وـسـيـديـ فـيـ الإـسـعـافـ عـلـىـ اللهـ أـجـرـهـ،ـ وـهـذـاـ أـمـرـ عـرـضـ وـفـرـضـ فـرـضـ،ـ وـعـلـىـ نـظـرـهـ الـمـعـولـ،ـ وـاعـتـمـادـ إـغـصـائـهـ هـوـ الـمـعـقـولـ الـأـوـلـ وـالـسـلـامـ عـلـىـ سـيـديـ مـنـ مـعـظـمـ قـدـرـهـ وـمـلـتـزـمـ بـرـهـ أـبـنـ الـخـطـيـبـ فـيـ لـيـلـةـ الـأـحـدـ السـابـقـ وـالـعـشـرـينـ لـذـيـ الـقـعـدـةـ سـنـةـ خـمـسـ وـخـمـسـيـنـ وـسـبـعـمـائـةـ وـالـسـمـاءـ قـدـ جـادـتـ بـمـطـرـ سـهـرـتـ مـنـ الـأـجـفـانـ وـظـنـ أـنـهـ طـوفـانـ وـالـلـحـاقـ فـيـ غـدـهـ بـالـبـابـ الـمـوـلـويـ مـؤـمـلـ بـحـولـ اللهـ اـهـ.

ولما قدم الوزير المذكور على السلطان المذكور تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائهم ومثل بين يديه واستأنذه في إنشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه فأذن له وأنشد وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر
علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته
ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى
لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طرزاً بأرض أندلس
من به مذ وصلت حبلهم
لو لاك ما أوطنوا ولا عمروا
ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وجملة الأمر أنه وطن
فوجهوني إليك وانتظروا
وقد أهمتهم نفوسهم

فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الآيات وأذن له في الجلوس وقال له قبل أن يجلس: «ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم» ثم أدى الرسالة ودفع الكتاب ولما عزموا على الانصراف أقبل كاهمهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه.

قال ابن خلدون: قال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد «لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا».

ونص الكتاب الذي قدم به ابن الخطيب: «المقام الذي يعني عن كل مفقود بوجوده ويجهز إلى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده ونستضيء عند إيلام الخطوب بنور سعادته ونثر من الاعتماد عليه أنسني ذخر يرثه الولد عن آبائه وجددوه مقام محل أبيينا الذي رعى الأذمة شأنه وصلة الراعي سجية انفرد بها سلطانه ومواعده النصر ينجزها زمانه والقول والفعل في ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة ولسانه وتطابق فيما إسراره وإعلانه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاء الله تعالى محروساً من غير الأيام جنابه موصولة بالوقاية الإلهية أسبابه مسدولاً على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحجابه مصروفاً عنه من صروف القدر ما يعجز عن رده بوابة ولا زال ملجاً تنفق لديه الوسائل التي تدخلها لأولادها أولياً وآه وأحبابه ويسطر في صحف الفخر ثوابه وتشتمل على مكارم الدين والدنيا ثوابه وتتكلف بنصر الإسلام وجبر القلوب عند طوارق الأيام كتابه وكتابه معظم ما عظم من حقه

السائل من إجلاله وشكر خلاله على لاحب طرقه المستضيء في ظلمة الخطيب بنور أفقه الأمير عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر سلام كريم بر عميم يخص مقامكم الأعلى ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذي لاراد لأمره ولا معارض لفعله مصرف الأمر بقدرته وحكمته وعدله الملك الحق الذي بيده ملاك الأمر كله مقدر الآجال والأعمار فلا يتاخر شيء عن ميقاته ولا يريح عن محله، جاعل الدنيا مناخ نقلة، لا يغتبط العاقل بماه ولا يظلمه، وسييل رحلة فما أكثب ظعنـه من حلـه والصلة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صفة خلقـه وخـيرة أـنبيائه وسـيد رسـله الذي نـعتـصـم بـسبـبه الأـقوـي ونـتمـسـك بـحبـلـه ونـمدـ يـدـ الـافتـقارـ إـلـى فـضـلـه ونـجـاهـدـ فـي سـبـيلـه من كـذـبـ به أو حـادـ عنـ سـبـلـه ونـصلـ إـلـيـه اـبـتـغـاءـ مـرـضـاتـه وـمـنـ أـجـلـه وـرـضاـعـنـ آـلـه وـأـحـزـابـه وـأـنـصـارـه وـأـهـلـه المـسـتـوـلـينـ منـ مـيـدـاـنـ الـكـمـالـ عـلـى خـصـلـه وـالـدـعـاءـ لـمـقـامـكـمـ الـأـعـلـى بـعـزـ نـصـرـه وـمـضـاءـ فـضـلـه فـيـا كـتـبـه إـلـيـكـمـ كـتـبـ اللهـ تـعـالـى لـكـمـ وـقـاـيـةـ لـاـ تـطـرـقـ الـخـطـوبـ حـمـاـهـ وـعـصـمـةـ تـرـجـعـ عـنـها سـهـامـ التـوـابـ كـلـمـا فـوـقـهـا الـدـهـرـ وـرـمـاهـ، وـعـنـيـةـ لـاـ تـغـيـرـ الـحـوـادـثـ اـسـمـاهـ وـلـاـ مـسـمـاهـ وـعـزـاـ يـزاـحـمـ أـجـرامـ الـكـواـكـبـ مـتـمـاـهـاـ مـنـ حـمـرـاءـ غـرـنـاطـةـ حـرـسـهـ اللهـ تـعـالـى وـنـعـمـ اللهـ سـبـحـانـهـ تـوـاتـرـ لـدـيـنـاـ دـفـعاـ وـنـفـعاـ وـأـطـافـهـ نـتـعـرـفـهـاـ وـتـرـأـ وـشـفـعاـ، وـمـقـامـكـمـ الـأـبـويـ هوـ الـمـسـتـنـدـ الـأـقـوـيـ وـالـمـوـرـدـ الـذـيـ تـرـدـ آـمـالـ إـلـاسـلـامـ فـتـرـوـيـ وـتـهـوـيـ إـلـيـهـ أـفـنـدـهـمـ فـتـجـدـ ماـ تـهـوـيـ وـمـثـابـكـمـ الـعـدـةـ الـتـيـ تـأـسـتـ مـبـانـيهـ عـلـى البرـ وـالـتـقـوـيـ وـإـلـيـ هـذـاـ وـصـلـ اللهـ تـعـالـى سـعـدـكـمـ وـأـبـقـيـ مـجـدـكـمـ، فـيـاـ لـمـ نـعـلـمـ مـنـ مـسـاـهـمـةـ مـجـدـكـمـ الـتـيـ يـقـتـضـيـهـاـ كـرـمـ الطـبـاعـ وـطـبـاعـ الـكـرـمـ وـتـدـعـوـ إـلـيـهـاـ ذـمـمـ الرـعـيـ وـرـعـيـ الذـمـمـ، نـعـرـفـكـمـ بـعـدـ الدـعـاءـ لـمـلـكـكـمـ بـدـفـاعـ اللهـ تـعـالـى عـنـ إـرـتقـائـهـ وـإـمـتـاعـ الـمـسـلـمـينـ بـيـقـائـهـ بـمـاـ كـانـ مـنـ وـفـاةـ مـوـلـانـاـ الـوـالـدـ نـفـعـهـ تـعـالـى بـالـسـعـادـةـ الـتـيـ أـلـبـسـهـ حـلـتـهاـ وـالـشـهـادـةـ الـتـيـ فـيـ أـعـمـالـهـ الزـكـيـةـ كـتـبـهاـ وـالـدـرـجـةـ الـعـالـيـةـ الـتـيـ حـتـمـهـاـ لـهـ وـأـوـجـبـهاـ وـبـمـاـ تـصـيرـ لـنـاـ مـنـ أـمـرـهـ وـضـمـ بـنـاـ مـنـ نـشـرـهـ وـسـدـلـ عـلـىـ مـنـ خـلـفـهـ مـنـ سـتـرـهـ وـإـنـهـ لـعـبـرـةـ لـمـنـ الـقـىـ السـمـعـ وـمـوـعـظـةـ تـهـزـ الـجـمـعـ وـتـرـسـلـ الـدـمـعـ وـحـادـثـةـ أـجـمـلـ اللهـ تـعـالـىـ فـيـهـاـ

الدفع وشرح مجملها وإن أخرس اللسان هولها وأسلم العبارة قوتها وحولها إنه رضي الله تعالى عنه لما برز لإقامة سنة هذا العيد مستشعراً شعار كلمة التوحيد مظهراً سمة الخضوع لله الذي تضرع بين يديه رقاب العبيد آمناً بين قومه وأهله متسررياً في حل نعم الله تعالى وفضله قرير العين باكمال عزه واجتماع شمليه قد احترس بأقصى استطاعته واستظهر بخلصان طاعته والأجل المكتوب قد حضر والإرادة الإلهية قد أنفذت القضاء والقدر وسجد بعد الركعة الثانية من صلاته أتاه أمر الله لميقاته على حين الشباب غض جلبابه والسلاح زاخر عبابه والدين بهذا القطر قد أينع بالأمن جنابه وأمر من يقول للشيء كن فيكون قد بلغ كتابه ولم يرمه، وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب إلا شقي قيشه الله تعالى لسعادته غير معروف ولا منسوب، وخبيث لم يكن بمعتبر ولا محسوب تخلل الصفوف المعقودة وتجاوز الأبواب المسدودة وخاض الجموع المشهودة والأمم المحشورة إلى طاعة الله المحشودة لا تدل العين عليه شارة ولا بزة ولا تحمل على الحذر من مثله أفة ولا عزة وإنما هو خبيث ممرور وكلب عقول وحية سماها وحي محذور آللة مصرفه لينفذ بها قدر مقدور فلما طعنه وأثبته وأعلق به شرك الحين فما أفلته قبض عليه من الخلصان الأولياء من خبر ضميره وأحكام تقريره فلم يجب عند الاستفهم جواباً يعقل ولا عشر على شيء عنه ينقل لطفاً من الله أفاد براءة الذم وتعاونته للحين أيدي التمزيق وأتبع شلوه بالتحرق واحتمل مولانا الوالد رحمه الله إلى القصر وبه ذماء لم يلبث بعد الفتكة العمرية إلا أيسر من اليسير وتخلف الملك ينظر من الطرف الحسير وينهض بالجناح الكسير وقد عاد جمع السلامة إلى جمع التكسير إلا أن الله تعالى تدارك هذا القطر الغريب أن أقامنا مقامه لوقته وحبه ورفع عمام بناء ملكه ولم شعث دينه وكان جميع من حضر المشهد من شريف الناس ومشروفهم وأعلامهم ولفيفهم قد جمعه ذلك الميقات وحضر الأولياء الثقات فلم تختلف علينا كلمة ولا شدت منهم عن بيعتنا نفس مسلمة ولا أخيف بري ولا حذر جري ولا فري ولا وقع لبس ولا استوحشت

نفس ولا نبض للفتنة عرق ولا أغفل للدين حق فاستند النقل إلى نصه ولم يعدم من فقيناه غير شخصه وبادرنا إلى مخاطبة البلاد نمهدها ونسكناها وتقرر الطاعة في النفوس ونتمكنها وأمرنا الناس بها بكف الأيدي ورفع التعدي والعمل من حفظ شروط المسالمة المعقدة بما يجدي ومن شره منهم لقرار عاجلناه بالإنكار وصرفنا على التصارى ما أوصاه مصححاً بالاعتذار وخطابنا صاحب قشتالة نرى ما عنده في صلة السلم إلى أمدها من الأخبار واتصلت بنا البيعات من جميع الأقطار وعفى على حزن المسلمين بوالدنا ما ظهر عليهم بولايتنا من الاستبشار واستبقوا تطير بهم أجنحة الابتدار جعلنا الله تعالى من قابل الحوادث بالاعتبار وكان على حذر من تصارييف الأقدار واختلاف الليل والنهار وأعانتنا على إقامة دينه في هذا الوطن الغريب المنقطع بين العدو الطاغي والبحر الزخار وألهمنا من شكره ما يتکفل بالمزيد من نعمه ولا قطع عنا عوائد كرمه وإن فقدنا والدنا فأتم لنا من بعده الوالد والذخر الذي تكرم منه العوائد والحب يتوارث كما ورد في الأخبار التي صحت منها الشواهد ومن أعد مثلكم لبنيه فقد تيسر من بعد الممات أمانه وتأسست قواعد ملكه وتشيدت مبانيه فالاعتقاد الجميل موصول والفروع لها في التشيع إليكم أصول وفي تقرير فخركم محصول وأنتم ردة المسلمين بهذه البلاد المسلمة الذي يعينهم بيارفاته وينصرهم بإنجاده ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده وعندما استقر هذا الأمر الذي تبع المحنـة فيه المنحة وراقت من فضل الله تعالى ولطفه فيه الصفحة وأخذنا البيعة من أهل حضرتنا بعد استدعاء خواصهم وأعيانهم وتزاحمت على رقبها المنتشر خطوط أيمانهم وتأصلت قواعد ألفاظها ومعانيها في قلوبهم وأذانهم وضممنوا الوفاء بما عاهدوا الله عليه وقد خبر سلفنا والحمد لله وفاء ضمانهم بادرنا تعريف مقامكم الذي نعلم مساهمته فيما ساء وسر أحلى وأمر عملاً بمحققتي الخلوص الذي ثبت واستقر والحب الذي ما مال يوماً ولا أزور وما أحق تعريف مقامكم بوقوع هذا الأمر المحذور وانجلاء ليله عن صبح الصنع البادي السفور وإن كنا قد خاطبنا من خدامكم من يبادر إعلامكم بالأمور إلا

أنه أمر له ما بعده وحدث يأخذ حده ونبعث إلى بابكم من شاهد الحال ما بين وقوعها إلى استقرارها رأي العيان وتولى تسديد الأمور بأعماله الكريمة ومقداصه الحسان ليكون أبلغ في البر وأشرح للصدر وأوعز للبيان فوجهنا إليکم وزير أمرنا وكاتب سرنا الفقيه الأجل أبي عبد الله محمد بن الخطيب وألقينا إليه من تقرير تعويتنا على ذلك المقام الأسئلة واستنادنا من التشيع إليه إلى الركن الوثيق المبني ما نرجو أن يكون له فيه المقام الأغنى والثمرة العذبة المجنى فلاهتمام بهذا الغرض الأكيد الذي هو أساس بنائنا وقائم أعدائنا آثرنا توجيهه على توفر الاحتياج إليه ومدار الحال عليه والمرغوب من أبوتکم المؤملة أن يتلقاه قبولها بما يليق بالملك العالى والخلافة السامية المعالى والله عز وجل يديم أيامکم لصلة الفضل المتوالى ويحفظ مجدکم من غير الأيام واللليالي وهو سبحانه يصل سعدکم ويحرس مجدکم ويواли نصرکم وغضبكم والسلام الكريم يخصکم ورحمة الله وبرکاته اهـ.

وللسلطان الغني بالله هذا مع السلطان أبي عنان رحمة الله مراسلات عديدة ومکاتبات مديدة قد ذكر صاحب نفح الطیب منها جملة وافرة مع التنبی على أسبابها فانظروا فيه إن شئت وأكرم السلطان أبو عنان الوزیر ابن الخطیب في هذه الوفادة وغيرها إكراماً بلیغاً ولما انصرف عنه مدحه بقصيدة طریلة طنانة يقول في أولها:

أبدى لداعي الفوز وجه منیب
وأفاق من عذل ومن تائب
ويقول في أئتها:

إنضاء مسغبة وفل خطوب	يا ناصر الدين الحنيف وأهله
يتعللون بوعده المرقوب	حقن ظنون بنبيه فيك فإنهم
بحجاب عز من علاك رحیب	ضاقت مذاهب نصرهم فتعلقوا
أو ليس صبحك منهم بقرب	ودجا ظلام الكفر في آفاقهم
حضر العدا يرتو بطرف مريب	فانظر بعين العز من ثغر غدا
ala يخیب لدیک ذو مطلوب	نادتك أندلس ومجدك ضامن

وهي طریلة.

وفي سنة ست وخمسين وسبعين انتقض على السلطان أبي عنان وزيره وصاحب شوراه عيسى بن الحسين بن علي بن أبي الطلاق من شيوخبني مرين ووجوهها، وكان السلطان أبو عنان قد استعمله على جبل طارق فتمكنك رياسته به وانتقض على السلطان لأسباب يطول شرحها، ثم الثالث حاله وضاقت مذاهبه فقبض عليه وأحضر بين يدي السلطان أبي عنان هو وأبنته يوم مني من سنة ست وخمسين المذكورة فتنصلأ واعتذرًا فلم يقبل منها وأودعهما السجن وضيق عليهمما، ولما كان آخر السنة أمر بهما فجنبنا إلى مصارعهما وقتل عيسى قعضاً بالرماح وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف وأبي من مداواة قطعه فلم يزل يتخطب في دمه إلى أن هلك بعد ثلاثة أيام من قطعه وعقد السلطان على جبل طارق وسائر ثغور الأندلس لسليمان بن داود، ثم عقد بعده لولده أبي بكر السعيد وهو الذي تولى الملك بعده والله أعلم.

رحلة السلطان أبي عنان إلى سلا وطارحه^(١) على ولديها الأكبر أبي العباس بن عاشر رضي الله عنه

كان لبني مرين عموماً وللسلطان أبي عنان خصوصاً جنوح إلى الخير ومحبة في أهله وتعرض لمن يشار إليه بالصلاح واستمطرار لطله ووبيله، وكان الشيخ الأشهر أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي رضي الله عنه قد استوطن في هذا التاريخ مدينة سلا، وكان من الأفراد الجامعين بين العلم والعمل المتمسكين بالكتاب والسنّة، الناهجين سنن السلف الصالحة في الزهد والورع والانقطاع عن الخلق جملة بحيث طار ذكره وعظم لدى الخاص والعام

(١) ما وقع لأبي عنان مع ابن عاشر وقع نظيره لمولاي إسماعيل العلوى مع سيدى أحمد بن محمد بن عبد الله من الأندلسي راجع ذلك في الجزء الأول من المقصد الأحمد لسيدي عبد السلام القادرى ص 150 وما يليها فإنه مما يحسن الوقوف عليه والتظير به رحم الله الجميع والله در القائل:

فقل لملوك الأرض تجهد جهلها فإذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

قدره، فتحركت همة السلطان أبي عنان لزيارته والاقتباس مما يفتح الله به من وعظه وإشارته، فارتاحل سنة سبع وخمسين وسبعمائة إلى سلا فقدمها وحرص على الاجتماع بالشيخ المذكور ووقف ببابه مراراً فلم يأذن له وترصدت يوم الجمعة بعد الصلاة ولما انقض الناس تبعه على قدميه والناس ينظرون إليه وهو لا يراه فقال السلطان عند ذلك لقد منعنا من هذا الولي، ثم أرسل إليه ولده راغباً ومستعطفاً فأجابه بما قطع رجاءه من لقائه غير أنه كتب إليه كتاباً وعظه فيه وذكره فسر السلطان أبو عنان بذلك الكتاب وحزن لما فاته من الاجتماع بالشيخ، وقد ذكر الفقيه العلامة البركة أبو العباس أحمد بن عاشر بن عبد الرحمن السلاوي المدعو بالحافي في كتابه «تحفة الزائر في مناقب الشيخ ابن عاشر» نص هذا الكتاب ولم يحضرني الآن فانظره فيه وبإله تعالى التوفيق.

غزوة السلطان أبي عنان إفريقية وفتح قسطنطينة ثم فتح تونس بعدها

لما كان أيام التشريق من سنة سبع وخمسين وسبعمائة اعتزم السلطان أبو عنان على النهوض إلى إفريقية واضطرب معسكره بساحة فاس الجديد، وبعث في الحشد إلى مراكش وأوزع إلىبني مرين بأخذ الأهلية للسفر وجلس للعطاء وعرض الجنود من لدن عزمه على النهوض إلى شهر ربيع الأول من سنة ثمان وخمسين بعدها، ثم ارتحل من فاس وسرح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر وسار هو في ساقته على التعبية إلى أن احتل بيجاية وتلوم لازاحة العلل، ثم نازل الوزير قسطنطينة وجاء السلطان على أثره ولما أطلت راياته وماجت الأرض بجنوده ذعر أهل البلد وألقوا بأيديهم إلى الإذعان، وانقضوا من حول سلطانهم أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي وجاؤوا مهطعين إلى السلطان أبي عنان، وتحيز الحفصي في خاصته إلى القصبة ثم طلبوا الأمان من السلطان أبي عنان فبذل لهم وخرجوا وأنزلتهم بمعسكره أياماً، ثم بعث بأبي العباس في

الأسطول إلى سبتة فاعتقله بها، وعقد على قسطنطينة لمنصور بن الحاج خلوف الباباني من شيوخ بنى مرين وأهل الشورى منهم وأنزله بالقصبة في شعبان من السنة المذكورة، ووصلت إليه بيعات أمراء الأطراف من توزر ونقطة وقابس وغيرها، ووفد عليه أولاد مهلهل أمراء بنى كعب من سليم وأقيال بنى أبي الليل منهم يستحثونه لملك تونس فسرح معهم العساكر وعقد عليها ليحيى بن عبد الرحمن بن تاشفين^(١) وبعث أسطوله في البحر مددًا لهم وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من أمراء بنى الأحرم.

وكان سلطان تونس يومئذ أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الحفصي ولما اتصل به خبر بنى مرين أخرج حاجبه أبو محمد بن تافراجين لقتالهم فزحفت الجيوش إلى تونس ووصل الأسطول إلى مرساها فقاتلهم ابن تافراجين يوماً أو بعض يوم ثم ركب الليل إلى المهدية فتحصن بها، ودخل أولياء السلطان إلى تونس في رمضان من سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وأقاموا بها الدعوة المرinية، واحتل يحيى بن عبد الرحمن بالقصبة وأنفذ الأوامر وكتب إلى السلطان أبي عنان بالفتح فعظم سروره، ونظر بعد ذلك في أحوال ذلك القطر وبعض أيدي العرب من رياح عن الإناوه التي يسمونها الخفارة، فارتبا برا وطالبهم بالرهن عن الطاعة، فأجمعوا الخلاف والتلفوا على أميرهم يعقوب بن علي ولحقوا بالزاب؛ وارتحل السلطان في أثرهم فأجلفو أمامه إلى القفر فخراب حصونهم التي بالزاب ورجع عنهم وحمل له ابن مزني عامل بسكرة والزاب جبائه وأطلق المؤن للعسكر من الإدام والحنطة والحملان والعلوفة ثلاثة أيام، وكفأه السلطان على صنيعه فخلع عليه وعلى أهله وولده وأسرى جوانزهم.

ورجع إلى قسطنطينة واعتزم على الرحلة إلى تونس، وضاقت العساكر ذرعاً بشأن النفقات والإبعاد في الرحلة وارتكاب الخطط في دخول إفريقية،

(١) التيريدي.

فتمشت رجالاتهم في الانقضاض عن السلطان ودخلوا الوزير فارس بن ميمون في ذلك فوافقهم؛ ثم أذن شيخ العسكرية ونقيبها لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى يبقوا متفردين وأنهى إلى السلطان أبي عنان أن شيخ العسكرية قد عزموا على قتلها ونصب إدريس بن عثمان بن أبي العلاء للأمر فأسرها في نفسه ولم يهدأ لهم، ورأى قلة من معه من الجندي فارتاتاب وكر راجعاً إلى المغرب بعد أن كان ارتحل عن قسنطينة إلى جهة تونس مرحلتين؛ فانكفا وأخذ السير إلى فاس فاحتل بها غرة ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين المذكورة، وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون لأنه اتهمه بمدخلة بني مرین في شأنه وقتلها رابع أيام التشريق قعضاً بالرماح، وتقبض على مشيخة بني مرین فاستحلّمهم وأودع طائفة منهم السجن.

ولما رجع السلطان أبو عنان من إفريقيـة بلغ خبره إلى الجهات؛ فارتحل أبو محمد بن تافراجين من المهدية إلى تونس ولما أطل عليها ثارت شيعة الحفصيين على من كان بها من جيش بني مرین فنجحوا إلى السفن وركبوا البحر إلى المغرب، وجاء على أثرهم يحيى بن عبد الرحمن فيمن كان معه من العساكر وأولاد مهلل وكان يوم الهيبة بناحية الجريد لاقبضاء جياته فصوب إلى المغرب واجتمعوا كلهم بباب السلطان أبي عنان فأرجأ حركته إلى العام القابل وكان ما نذكره إن شاء الله.

وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر إلى إفريقيـة

لما رجع السلطان أبو عنان من إفريقيـة ولم يستتم فتحها بقي في نفسه منها شيء وخشي على ضواحي قسنطينة من يعقوب بن علي ومن معه من الذواودة المخالفين فأهمه شأنهم واستدعى سليمان بن داود من مكانه بجبل طارق وعقد له على وزارته وسرمه في العساكر إلى إفريقيـة فنهض إليها في ربيع من سنة تسعة وخمسين وسبعمائة، وكان السلطان أبو عنان لما خالف عليه يعقوب بن علي وفر إلى القفر أقام مكانه أخاه المنازع له في رياضة رياح

ميمون بن علي وقدمه على أولاد محمد من الذواودة وأحله بمكانه من رئاسة البدو فنزع إليه عن أخيه يعقوب الكثير من قومه، وتمسك بطاعة السلطان أيضاً طائف من أولاد سباع بن يحيى فانحاشوا جميعاً للوزير ونزلوا بحللهم على مسكنه.

ثم ارتحل السلطان أبو عنان من فاس حتى احتل بتلمسان فأقام بها لمشاهدة أحوال الوزير المذكور واحتل الوزير بوطن قسنطينة وبعث إلى عامل بسكرة والزاب يوسف بن مزنبي بأن تكون يده معه وأن يفاوضه في أحوال الذواودة لرسوخه في معرفتها؛ فارتحل إليه من بسكرة ونازلوا جبل أوراس^(١) واقتضوا جيابته ومقارنه وشردوا المخالفين من الذواودة عن العيش في الوطن فتم غرضهم من ذلك؛ وانتهى الوزير وعساكر السلطان إلى أول أوطان إفريقيا من آخر مجالات رياح، وانكفا راجعاً إلى المغرب فوافى السلطان أبي عنان بتلمسان ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا في الخدمة فوصلتهم السلطان وخلع عليهم وحملهم وفرض لهم في العطاء بالزاب وكتب لهم بذلك وانقلبوا إلى أهليهم فرحين مغتبظين، ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزنبي أوفده أبوه بهدية إلى السلطان من الخيل والرقيق والدرق فتقبلها السلطان وأكرم وقادته، ثم استصحبه إلى فاس ليربه أحوال كرامته وليستبلغ في الاحتفاء به واحتل بدار ملكه متصرف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين وسبعينة.

وفاة السلطان أبي عنان رحمة الله

لما وصل السلطان أبو عنان إلى دار ملكه بفاس احتل بها بين يدي العيد الأكبر حتى إذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض بالملصلى وأعجله طائف الوجع عن الجلوس للناس يوم العيد على العادة فدخل قصره ولزم فراشه.

(١) صوابه أوراس.

وذكر ابن خلدون ما حاصله: «إنه كانت بين الوزير حسن بن عمر الفودودي وبين ولی العهد أبي زيان محمد بن السلطان أبي عنان نفرة مستحکمة لسوء طويته وشر ملکته فاتفاق الوزير المذکور مع من كان على رأيه من أهل مجلس السلطان على تحويل الأمر عنه إلى غيره من أبناء السلطان فأجمعوا الفتک به والبیعة لأخيه أبي بکر السعید طفلاً خماسياً، ثم أغروا الوزیر مسعود بن عبد الرحمن بن ماسای بتطلب أبي زيان ولی العهد في نواحي القصر والتقبض عليه فدخل إليه وتلطف في إخراجه من بين الحرم وقاده إلى أخيه السعید فبایع وثُل إلى بعض حجر القصر فأتلفت فيها مهجته، واستقل الحسن بن عمر بالأمر يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ذي الحجة والسلطان أبو عنان أثناء ذلك يوجد بنفسه، وارتقب الناس دفنه يوم الأربعاء والخميس بعده فلم يدفن فارتابوا وفسن الكلام فدخل الوزیر زعموا إليه بمکانه من قصره ثم غطه حتى أتلفه ودفن^(١) يوم السبت وحجب الحسن بن عمر الولد المنصوب للأمر وأغلق عليه بابه وتفرد بالأمر والنھی دونه» انتهى وهذا أول مرض نزل بالدولة المرینية.

وقال في الجذوة: «توفي السلطان أبو عنان قتیلاً خنقه وزيره الحسن بن عمر الفودودي يوم السبت الثامن والعشرين من ذي الحجة متم سنة تسعة وخمسين وسبعمائة وسته يوم توفي ثلاثة وثلاثون سنة».

بقية أخبار السلطان أبي عنان وسيرته

كان السلطان أبو عنان رحمة الله أبيض اللون تعلوه صفرة؛ طویل القامة يشرف على الناس بطوله نحيف البدن عالي الأنف حسن؛ أعين أدعج جهوري الصوت في كلامه عجلة حتى لا يکاد السامع يفهم ما يقول، عظيم اللحية تماماً صدره أسودها وإذا مرت بها الريح تفرقت نصفين حتى يستبين موضع الذقن؛ وكان فارساً شجاعاً يقوم في الحرب مقام جنده، وكان فقيهاً

(١) بجامع المدينة البيضاء [فاس] وكانت دولته تسعة أعوام وتسعة أشهر.

يناظر العلماء الجلة عارفاً بالمنطق وأصول الدين وله حظ صالح من علمي العربية والحساب؛ وكان حافظاً للقرآن عارفاً بنسخه ومنسوخه، حافظاً للحديث عارفاً برجاته، فصيح القلم كاتباً بلغاً، حسن التوقيع شاعراً أشد له صاحب الجذوة أشعاراً حسنة من ذلك في الحكمة قوله:

إذا تصدر للرياسة خامل جرب الأمور على الطريق الأعوج
وقال ابن الأحمر: «كنت يوماً جالساً معه بمقدمة ملكه من المدينة البيضاء
بفاس فدخل عليه رجل يتصلح فلما نظر إليه قال بديهية:

تراهم في ظواهرهم كراماً ويخفون المكيدة والخداعاً
وللسلطان أبي عنان رحمه الله آثار دينية من بناء المدارس والزوايا وغير ذلك، ومدرسته العنانية بفاس مشهورة إلى الآن؛ ومن مدارسه المدرسة العجيبة بحومة باب حسين من سلا وقد صارت اليوم فندقاً يعرف بفندق أسكور وما قاله أبو بكر بن جزي في بعض ما أنشأه السلطان المذكور من الزوايا قوله:

والسرفـق بالسكنـان والزواـوار	هـذا محلـ الفـضل والإـيشـارـ
فـجزـاؤـها الحـسـنى وـعقـبـى الدـار	دارـ علىـ الإـحسـانـ شـيدـتـ وـالتـقـىـ
لـابـنـ السـبـيلـ وـكـلـ رـكـبـ سـارـىـ	هيـ مـلـجـأـ لـلـوـارـدـيـنـ وـمـورـدـ
أـكـرمـ بـهـاـ فـيـ المـجـدـ مـنـ آـثـارـ	آـثـارـ مـوـلـانـاـ الـخـلـيـفـةـ فـارـسـ
ماـضـيـ العـزـائـمـ سـامـيـ المـقـدارـ	لـازـالـ منـصـورـ اللـوـاءـ مـظـفـراـ
بـهـمـ الـعـلـىـ مـحـمـدـ بـنـ حـدـارـ	بـنـيـتـ عـلـىـ يـدـ عـبـدـهـمـ وـخـدـيـمـ بـاـ
مـنـ بـعـدـ سـبـعـمـيـنـ فـيـ الـأـعـصـارـ	فـيـ عـامـ أـرـبـعـةـ وـخـمـسـيـنـ انـقـضـتـ

وقال صاحب الجذوة: «حدثني شيخنا أبو راشد اليدري أن السلطان أبي عنان هو الذي أحدث بفاس العلم الأزرق في الصومعة يوم الجمعة».

وقال في موضوع آخر منها: «حكى أن السلطان أبي عنان المريني صعد الصومعة يعني بالقرويين ليعتبر المدينة وترتيبها ووقف على المنجاهة وما اتصل بها فاستحسن ذلك وأنعم على الناظر فيها بمرتب وسع عليه فيه

ليستعين به على القيام بشعائر الإسلام» وذلك في سنة تسع وأربعين وسبعمائة، قال: وأمر يأثر ذلك بأن ينصب بأعلى الصومعة صاري من خشب وينشر فيه علم في الأوقات التي يصلى فيها، وفنار فيه سراج مزهر في أوقات صلاة الليل ليستدل بذلك من بعد ومن لم يسمع النساء، وفي ذلك اعتماد بأمور الأوقاف وما يتعلق بها من وجوب الصلوات ويترتب عليها من وجوه الحقوق في العادات والعبادات ومما قيل في ذلك:

نور به علم الإيمان مرتفع للمهتدين به للحق إرشاد
يأتون من كل صوب نحوه فلهم لديه للرشد إصدار وإيراد
وقد لخص ابن الخطيب رحمة الله في رقم الحلول سيرة السلطان أبي عنان فقال:

ولخلص الأمر لكتاب فارس
الأسد المفترس المصنوع له
واحد آحاد الملوك العظما
ومخجل الغيث إذا الغيث هما
أوجب حق الشعر والكتابة
 واستجلب الأمثال الكبارا
يجبرهم على حضور الدولة
وكان جباراً على خدامه
مذهبة إلا يقبل عشرة
فطرة السيف تناغي الدرة
ومات فيما قيل شر ميتة
لم يكن عنه البأس والبسالة
والقيمة أزمة التدبير
ومن أعيان كتابه: أبو القاسم بن رضوان وأبو القاسم البرجي.

ومن أعيان قضاته: أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقربي وهو

جد أبي العباس المقربي صاحب نفح الطيب وغيره من التأليف الحسان، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الفشتالي وغيرهما رحم الله الجميع^(١).

تم الجزء الثالث

وبليه الجزء الرابع وأوله:

الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله

أبي بكر بن أبي عنان بن أبي الحسن المريني

(١) ذكر صاحب روضة النسرين أولاد السلطان أبي عنان فقال: أولاده الذكور السلطان أبو زيان محمد والسلطان أبو يحيى أبو بكر السعيد والسلطان موسى والمهدى بالله والمعتمد على الله محمد والمعتصم بالله محمد والمنتصر بالله محمد والمكتفى بالله محمد والواثق بالله محمد ومحمد المدعى بأبي طریق بناته: فاطمة الصالحة وست العرب ورقية وعائشة وزنو وسکیة وسماء وأم جعفر وأم هانی وجندوزة ولمة العزيز المدعوة بمديلة. وكان جميع ما ولد ثلاثة ونحو خمسة وعشرين ما بين سقط وغيره.

فهرس الموضوعات

الخبر عن دولة بنى مرين ملوك فاس والمغرب وذكر أوليتهم وأصلهم	3
الخبر عن دخول بنى مرين أرض المغرب الأقصى واستيلائهم عليه والسبب في ذلك	4
الخبر عن رياضة أبي محمد عبد الحق بن محيو المريني رحمة الله	5
حرب بنى مرين مع عرب رياح ومقتل الأمير عبد الحق رحمة الله	7
بقية أخبار الأمير عبد الحق وسيرته	8
الخبر عن رياضة الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق رحمة الله	9
الخبر عن رياضة الأمير أبي معرف محمد بن عبد الحق	10
الخبر عن دولة الأمير أبي بكر بن عبد الحق رحمة الله	11
استيلاء الأمير أبي بكر عن مكناسة وبيعة أهلها لابن أبي حفص بواسطته	12
استيلاء الأمير أبي بكر على فاس وبيعة أهلها له	14
انتقاض أهل فاس على الأمير أبي بكر ومحاصرته إياهم	15
استيلاء الأمير أبي بكر على مدينة سلا ثم ارتجاعها منه وهزيمة المرتضى بعد ذلك	17
استيلاء الأمير أبي بكر على سجلمامسة ودرعة وسائر بلاد القبلة وفاة الأمير أبي بكر رحمة الله	19
الخبر عن دولة أبي حفص الأمير عمر بن أبي بكر بن عبد الحق رحمة الله ..	19
الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمة الله ..	20
استيلاء نصارى الإصينيول على مدينة سلا وإيقاع السلطان يعقوب بهم وطردهم عنها	21

خروج بنى ادريس بن عبد الحق على عمهم السلطان يعقوب بن عبد	
الحق رحمة الله 23	
حصار السلطان يعقوب حضرة مراكش ونزع أبي دبوس منها إليه	
وهلاك المرضى بعد ذلك 24	
وقعة تلاع بين يعقوب بن عبد الحق ويعمراسن بن زيان 25	
فتح حضرة مراكش ومقتل أبي دبوس وانقراض دولة الموحدين بها 26	
مراسلة السلطان أبي عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصي للسلطان	
المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمة الله 28	
عقد السلطان يعقوب ولادة العهد لابنه أبي مالك بسلا وما نشأ عن ذلك	
من خروج قرابةه عليه 29	
هجوم النصارى على العرائش وتشميس من ثغور المغرب 21	
وقعة إيسلي بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويعمراسن بن زيان 31	
وفاة الأمير أبي مالك بن أمير المسلمين أبي يوسف 33	
فتح طنجة وسبتها وما كان عن أمر العزفي بهما 34	
فتح سجلماسة وما كان من أمرها 36	
تاریخ وجود البارود 36	
أخبار السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المربي في الجهاد وما	
كان له بالأندلس من الذكر الجميل والفاخر الجليل رحمة الله 37	
الجواز الأول للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد 39	
فتح جبل تينملل ونبش قبوربني عبد المؤمن على يد الملياني عفنا الله عنه 42	
بناء المدينة البيضاء المسماة بفاس الجديد 44	
الجواز الثاني للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد 45	
حدوث الفتنة بين السلطان يعقوب وابن الأحمر وما نشأ عن ذلك 49	
الجواز الثالث للسلطان يعقوب إلى الأندلس مغيثاً للطاغية ومحظياً فرصة	
الجهاد 55	
انعقاد الصلح بين السلطان يعقوب وابن الأحمر والسبب في ذلك 56	
الجواز الرابع للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد 58	
وفادة الطاغية على السلطان يعقوب بأحواز الجزيرة الخضراء وعقد الصلح 58	

62.....	بينهما والسبب في ذلك
65.....	وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمة الله
65.....	بقية أخبار السلطان يعقوب بن عبد الحق وسيرته
	الخبر عن دولة السلطان الناصر لدين الله يوسف بن يعقوب بن عبد
66.....	الحق رحمة الله تعالى
	قدوم بنى أشقيلولة على السلطان يوسف بسلا وإقطاعه إياهم قصر كنامة
68.....	والسبب في ذلك
	حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وعثمان بن يغمراسن بن زيان صاحب
68.....	تلمسان
70.....	انتقاض الطاغية سانجة وإجازة السلطان يوسف إليه
	حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وابن الأحمر واستيلاء الطاغية على
71.....	الطريق بمظاهره ابن الأحمر له
72.....	ثورة عمر بن يحيى بن الوزير الوطاسي بحصن تازوطا
74.....	انعقاد الصلح بين السلطان يوسف وابن الأحمر ووفاته عليه بطنجة
	فتكة ابن الملياني بشيوخ المصامدة وتزويجه الكتاب بهم والسبب في ذلك
77.....	الحصار الطويل على تلمسان وما تخلل ذلك من الأحداث
80.....	نكبة بنى وقاضة يهود فاس
82.....	انتقاض ابن الأحمر واستيلاء الرئيس أبي سعيد على سبتة
83.....	ثورة عثمان بن أبي العلاء بجبال غمارة
85.....	وفاة السلطان يوسف رحمة الله
88.....	بقية أخبار السلطان يوسف وسيرته
88.....	دخول الشريف المولى حسن جد الملوك العلويين من الينبع إلى سجلamasة
89.....	بناء قصبة تطاوين
89.....	وفاة أبي يعقوب الأشقر
90.....	عمل المولد النبوى بال المغرب
90.....	رفع أيدي المؤتمنين من الشهادة بفاس
	الخبر عن دولة السلطان أبي ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب
91.....	ابن عبد الحق رحمة الله

ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق وما كان من أمره 93	
غزو السلطان أبي ثابت بلاد غمارة وسبته ومحاصرته لعثمان بن أبي العلاء 95	
بناء مدينة نطاوين القديمة 96	
الخبر عن دولة السلطان أبي الريبع سليمان بن أبي عامر عبد الله بن يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله 97	
نكبة الفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين واستئصالبني 99	
وقاضة اليهوديين بعد ذلك 99	
انتقاض أهل سبطة على بني الأحمر وراجعتهم طاعة بني مرین 100	
انتقاض الوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي على السلطان أبي 101	
الريبع ومباعته لعبد الحق بن عثمان والسبب في ذلك 101	
قضية أبي الحسن الصغير 102	
الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد يعقوب بن عبد الحق رحمه الله 103	
غزو السلطان أبي سعيد ناحية تلمسان 104	
خروج الأمير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد والسبب في ذلك 105	
وفادة أهل الأندلس على السلطان أبي سعيد واستصراخهم إياه على الطاغية 105	
وما نشأ عن ذلك 108	
انتقاض الأمير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد وما نشأ عن ذلك 110	
بناء مدارس العلم بحضور فاس حرسها الله 111	
أخبار بني العزفي أصحاب سبطة 113	
المصاهرة بين السلطان أبي سعيد في ابنه أبي الحسن وبين أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي والسبب في ذلك 116	
وفاة السلطان أبي سعيد بن يعقوب رحمه الله 117	
الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق رحمه الله 118	
حدوث الفتنة بين الآخرين أبي الحسن وأبي علي ثم مقتل أبي علي والسبب في ذلك 119	
وفادة السلطان ابن الأحمر على السلطان أبي الحسن بحضور فاس وفتح جبل طارق 121	

فتح تلمسان ومقتل صاحبها أبي تاشفين وانقراض الدولة الأولى لبني زيان بمملكته 123
مراسلة السلطان أبي الحسن لسلطان مصر ويعشه المصاحف من خطه إلى المساجد الثلاثة شرفها الله 127
نكبة الأمير أبي عبد الرحمن يعقوب بن السلطان أبي الحسن وفارار وزير زيان بن عمر الوطاسي والسبب في ذلك 132
ثورة ابن هيدرو الع浙江大学 وما كان من أمره 133
أخبار السلطان أبي الحسن في الجهاد وما كان من وقعة طريف التي مُحص الله فيها المسلمين وغير ذلك 134
استيلاء العدو على الجزيرة الخضراء 137
بقية أخبار بني العلاء 139
مراسلة السلطان أبي الحسن لصاحب مصر أبي الفداء إسماعيل بن محمد ابن قلاوون 140
هدية السلطان أبي الحسن إلى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب 151
محاصرة السلطان أبي الحسن ثانيةً مع السلطان أبي بكر الحفصي رحمهما الله 153
غزو السلطان أبي الحسن إفريقيا واستيلاؤه على تونس وأعمالها 154
انتقاض عرب بسليم بافريقيَّة على السلطان أبي الحسن وما نشأ عن ذلك 158
انتقاض الأطراف وثورة أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن واستيلاؤه على المغرب 162
أصل الأشراف الصقليين 166
ركوب السلطان أبي الحسن البحر من تونس إلى المغرب وما جرى عليه من المحن 170
استيلاء السلطان أبي الحسن على مراكش ثم انهزامه عنها إلى هنْتاتة أهل جبل درن ووفاته هناك 173
بقية أخبار السلطان أبي الحسن وسيرته 174
بناء المدرسة العظمى بطالعة سلا 175
سور الماء الداخل إلى سلا المعروف بالأقواس 175

176	المدرسة المصباحية بفاس
178	وفاة أبي الحسن الصغير
179	وفاة ابن البناء
الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي عنان فارس بن أبي	
181	الحسن رحمة الله
184	تملك السلطان أبي عنان بجایة وتولية عمر بن علي الوطاسي
184	ثورة أهل بجایة وقتل عمر بن علي الوطاسي بها
خروج أبي الفضل بن السلطان أبي الحسن ببلاد السوس ثم مقتله عقب	
186	ذلك
190	مدينة القاهرة بأرض السوس
وفادة الوزير ابن الخطيب من قبل سلطانه الغنی بالله على السلطان أبي	
191	عنان رحمهم الله
رحلة السلطان أبي عنان إلى سلا وتطارحه على ولية الأكبر أبي العباس	
200	ابن عاشر رضي الله عنه
201	غزو السلطان أبي عنان إفريقية وفتح قسنطينة ثم فتح تونس بعدها
203	وزارة سليمان بن داود وهو ضه بالعساكر إلى إفريقية
204	وفاة السلطان أبي عنان رحمة الله
205	بقية أخبار السلطان أبي عنان وسيرته

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (ا)	
آل زيان .86.	محمد 101 - 121.
آل الحسين السبط .166.	ابن الأحمر: أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل 123 - 136 - 137 - 138 - 191 - 187 - 166 - 139
آل عبد المؤمن 27 - 35 - 44.	ابن الأحمر: أبو سعيد فرج بن إسماعيل 73 - 82 - 95 - 96 - 113
آل يغمراسن 80 - 116.	ابن الأحمر: أبو الوليد إسماعيل بن أبي سعيد فرج 121.
إبراهيم بن أبي حاتم العزفي .117.	ابن الأحمر: عبد الله بن أبي الحجاج 196.
إبراهيم بن عيسى اليريناني 101 - 105 - 106 - 114.	ابن الأحمر: محمد بن إسماعيل بن أبي شحادة 37
إبراهيم بن هشام 16.	ابن الأحمر: محمد بن إسماعيل بن أبي سعيد فرج 121 - 122 - 123 - 139.
إبراهيم بن وقاصه .81.	ابن الأحمر: محمد بن محمد الفقيه المخلوع 82 - 113.
ابن أبي دبوس 161.	ابن الأحمر: محمد بن يوسف بن نصر
ابن أبي زرع 8 - 44 - 96 - 180 - 187 - 190 - 196.	ابن الأحمر: محمد بن يوسف الأبكى 202.
ابن أبي عياد 94.	ابن الأحمر: محمد بن يوسف الغني 191 - 192 - 199.
ابن أبي وطاط 15 - 17.	ابن الأحمر: محمد الفقيه 32 - 38 - 40.
ابن الأثير 35.	ابن الأحمر: أبو الجيوش نصر بن
ابن الأحمر 206.	

- ابن مرزوق .١٣٠
 ابن مزنى .١٨٣
 ابن الملياني .٩٧ - ٧٨
 ابن هارون .١٥٦
 ابن هيدرو الجزار .١٣٣ - ١٣٤
 أبو إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن .٦
 أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الحفصي .٢٠٢
 أبو إسحاق بن أبي الحسن .٦٨
 أبو إسحاق بن أبي العاص .١٠٩
 أبو إسحاق إبراهيم بن أستقيلولة .٤٥ - ٤٥
 أبو إسحاق الساحلي .١٥٢
 أبو البقاء يعيش .١٠٤ - ١٠٥
 أبو بكر بن زكرياء الحفصي .١١٦ - ١١٧
 أبو بكر .١٣٢ - ١٢٠ - ١١٩ - ١٣٢
 أبو بكر بن حمامة .٤
 أبو بكر بن جزى .٢٠٦
 أبو بكر بن عبد الحق .٩ - ١١ - ١٢ - ١٣
 أبو بكر .١٤ - ١٥ - ١٨ - ١٩ - ٢٠
 أبو بكر .٢١ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٨ - .٧٤
 أبو بكر بن يعقوب .٧٦ - ٧٧ - ٧٩ - .٩٢
 أبو بكر بن يغمراسن .١٦
 أبو بكر الحفصي .١٢٥ - ١٣٤ - ١٥٣ - ١٥٤
 أبو بكر السعید بن أبي عنان .٢٠٥ - ٢٠٠
 أبو تاشفين الزیانی .١١٩ - ١٢٣ - ١٢٠
 أبو محلی .١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦
 ابن آذفونش .٤٥ - ٥٣
 ابن تافرجین .١٦٢ - ١٦١
 ابن حجاج .٣٦
 ابن جحاف .٨٧
 ابن جمار .١٦٥
 ابن جشار .١٧ - ١٥
 ابن الحمیدی .١٩١
 ابن خلدون .٣ - ١٧ - ٣٠ - ٣٦ - ٥٥ - ٥٦
 ابن الخطیب .١٥٢ - ١٥٧ - ١٧٢ - ١٧٤ - ١٧٩ - ١٢٨ - ١٤٧
 ابن عرفة .١٥٤ - ١٥٦
 ابن راشد الفصی .١٥٦
 ابن زیات البلاشی .١٠٩
 ابن عبد الرحمن المغیلی .١٥
 ابن عبد الرفیع .١٥٦
 ابن عبد السلام .١٥٦
 ابن عطیة المفسر .٦٤
 ابن علان .٨٠
 ابن کانون .٥١
 ابن محلی .٥٣ - ٥٥ - ٥٧

- ١٦٠ - ١٥٩ - ١٥٨ - ١٥٧ - ١٥٦ - ١٥٥
أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو . ١١٦
- ١٧١ - ١٦٦ - ١٦٥ - ١٦٣ - ١٦٢ - ١٦١
أبو ثابت بن عبد الرحمن الزياني ١٧٢ - . ١٨٤ - ١٨٣ - ١٨٢
- ١٧٧ - ١٧٦ - ١٧٥ - ١٧٤ - ١٧٣ - ١٧٢
أبو الحسن علي بن يزكائين ٦٦ . ١٩١ - ١٨٦
- أبو حفص عمر بن يغمراسن ٢٦ .
أبو حفص عمر المرتضى ٣٤ - ٣٦ .
أبو حفص عمر المريني ٢٠ .
أبو الحكم مالك بن المرحل السبتي ٨٨ .
أبو حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن ٨٦ - ٩٢ - ٩٧ - ١٠٢ - ١٠٤ .
أبو خالد محيوي بن أبي بكر ٤ .
أبو الخيل بن عامر بن يحيى ٧٣ .
أبو دبوس إدريس بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن ١٤ - ٢٤ - ٢٥ .
أبو دينان سليمان بن علي ١٧٣ .
أبو راشد اليدري ٢٠٦ .
أبو الربيع سليمان بن أبي عامر عبد الله
ابن يوسف بن عبد الحق المريني ٧٤ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٣ - ١٠٤ - ١٢٥ - ١٢٦ - ١١٣
أبو زكرياء بن أبي بكر الحفصي ١١٦ .
أبو زكرياء بن أبي حفص ١٢ .
أبو زكرياء حيون بن أبي العلاء القرشي
- أبو حاتم العزفي ٥١ - ١١٣ - ١١٤ .
أبو الحجاج يوسف بن محمد الهمданى - ابن الأمير - ٣٤ - ٣٥ .
أبو حديد مفتاح بن أبي بكر ١٨ .
أبو الحسن بن أبي العافية ١٢ .
أبو الحسن بن إسحاق بن أشقيولة ٦٨ .
أبو الحسن بن القطان ٤٤ .
أبو الحسن بن كحاشة ١٠١ .
أبو الحسن الصغير علي بن محمد الزرويلي ١٠٢ - ١١٣ - ١٧٨ - ١٨٧ .
أبو الحسن علي بن الحاج ٥٨ .
أبو الحسن علي بن عثمان ١٠٣ .
أبو الحسن علي بن القبائلي التينملي ١٧٨ .
أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني السلطان الأكحل - ١٠٦ - ١٠٥ - ١٠٣ - ١٠٧ - ١١٠ - ١١١ - ١١٢ - ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٢٨ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٢٩ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٤٧ - ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٤٠

- أبو سعيد بن أبي الربيع القبائلي .43.
- أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء .98.
- أبو سعيد عثمان بن عبد الحق المريني .9.
- أبو سعيد عثمان بن عبد الحق الزياني .182.
- أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني .107 - 106 - 105 - 104 - 103.
- أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني .114 - 113 - 112 - 111 - 110 - 108.
- أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني .132 - 119 - 118 - 117 - 116 - 115.
- أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني .135 - 134 - 133 - 132.
- أبو سلطان عزيز الداني .82.
- أبو الضياء مصباح بن عبد الله البلاصوني .176.
- أبو طالب بن محمد بن أبي مدين .152.
- أبو عامر عبد الله بن يوسف .69 - 68 - 67.
- أبو العباس .14.
- أبو العباس أحمد بن أبي بكر الحفصي .202 - 201 - 154.
- أبو العباس أحمد بن إدريس الbaghawi .185.
- أبو العباس أحمد ابن عاشر الأندلسي .200 - 201.
- أبو العباس أحمد بن عاشر السلاوي - .
- أبو العباس أحمد بن عاشر السلاوي - .201.
- أبو العباس أحمد بن محمد الأزدي - .
- أبو العباس أحمد بن محمد الأزدي - .179.
- أبو العباس أحمد بن رافع الصقلي .166.
- أبو العباس أحمد بن علي الملبياني .77.
- أبو زكرياء يحيى - الواثق - الحفصي .29.
- أبو زكرياء يحيى بن أبي العلاء .53.
- أبو زكرياء يحيى بن أبي طالب العزفي .114.
- أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد الهاشمي .28.
- أبو زكرياء يحيى بن مليلة .101.
- أبو زيان بن أبي سعيد .183.
- أبو زيان بن أبي عنان .205.
- أبو زيان بن عثمان بن يغمراين .86 - 87.
- أبو زيان محمد بن عبد القوى بن العباس بن عطية .39 - 38 - 33.
- أبو زيان متليل بن يعقوب .48 - 51 - 58.
- أبو زيد عبد الرحمن بن أبي طالب .113.
- أبو زيد الفاسي .36.
- أبو زيد محمد بن أبي بكر الحفصي .185.
- أبو سالم إبراهيم بن يوسف .92 - 91 - 82.
- أبو سالم بن أبي الحسن المريني .160 - 186.
- أبو سالم فتح الله السدراتي .44.
- أبو سعيد الأصغر .103.
- أبو سعيد الأكبر .103.

- أبو العباس الرواوي 171.
- أبو العباس الغماري 29 - 53.
- أبو العباس الفضل بن أبي بكر الحفصي 153 - 154 - 162 - 170.
- أبو العباس المقرى 122 - 151 - 207.
- أبو العباس الونشريسي 154.
- أبو عبد الرحمن بن أبي الحسن المريني 125 - 132 - 133.
- أبو عبد الرحمن المغيلي 15.
- أبو عبد الرحمن يعقوب بن يوسف 69 - 75.
- أبو عبد الله الأجمي 154.
- أبو عبد الله الآبي 171.
- أبو عبد الله بن أبي بكر الحفصي 163.
- أبو عبد الله بن أبي الحسن بن أشقيولة 45.
- أبو عبد الله بناني 36.
- أبو عبد الله بن الحباك 44.
- أبو عبد الله بن خالد 156.
- أبو عبد الله بن عبد الرزاق 117.
- أبو عبد الله بن مرزوق 128.
- أبو عبد الله بن يعلو 17 - 21.
- أبو عبد الله الطنجالي 109.
- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي 86.
- أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء بن أبي بكر الحفصي 155 - 156 - 183 - 184.
- أبو عباس الأعلم والقبائل 208.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد المقرى 207.
- أبو عبد الله محمد بن الحكيم الرندي 82.
- أبو عبد الله محمد بن سليمان السطبي 171.
- أبو عبد الله محمد بن الصباع المكتناسى 171.
- أبو عبد الله محمد بن عبد السلام 154.
- أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله ابن الحاج 22.
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو 165 - 184.
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقرى 180.
- أبو عبد الله محمد بن مرزوق 192.
- أبو عبد الله محمد الكتاني 29 - 107.
- أبو عبد الله محمد المستنصر بالله بن أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص 28 - 29 - 35 - 155.
- أبو عثمان الوريأكلى 20.
- أبو عطية العباس بن يعقوب 66.
- أبو عطية مهلهل بن يحيى الخلطي 103.
- أبو علي أحمد المليانى 43 - 77.
- أبو علي بن محمد 14.
- أبو علي واتودين 6.
- أبو علي عمر بن السعود بن خرباش الحشمى 83.

- أبو علي عمر بن عثمان (أبو سعيد المريني) 105 - 106 - 107 - 108 - 109 - 110 - 111 - 113 - 118 - 119 - 120 - 122 - 123 .

أبو عنان فارس بن أبي الحسن المريني 112 - 123 - 129 - 139 - 155 - 164 - 165 - 174 - 173 - 172 - 166 - 181 - 187 - 186 - 185 - 184 - 183 - 182 - 190 - 199 - 195 - 192 - 191 - 200 - 204 - 203 - 202 - 201 .

أبو عنان فارس يغمراسن 32 .

أبو عياد بن أبي يحيى بن حمامة 13 .

أبو عياد بن عبد الحق 9 .

أبو غالب بن المغيلي 101 .

أبو فارس عبد العزيز الملزوزي 88 - 91 .

أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن قلاوون 131 - 140 - 147 .

أبو الفضل بن أبي الحسن المريني 170 .

أبو الفضل بن أبي عبد الله محمد بن أبي مدين 127 - 140 - 147 - 153 - 155 .

أبو القاسم البرحي 207 .

أبو القاسم بن أبي العباس العزفي 34 - 35 .

أبو القاسم بن أبي مدين العثماني 115 .

أبو القاسم الروحوي 158 .

أبو القاسم بن رضوان 207 .

أبو القاسم بن عميرة المخزومي 12 .

أبو المطرف بن عميرة المخزومي 12 .

أبي مدين 144 - 149 - 173 .

أبي مالك عبد الواحد بن يعقوب 23 .

أبي مالك عبد الله بن أبي مدين 78 - 81 .

أبي محمد عبد الله بن تافراجين 116 .

أبي محمد عبد الله بن عبد الله 117 - 132 - 139 - 153 - 154 - 155 .

أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار 112 .

أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي 120 .

أبي محمد الفشالي 14 - 19 .

أبي المجد بن أبي عبد الله محمد بن أبي مدين 67 - 59 - 58 .

أبي معروف محمد بن عبد الحق 9 - 10 .

أبي عيسى بن عبد الله 11 .

أبي القاسم بن عתו 117 - 154 - 156 .

أبي القاسم الشريفي 195 .

أبي مالك بن أبي الحسن المريني 122 .

أبي محمد بن آجانا 168 .

أبو محمد بن أشقيلولة 40 - 48 .

أبو محمد بن عبد الله بن أبي مدين العثماني 178 .

أبو محمد عبد الحق 63 .

أبو محمد عبد الله بن أبي مدين 78 - 81 .

أبو محمد عبد الله بن تافراجين 116 .

أبي مدين 155 - 156 - 157 - 160 - 202 - 203 .

- أبو الملوك عبد الحق المريني 9 - 64.

أبو موسى بن الإمام 180.

أبو موسى عيسى 126.

أبو الھول بن حمزة 155.

أبو الھول بن يعقوب 161.

أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن قلاوون 141.

أبو يحيى بن أبي الصبر 90 - 96 - 97.

أبو يحيى بن عيسى بن علي بن أبي الطلاق 200.

أبو يحيى القطراني 19 - 36.

أبو يعقوب الأشقر 89 - 90 - 178.

الأنج 31 - 59.

أحمد بن عثمان بن أبي دبوس 159.

أحمد بن حمزة 159.

أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي 201.

أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح 129.

أحمد يوسف بن مزني 204.

إدريس بن عبد الحق 7 - 9 - 23 - 88.

إدريس بن عبد الله بن عبد الحق 98.

إدريس بن عثمان بن أبي العلاء 165 - 203.

إسحاق 27.

الأشراف العلويون 88.

الصبغ 21.

أعراب إفريقية 155.

الأغواز 13.

الأكراد 61.

أم العزابة محمد بن حازم العلوي 58.

أهل أزغار 10 - 32.

أهل الأندلس 32 - 39 - 48 - 53 - 100 - 142.

أهل بجاية 163.

أهل بلاد العجريدة 170.

أهل تاونت 79.

أهل تلمسان 85.

أهل تونس 107.

أهل الحرمين 147.

أهل الجزيرة 51 - 52 - 138.

أهل سبتة 82 - 100 - 113 - 115 - 115 - 165.

أهل طريف 71.

أهل طنجة 35.

أهل العدوة 30 - 95.

أهل غرناطة 109.

أهل فاس 15 - 16 - 104.

أهل قسطنطينة 163.

أهل مالي 163.

أهل المغرب 11 - 28 - 31 - 32 - 59 - 60 - 69 - 70 - 82 - 83 - 135.

أهل مكتنasse 12.

أهل ندرومة 79.

أوربة 139.

أولاد أبي العلاء 165.

أولاد أبي الليل 159 - 170.

- بنو توجين 20 - 125 - 124 - 54 - 33 - 20 . أولاد جرار 152.
- بنو سباع بن يحيى 204 - 163 - 160 - 126 . أولاد سباع بن يحيى 204.
- بنو تبرعین 92 - 120 . أولاد علي 133.
- بنو جابر 18 - 94 - 31 . أولاد القوس 159 - 161.
- بنو جشم 158 . أولاد محبوب 176.
- بنو حكيم 159 . أولاد محمد 204.
- بنو حمزة بن عمر 155 - 170 - 162 . أولاد محلی 67.
- بنو راشد 32 . أولاد مهلهل 155 - 162 - 161 - 159 - 162 - 203.
- بنو رحوب بن عبد الحق 29 . الوليد بن عبد الملك 9.
- بنو زغبة 127 - 153 - 133 .
- بنو زيان 97 - 151 - 125 - 124 - 119 . حرف (ب)
- بنو سعيد 74 . البربر 3 - 30 - 36.
- بنو سليم 158 . البرتغال 136.
- بنو سوید 133 . برنس الفرنجي 32.
- بنو عامر 133 . بطراة بن سانجة 108.
- بنو عبد الحق 20 - 72 - 67 - 30 - 29 . بطروية 9.
- بنو عبد الله بن عبد الله 29 . بهلولة 9.
- بنو عبد الواحد 3 - 32 - 26 - 20 - 16 . بنو أبي حفص 28 - 80 - 116 - 123.
- بنو العلاء 36 - 39 - 39 - 85 - 81 - 76 - 54 - 43 . بنو أبي العلاء 123 - 139.
- بنو العلاء 92 - 164 - 163 - 160 - 126 - 125 - 92 . بنو أبي عياد بن عبد الحق 30.
- بنو الأحمر 98 - 202 - 139 - 113 - 112 . بنو أبي الليل 161 - 202.
- بنو إدريس بن عبد الحق 23 - 29 . بنو الأحمر 98 - 202 - 139 - 113 - 112.
- بنو إدريس بن يعقوب 67 . بنو إدريس بن عبد الحق 23 - 29.
- بنو أذفونش 82 . بنو أذفونش 82.
- بنو أشقيولة 49 - 53 - 68 . بنو أمية 75.
- بنو كعب 159 - 202 - 166 - 124 - 79 - 77 - 31 - 43 - 72 - 77 - 109 . بنو أثرب 83.

- تاشفين بن أبي مالك .50
 تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب
 المريني .39.
 تاشفين بن يعقوب الوطاسي 100 - 101.
 الترك .83.
 رسول .9.
حرف (ث)
 الثعلبي المفسر .64.
حرف (ج)
 جشم .173.
 الجلالقة .45.
 جمال الدين .130.
 جمال الدين بن نباتة المصري .131.
 جوان .109.
حرف (ح)
 الحاج أبو الزبير طلحة بن يحيى بن محلى .61.
 الحاج المسعود .93.
 الحرة - أخت أبي الحسن المريني 140 - .147.
 الحرة - أم المعز ابنة محمد حازم العلوى
 - أم السلطان يعقوب المريني .89.
 الحرة مريم .130.
 الحسن بن أبي عامر بن عبد الله بن يعقوب المريني .93.
 الحسن بن سليمان بن يرز يكن 164 - .165.
حرف (ت)
 تاشفين بن أبي الحسن 120 - 137 - 163 - .186.

- الحسن بن علي بن أبي الطلاق 102.
 حسن بن قاسم الحسني 88.
 الحسن بن عمر الفودودي 204 - 205.
 الحشم 125.
 الحفصيون 28 - 29 - 43 - 72 - 116 -
 132 - 135 - 157 - 158 - 159 - 163.
 حمامه بن محمد 4 - 7.
 حمو بن يحيى العسكري 155.
 حمبضة بن أبي نمى 83.
حرف (خ)
 خالد بن أبي بكر الحفصي 155.
 خالد بن حمزة بن عمر 155 - 159 - 161.
 الخضر الغزى 61.
 الخطيب بن مرزوق 177.
 الخلط 31 - 59.
 خليفة الأصغر 81 - 99.
 خليفة بن أبي زيد 159 - 161.
 خليفة بن وقاصه 81 - 100.
 خليفة بن عبد الله 159.
 خليل الصفدي 147.
حرف (ذ)
 داود بن السلطان يوسف 74.
 دعد 86.
 الدولة الأحمرية 121.
 دولة الأندلس 123.
حرف (س)
 سانجة بن هراندة 55 - 56 - 57 - 58.
 سانحة بن هرانتة 55 - 56 - 61 - 62 - 63 - 66 - 70 - 111.

- سدراتة 9.
- سعادة الخصى 85.
- الصنهاجيون 185.
- حرف (ط)**
- السعود بن خرباش 15.
- طلحة بن محلى 24 - 43.
- حرف (ظ)**
- السعيد - علي بن المأمون الموحدى - 125 - 13 - 12 - 72 - 11.
- ظافر 156.
- سفيان 31 - 50 - 94.
- سليم 159 - 202.
- سليمان بن داود 200 - 203.
- سليمان بن عبد الملك 9.
- سليمان بن عبد الله بن السلطان يوسف 74.
- عائشة ابنة أبي بكر بن يعقوب المريني 136.
- عائشة ابنة أبي بكر الحفصى 181.
- عائشة ابنة الأمير أبي عطية مهلهل بن يحيى الخلطي 103.
- عائشة الجزرية 181.
- عام المشعلة 6.
- عامر بن إدريس 23 - 28 - 30.
- عامر بن فتح الله السدراتي 115 - 177.
- عامر بن يحيى بن الوزير 72 - 73.
- عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق المريني 95 - 102 - 103 - 114 - 125 - 126.
- عبد الحق بن محمد بن عبد الحق 16.
- عبد الحق بن محبوب المريني 4 - 5 - 7 - 23 - 8 - 9 - 19.
- عبد الرحمن بن عبد الحق 9.
- عبد الرحمن الوطاسي 114.
- عبد الحق بن يعقوب الوطاسي - رجو 102 - 103 - 104 - 114 - 125 - 126.
- عبد السلام الأوربي 19.
- حرف (ش)**
- الشبانات - 31.
- شريذ الفرنجي 15.
- شعيب بن مخلوف بن أبي عثمان 99.
- شمس الرواوية 124.
- شمس الضحى 181.
- الشيخ خليل 36.
- حرف (ص)**
- صخر بن موسى 156.
- صناكتة 191.
- صنهاجة 31 - 39 - 151 - 157 - 179 - 185.

- عثمان بن عبد الحق . ٧
 عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان ١٦٣ - ١٦٥ - ١٧٢ .
 عثمان بن عفان ٧٥ .
 عثمان بن عيسى اليرباني ١٠١ .
 عثمان بن يحيى بن جرار ١٦٤ .
 عثمان بن يعقوب ١٠٣ .
 عثمان بن يغمراسن ٥٦ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٦ - ٧٩ - ٨١ .
 عثمان بن يوسف ١٠٣ .
 عدي بن هنر الهمسكوني ١٠٤ .
 العرب ٣ - ٦ - ١١ - ٢٦ - ٣٢ - ٣١ - ٣٦ - ٩١ - ٩٥ - ٥٨ - ٤٥ - ٥٠ - ٣٩ - ١١٩ - ١١٨ - ١٠٦ - ١٠٤ - ١٠٢ - ١٦١ - ١٦٠ - ١٥٨ - ١٥٧ - ١٥٦ - ١٢٩ - ١٧٣ - ١٧١ - ١٧٠ - ١٦٣ - ١٦٢ - ٢٠٤ - ٢٠٢ - ١٨٢ .
 عرب إفريقيا ١٥٨ .
 عرب بني ذغبة ٣٢ .
 عرب جشم ٥٠ - ٦١ - ٩٤ .
 عرب الحارث ٥٠ .
 عرب الخلط ٢٦ - ٥٩ - ١٢٧ .
 عرب رياح ٧ - ١٠ - ٩٤ - ١٧٣ .
 عرب سليم ١٥٥ .
 عرب سعيد ١٢٥ - ١٥٣ - ١٧١ - ١٧٢ .
 عرب العاصم ٣١ - ٥٩ - ٩٤ .
 عرب معقل ٦٧ .
 عرب المغرب الأقصى ١٥٨ .
 عبد العزيز بن أبي بكر الحفصي ١٥٥ .
 عبد العزيز بن محمد القديمي ٧٨ .
 عبد العزيز بن محمد بن علي الهاشمي ١٧٣ .
 عبد الكريم بن عيسى ٧٧ - ٧٨ .
 عبد الله بن إبراهيم الفودودي ١٧٧ .
 عبد الله بن أبي الحسن المربي ١٦٣ .
 عبد الله بن عبد الحق ٩ .
 عبد الله بن علي بن سعيد ١٦٥ - ١٨٦ .
 عبد الله بن مسلم الزرداطي ١٩١ .
 عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق ٢٤ .
 عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المربي ٩٧ .
 عبد الله السكسيوي ١٩٠ .
 عبد الملك بن محمد العبد الوادي - ابن حنيفة - ٣٢ - ٣٧ .
 عبد الملك بن مكي ١٥٦ .
 عبد الملك بن مروان ٩ .
 عبد المؤمن بن علي ٤ - ٢٢ - ١٧٢ .
 عبد الواحد بن المحباني ١٥٩ .
 عبد الواحد بن يعقوب ٣٢ .
 عبد الواحد السكسيوي ٥١ - ٩٤ .
 عبد الواحد الفودودي ٩٥ .
 العبيديون ١٥٧ .
 عثمان بن أبي تاشفين ١٢٥ - ١٢٦ .
 عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الحق ٨٣ - ٩٢ - ٩٥ - ٩٧ - ١٠٠ - ١٣٩ - ١٢٢ - ١٠٩ .

- عرب المنبات 36 - 37 .
العرب الهلاليون 3 .
عريف بن يحيى 125 - 127 - 133 - .
عمر بن علي الوطاسي 184 .
عمر بن موسى الفودودي 103 .
عمر بن يحيى بن محلى 48 - 50 - 61 .
عمر بن يحيى بن الوزير 72 - 73 .
عمر بن يخلف الفودودي 106 .
عنبر الخصى 152 - 153 .
عتر بن ون Zimmerman 172 .
عياد بن أبي عياد الفاطمي 61 .
عيسي بن الحسن بن علي بن أبي
الطلاق 200 .
عيسي بن عبد الكرييم 78 .
عيسي بن واحد بن يعقوب 57 .
عيسي بن ماسا 33 .
حرف (غ)
الغز 59 .
غمارة 39 .
غنسالو الفرنجي 102 .
حرف (ف)
فارح مولى سيد الناس 184 - 185 .
فارس بن ميمون بن وردار 127 - 165 - .
فاطمة ابنة أبي بكر الحفصي 117 - 119 - .
فتح الله السدراتي 45 .
الفرنج 11 - 31 - 32 - 41 - 42 - 46 - 47 - .
فشتالة 9 .
عمر بن حمزة 162 - 170 .
عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق 101 .
عمر بن السعود بن خرباش 75 .
عمر بن عبد الواحد بن يعقوب 59 .
عمر بن عثمان 125 .
علان بن محمد 134 - 135 .
علي بن زيان 23 .
علي بن عبد الكرييم 78 .
علي بن عثمان بن عبد الحق 18 .
علي بن عمر الوطاسي 185 .
علي بن غانم 152 .
علي بن محمد الهناتي 77 - 78 .
علي بن منصور 156 .
علي بن يوسف بن زريقاء 97 .
علي بن يوسف بن يزكاثن 70 - 77 .
عمر بن أبي بكر الحفصي 154 - 155 - .
عمر بن حمزة 159 - 156 .
عمر بن عثمان 162 - 170 .
عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق 101 .
عمر بن السعود بن خرباش 75 .
عمر بن عبد الواحد بن يعقوب 59 .
عمر بن عثمان 125 .

- | | | |
|---------------------------------|------|--------------|
| الفضل بن أبي بكر الحفصي ١٥٧ - | ١٦١. | المرابطون ٤. |
| محمد بن إسماعيل بن الأحمر ١٢١ - | ١٦٣. | |
| الفشن ٤٨. | | |

حرف (ق)

- | | | |
|---------------------------------------|---------------|--|
| القاضي المغيلي ١٧. | | |
| قبائل بني مرbin ٩٥. | | |
| قبائل تازا ٨٢. | | |
| قبائل الخلط ٩٤. | | |
| قبائل رياح ٣٢. | | |
| قبائل الريف ٨٢. | | |
| قبائل زكنة ٩٤. | | |
| قبائل المغرب ٣٦. | | |
| فتيبة بن حمزة ١٥٩ - | ١٦١. | |
| قدمية ٧٧. | | |
| محمد بن سلامة بن علي ١٢٥. | | |
| محمد بن سيد الناس ١١٦ - | ١٨٥. | |
| محمد بن العباس بن تاحضريت ١٣٧. | | |
| محمد بن عبد القوي ٣٣ - | ٤٤ - ٥٤ - ٦٩. | |
| محمد بن عبد الله بن أبي الحسن ٦٨. | | |
| محمد بن عثمان بن يغماسن ٨١. | | |
| محمد بن عطرو الجناتي ٥٩ - | ٦٧. | |
| محمد بن علي أبي القاسم العزفي ١١٥ - | ١٣٥. | |
| محمد بن علي بن يحيى ٢٧. | | |
| محمد بن علي بن محلى ٦٧. | | |
| محمد بن عمران ٥٩. | | |
| محمد بن طالب ١٦١. | | |
| محمد بن المحروم ١٢١. | | |
| محمد بن يوسف الأبيكم ٢٠٢. | | |
| محمد بن ورزيز ٣ - | ٤. | |
| محمد بن يغماسن ٥٦ - | ٦٩. | |
| محمد بن يوسف بن هود الجذامي ٣٧ - | ٣٨. | |
| المخضب بن عسكر ٤. | | |
| مخلوف بن هنو الهمكوري ٩٣. | | |
| المرتضى ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ٢٤ - ٢٥ - | | |
| مريم أم ولد أبي سعيد المربيني ١٢٩. | | |

حرف (ك)

- | | | |
|---------------------|--|--|
| كتامة ٩٩. | | |
| الكهوب ١٥٥. | | |
| كندوز بن عثمان ١١٠. | | |

حرف (ل)

- | | | |
|---------------------------------|------|--|
| لبيدة بن أبي نمى ٨٣. | | |
| الموكل العباسي ٧٤. | | |
| محمد بن أبي زكرياء العزفي ١١٤ - | ١١٥. | |

حرف (م)

- | | | |
|------------------------------------|------|--|
| محمد بن أبي عمرو ١٨٤. | | |
| محمد بن أبي عمران ١١٦. | | |
| محمد بن إدريس بن عبد الحق ١٠ - | ٢٣. | |
| مريم أم ولد أبي سعيد المربيني ١٢٩. | ٦٧ - | |

- منصور بن إبراهيم بن الحاج .185

منصور بن الحاج خلوق الياباني .202

المنصور بن عبد الكريـم .78

المنصور بن عبد الواحد بن يعقوب .72

ـ .73

المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق .4

ـ .20

ـ .19

ـ .18

ـ .17

ـ .14

ـ .12

ـ .21

ـ .22

ـ .23

ـ .24

ـ .25

ـ .26

ـ .27

ـ .29

ـ .30

ـ .31

ـ .32

ـ .33

ـ .35

ـ .36

ـ .37

ـ .38

ـ .39

ـ .40

ـ .41

ـ .42

ـ .43

ـ .44

ـ .45

ـ .46

ـ .47

ـ .48

ـ .49

ـ .50

ـ .53

ـ .54

ـ .55

ـ .56

ـ .58

ـ .61

ـ .62

ـ .65

ـ .68

ـ .69

ـ .70

ـ .77

ـ .88

ـ .89

ـ .107

ـ .111

ـ .140

ـ .175

ـ .52

ـ .135

ـ .140

ـ .143

ـ .144

ـ .145

ـ .146

ـ .147

ـ .148

ـ .149

ـ .150

ـ .151

ـ .152

ـ .153

ـ .154

ـ .155

ـ .156

ـ .157

ـ .158

ـ .159

ـ .160

ـ .161

ـ .162

ـ .163

ـ .164

ـ .165

ـ .166

ـ .167

ـ .168

ـ .169

ـ .170

ـ .171

ـ .172

ـ .173

ـ .174

ـ .175

ـ .176

ـ .177

ـ .178

ـ .179

ـ .180

ـ .181

ـ .182

ـ .183

ـ .184

ـ .185

ـ .186

ـ .187

ـ .188

ـ .189

ـ .190

ـ .191

ـ .192

ـ .193

ـ .194

ـ .195

ـ .196

ـ .197

ـ .198

ـ .199

ـ .200

ـ .201

ـ .202

ـ .203

ـ .204

ـ .205

ـ .206

ـ .207

ـ .208

ـ .209

ـ .210

ـ .211

ـ .212

ـ .213

ـ .214

ـ .215

ـ .216

ـ .217

ـ .218

ـ .219

ـ .220

ـ .221

ـ .222

ـ .223

ـ .224

ـ .225

ـ .226

ـ .227

ـ .228

ـ .229

ـ .230

ـ .231

ـ .232

ـ .233

ـ .234

ـ .235

ـ .236

ـ .237

ـ .238

ـ .239

ـ .240

ـ .241

ـ .242

ـ .243

ـ .244

ـ .245

ـ .246

ـ .247

ـ .248

ـ .249

ـ .250

ـ .251

ـ .252

ـ .253

ـ .254

ـ .255

ـ .256

ـ .257

ـ .258

ـ .259

ـ .260

ـ .261

ـ .262

ـ .263

ـ .264

ـ .265

ـ .266

ـ .267

ـ .268

ـ .269

ـ .270

ـ .271

ـ .272

ـ .273

ـ .274

ـ .275

ـ .276

ـ .277

ـ .278

ـ .279

ـ .280

ـ .281

ـ .282

ـ .283

ـ .284

ـ .285

ـ .286

ـ .287

ـ .288

ـ .289

ـ .290

ـ .291

ـ .292

ـ .293

ـ .294

ـ .295

ـ .296

ـ .297

ـ .298

ـ .299

ـ .300

ـ .301

ـ .302

ـ .303

ـ .304

ـ .305

ـ .306

ـ .307

ـ .308

ـ .309

ـ .310

ـ .311

ـ .312

ـ .313

ـ .314

ـ .315

ـ .316

ـ .317

ـ .318

ـ .319

ـ .320

ـ .321

ـ .322

ـ .323

ـ .324

ـ .325

ـ .326

ـ .327

ـ .328

ـ .329

ـ .330

ـ .331

ـ .332

ـ .333

ـ .334

ـ .335

ـ .336

ـ .337

ـ .338

ـ .339

ـ .340

ـ .341

ـ .342

ـ .343

ـ .344

ـ .345

ـ .346

ـ .347

ـ .348

ـ .349

ـ .350

ـ .351

ـ .352

ـ .353

ـ .354

ـ .355

ـ .356

ـ .357

ـ .358

ـ .359

ـ .360

ـ .361

ـ .362

ـ .363

ـ .364

ـ .365

ـ .366

ـ .367

ـ .368

ـ .369

ـ .370

ـ .371

ـ .372

ـ .373

ـ .374

ـ .375

ـ .376

ـ .377

ـ .378

ـ .379

ـ .380

ـ .381

ـ .382

ـ .383

ـ .384

ـ .385

ـ .386

ـ .387

ـ .388

ـ .389

ـ .390

ـ .391

ـ .392

ـ .393

ـ .394

ـ .395

ـ .396

ـ .397

ـ .398

ـ .399

ـ .400

ـ .401

ـ .402

ـ .403

ـ .404

ـ .405

ـ .406

ـ .407

ـ .408

ـ .409

ـ .410

ـ .411

ـ .412

ـ .413

ـ .414

ـ .415

ـ .416

ـ .417

ـ .418

ـ .419

ـ .420

ـ .421

ـ .422

ـ .423

ـ .424

ـ .425

ـ .426

ـ .427

ـ .428

ـ .429

ـ .430

ـ .431

ـ .432

ـ .433

ـ .434

ـ .435

ـ .436

ـ .437

ـ .438

ـ .439

ـ .440

ـ .441

ـ .442

ـ .443

ـ .444

ـ .445

ـ .446

ـ .447

ـ .448

ـ .449

ـ .450

ـ .451

ـ .452

ـ .453

ـ .454

ـ .455

ـ .456

ـ .457

ـ .458

ـ .459

ـ .460

ـ .461

ـ .462

ـ .463

ـ .464

ـ .465

ـ .466

ـ .467

ـ .468

ـ .469

ـ .470

ـ .471

ـ .472

ـ .473

ـ .474

ـ .475

ـ .476

ـ .477

ـ .478

ـ .479

ـ .480

ـ .481

ـ .482

ـ .483

ـ .484

ـ .485

ـ .486

ـ .487

ـ .488

ـ .489

ـ .490

ـ .491

ـ .492

ـ .493

ـ .494

ـ .495

ـ .496

ـ .497

ـ .498

ـ .499

ـ .500

- يحيى بن سليمان العسكري ١٢٤ - ١٥٦ . ميمون بن علي ٢٠٤ .
- . ١٥٧ حرف (ن)
- يحيى بن طلحة بن محلى ١٢٢ . الناصر ٤ .
- يحيى بن عبد الرحمن بن تاشفين ٢٠٢ . الناصر بن أبي الحسن المريني ١٧١ - . ١٧٢
- . ٢٠٣
- يحيى بن عبد الله بن وانودين ٢٤ . الناصر ل الدين يوسف بن يعقوب ٣٠ - . ٣٢ - ٤٣ - ٤٦ - ٤٩ - ٥١ - ٥٤ - ٥٧ - ٥٩ - ٥٨ - ٥٩ - ٥٣
- . ١٢٤ - ١١٦ يحيى بن موسى ١١٦ - . ٦١ - ٦٠ - ٥٩ - ٥٧ - ٥٤ - ٥٣
- . ١١٥ يحيى الراندحي ١١٥ . ٧١ - ٧٠ - ٦٩ - ٦٧ - ٦٦ - ٦٤ - ٦٣
- . ٩ يزيد بن عبد الملك ٩ . ٧٩ - ٧٨ - ٧٧ - ٧٦ - ٧٤ - ٧٣ - ٧٢
- . ٩٤ يعقوب بن آصناك ٩٣ - . ٨٦ - ٨٥ - ٨٤ - ٨٣ - ٨٢ - ٨١ - ٨٠
- ٢١ يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق ٢١ . ١١٩ - ٩٩ - ٩١ - ٩٠ - ٨٨ - ٨٧
- . ٢٢
- . ٢٠٣ يعقوب بن علي ١٣٤ - ٢٠٢ - . ١٧٨ - ١٢٧ - ١٢٤
- ١٩ - ١٨ - ١٣ يغمراسن بن زياد ١٢ - . ٤١ - ٤٠ نونة ٤٠ - .
- ٣٢ - ٣١ - ٢٦ - ٢٥ - ٢٣ - ٢٢ - ٢٠
- ٥٣ - ٥٠ - ٤٤ - ٣٩ - ٣٦ - ٣٥ - ٣٣ . ١٢٥ - ٦٨ - ٥٦ - ٥٤
- . ١٧٥ اليفريني ١٧٥ . هرانتة بن سانجة ٥٨ - . ٨٢
- . ٧٢ - ٤٩ يوسف بن تاشفين ٤٨ - . ٩٣ - ٩٢ هشام بن عبد الملك ٩ .
- . ١٠٣ يوسف بن عيسى الحشمي ٩٣ - . ١٨٥ هلال مولى سيد الناس ١٨٥ .
- . ٦١ يوسف بن قيطون ٦٠ - . ١٧٣ هنتاتة ٢٨ - ٧٧ - . ٩ هوارة ٩ .
- . ٢٠٤ يوسف بن مزني ١٨٦ - . ١٨٥ الروطاسي ١٨٥ .
- يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق ٩٣ - ٩٥ - . ١٣٣ - ١٧٢ ونزمار بن عريف يحيى ١٣٣ - . ١٧٢
- . ١٩ يوسف بن بركاسن ١٩ . ١٨٤ يحيى بن داود ١٨٣ - . ١٧٢
- . ١٠٨ يوسف بن يعقوب ٩٥ - ٩٩ - . ٥ يوسف المتصر ٤ - . ٥

فهرس الأماكن

.138 - 70 - 63 - 61 - 60

حرف (ا)

أصيلا .96 - 83 - 35 - 34

آزمور .25 - 21

أفراك .115

آنفا - الدار البيضاء .52 - 23

- 116 - 90 - 34 - 28 - 12 - 5 - إفريقيا

آنکاد .32

157 - 155 - 154 - 151 - 135 - 129

أبدة .57 - 40

- 162 - 161 - 160 - 159 - 158 -

أبو سليم .18

201 - 184 - 183 - 170 - 164 - 163

أبو طويل .94

.204 - 203 -

أرجونة .47

أكرسيف .25 - 13 - 5 - 13 - 25

أرض الأنجلس .108

أم الريبع .20

أرض الحامة .156

40 - 38 - 37 - 23 - 12 - 8 - الأنجلس .4

أرض حمزة .133

- 57 - 56 - 55 - 48 - 47 - 44 - 41 -

أرض السودان .151

- 71 - 70 - 69 - 68 - 65 - 61 - 58

أرض السوس .190 - 45

- 98 - 97 - 95 - 83 - 82 - 75 - 73

أرض المغرب .187

- 118 - 115 - 114 - 108 - 104 - 103

أغamas .94 - 43

- 129 - 126 - 125 - 123 - 122 - 121

الإسكندرية .128 - 161

- 144 - 139 - 138 - 137 - 136 - 133

أستجة .61

.200 - 194 - 186 - 145

أسطبوة .64

حرف (ب)

باب تحسينت بستجلماسة .18

- 59 - 46 - 45 - 42 - 37 - إشبيلية .22

- . باب الجديد .112
- . باب الجيزين بفاس .19
- . باب الشريعة بتازا .67
- . باب الشريفة بفاس .17
- . باب الشريفة بمراكبش .43
- . باب الرب بمراكبش .94
- . باب الفتوح .74
- . بادس .42 - .52
- . بحر الرقاق .70 - .71 - .138
- سجابة .80 - .155 - .135 - .119 - .156
- . بلاد السوس .27 - .51 - .58
- . بلاد زناتة .15
- . بلاد زواوة .171
- . بلاد الصحراء .11 - .128
- . بلاد صنهاجة .26 - .94
- . بلاد العرب .134
- . بلاد العدوة .65
- . بلاد غمارة .30 - .42 - .61 - .95 - .126
- . بلاد فازار .10 - .15 - .17 - .43
- . بلاد القبلة .5 - .19 - .94 - .107 - .118
- . بلاد مالي .152
- . البلاد المراكشية .124
- . بلاد المشرق .84
- . بلاد مغراوة .80
- بلاد المغرب .10 - .11 - .20 - .34 - .36 - .34
- . بلاد بطورية .37 - .53 - .104 - .176
- . بلاد التخييل .3
- . بلاد الهبط .10 - .32 - .94
- . بلاد هسکورة .67

- 93 - 92 - 91 - 84 - 83 - 82 - 81 . البلد الجديد بتلمسان 124.
 116 - 108 - 105 - 104 - 102 - 95 . البلد الجديد - فاس الجديد 106.
 - 124 - 123 - 120 - 119 - 117 . بلد الدمنة 95.
 133 - 132 - 129 - 128 - 127 - 126 . بلد مالي 152.
 - 164 - 163 - 162 - 155 - 153 - 162 - 157 - 153 - 135 . بونة 116.
 183 - 182 - 180 - 178 - 171 - 165 . 170 - 163.
 - 191 - 190 - 187 - 186 - 184 - 204 . ياسة 40.
 .204

حرف (ت)

- تلمسان الجديدة 178 . تازا 22 - 21 - 20 - 19 - 14 - 11 .
 تلمطيت 152 . - 105 - 104 - 103 - 90 - 70 - 69 -
 تبكتور 152 . 171 - 165 - 106 .
 تنس 80 - 124 . تادلا 26.
 .202 - 172 - 170 - 159 . تاسالت 85 - 80 .
 - 116 - 80 - 61 - 56 - 35 - 28 . تافرجينت 80.
 153 - 139 - 135 - 133 - 123 - 117 . تافطراسن 7 - 24 .
 - 159 - 157 - 156 - 155 - 154 - 124 - 120 - 119 . تافريست 20.
 170 - 166 - 164 - 163 - 162 - 160 . تالموت 80.
 - 186 - 185 - 181 - 172 - 171 - 173 . تامدغوسن 173.
 .203 - 202 . تامزوارت 94.
 تيشمش 31 . تامزركت 80.
 تيكارين 107 . تامستا 31 - 50 .
 البتنة 106 . تامنطيت 107.
 تimplل 27 . تاوريرت 77 - 120 .
 .97 . تطاوين 96 - 97.
حرف (ج)

- جامع الأندلس 112 . تكساس 83.
 جامع بن يوسف 175 . تلمسان 3 - 30 - 25 - 16 - 13 - 12 -
 جامع القرويين 90 - 112 - 176 . 70 - 69 - 67 - 54 - 39 - 33 - 32 -
 جامع المنصور بمراكش 174 . 80 - 79 - 78 - 77 - 76 - 74 - 73 -

- جبال بني يزناسن .105
 جبال الشرف .46 - .61
 جبال طرابلس .3
 جبال بهلوة .17
 جبال غمارة .23 - .74 - .92 - .95
 جبال غياثة .11
 جبال المصامدة .173 - .190 - .191
 جبال هسكورة .93
 جبال هتاتة .173 - .174 - .182 - .183
 جبل ورغة .67
 جبل آصرو .43
 جبل أوراس .3
 جبل أوراين .204
 جبل بيونش .75
 جبل تينملل .42 - .43 - .44 - .77
 جبل جيلير .24
 جبل درن .67 - .111 - .173
 جبل راشد .172
 جبل زالغ .179
 جبل زرهون .12
 جبل سكسيوي .50 - .190
 جبل طارق - جبل الفتح - .51 - .52 - .109
 - .121 - .122 - .123 - .137 - .138
 حصن بني بشير .47 - .146 - .203
 حصن تازوطا .6 - .13 - .72 - .73 - .74
 حصن اسطبونة .71
 حصن بركونة .47
 حصن بجير .70
 حصن بلمة .40
 حصن بنى بشير .47
 حصن علوان .30
 جبل الكندرتين .178
 جبل وانشريس .45 - .54 - .125 - .172
 جربة .135 - .170
 الجزيره الأخضراء .39 - .40 - .41 - .42
 - .45 - .46 - .48 - .49 - .50 - .52 - .55
 - .56 - .57 - .58 - .62 - .64 - .65 - .66
 - .70 - .75 - .77 - .101 - .104 - .107 - .122
 - .137 - .138 - .139 - .145 - .149
 - .180
 جزيرة كبتور .61
 جنوة .74
 الجيزة .130
 جيان .47 - .56
حروف (ح)
 الحامة .170
 الحجاز .127 - .150
 الحرم الشريف .127
 حصون ملوية .13 - .14
 حصون الوادي الكبير .46
 حصن اسطبونة .71
 حصن بركونة .47
 حصن بجير .70
 حصن بلمة .40
 حصن بنى بشير .47
 حصن تازوطا .6 - .13 - .72 - .73 - .74
 حصن جليانة .46
 حصن الحمراء .38

- رباط المشتير .157
 رندة ٤٠ - ٧٥ - ٦٦ - ٤٥ - ١٠١ - ١٠٤ - .
 .107
 روض المصارة ١٢٥ - ١٥١ .
 روطة .٥٩
 الريف ٦ - ٩١ .
حروف (ز)
 الزاب .٢٠٤ - ٢٠٢ - ١٨٦ - ١٨٣ - ١٥٥ .
 الزقاق .١٣٦ - ١٣٥ - ٧١ - ٧٠ - ٥٢ .
 الزيتون - بناحية فاس - ١١٨ - ١١٩ .
حروف (س)
 ساحل السوس .١٩٠ - ١٨٧ .
 الساقية الحمراء .٥٨
 ساقية غولة .٢٤
 سبطة ٦٠ - ٥٩ - ٥١ - ٣٨ - ٣٥ - ٢٤ - ٢٢ .
 ٩٦ - ٩٥ - ٩٤ - ٩٠ - ٨٣ - ٧٥ - ٦١ -
 - ١١٥ - ١١٤ - ١١٣ - ١٠٠ - ٩٧ -
 ١٤٤ - ١٣٨ - ١٣٧ - ١٣٥ - ١٣٤ - ١٢٥ .
 سبو .٢٠٢ - ١٦٦ -
 .١٠٢
 سجلماسة - ٣ - ١٩ - ١٨ - ٥ - ٣٦ - ٢٠ - ١٩ - ١٨ -
 - ١١٠ - ١٠٧ - ٨٩ - ٨٨ - ٦٧ - ٣٨ - ٣٧ .
 .١٧٣ - ١٧٢ - ١٢٣ - ١٢٠ - ١١٩ - ١١١
 سطح الجعاب .١٥٥
 سلا ٣ - ٢٤ - ٢٣ - ٢٢ - ٢١ - ١٧ -
 .٢٠٦ - ٢٠١ - ٢٠٠ - ١٧٦ - ١٧٥ - ٥٢
 سواحل المغرب .١٣٧ - ١٣٥
 سور الأقواس بسلا .١٧٥
 السودان ١٢٩ - ١٥١ .
 حصن ذكوران .٦٤
 حصن روطة .٤٦
 حصن ركش .٥٩
 حصن الزهراء .٤٧
 حصن سطبوة .٧٥
 حصن شلوقة .٤٦
 حصن الصخرات .٦٣
 حصن فركونة .٤٧
 حصن قطبيانة .٤٦
 حصن القنطر .٥٩
 حصن القلبعة .٤٦
 حصن علودان ٢٣ - ٩٥ .
 حصن غليانة .٤٦
 حصن مرتقوط .٦٠
 حصن المدور .٤٠
 حصن بجير - ٧٠ .
حروف (د)
 الدار البيضاء - بفاس الجديد .١٠٧
 دار الصناعة بسلا .٢٢
 درعة ١٨ - ١٢٠ - ١١٠ - ٣٦ - ١٩ - ١٩١ .
 الديار المصرية .١٢٨
حروف (ذ)
 ذراع الصابرون .٦٩
حروف (ر)
 الرابطة .١٤
 رباط تازا ٦ - ١٣ - ٢٦ - ٣٣ - ٤٥ - ٦٧ -
 .١٠٤
 رباط الفتح ٨ - ٢١ - ٢٢ - ٢٤ - ٤٥ - ٥٨ -
 .٦١ - ٦٥ - ٩٤ - ٩٥ - ٦٥ - ١٠٤ .

- طليطلة ٥٦ - ٥٧ - .١٠٨
 طنجة ٣٤ - ٣٨ - ٣٥ - .٥٣ - ٥٢ - ٥١ - ٩٨ - ٩٧ - ٩٦ - ٧٥ - ٦٦ - ٦١ - ٥٨ - .١٩٨ - ١١٥
حروف (ع)
 العدوة ٤٢ - .١٥٧
 عدوة الأندلس ١٩ - ١٥٧ - .١٧٦
 العدوتان ٩٤ - ١٢٦ - .١٤٠
 العدوة المغربية ٣١ - .٦٠
 العرائش ٣١ - .٨٣
 عرفة ١٥٢ - .١٥٢
 عقبة الجزارين بفاس ١٧٩ - .٩٧
 علودان ٩٧ - .٥٨
 عين غبولة ٢١ - .٧٢
 عين الصفا ١٣ - ٦٩ - .١٧٦
حروف (غ)
 غابة المعمورة ٢٢ - .٣
 غدامس ٣ - .١٣٦
 غرب الأندلس ١٣٦ - .٨٢ - ٦٧ - ٥٣ - ٥٢ - ٤٨ - ٣٨
 غرباطة ٣٨ - .١٣٧ - ١٣٦ - ١٢٣ - ١١٣ - ١١٠ - ١٠٩ - .١٩٦ - ١٩١ - ١٨٨ - ١٦٧ - .١١٧
حروف (ف)
 فاس ٣ - ٨ - ١٠ - ١١ - ١٣ - ١٤ - ١٥ - .٣٦ - ٣٥ - ٣٣ - ٣١ - ٢٧ - ٢٦ - ٢٥
حروف (ش)
 شالة ٥٨ - ٥٥ - ٦٥ - ٩٧ - ٨٥ - ١٧٤ - ١٨١ - .١٢٧ - ١٥٧
 الشام ١٢٧ - .١٨٢
 شدونة ٤٧ - .١٥٧
 الشرق ١٥٨ - ١٨٣ - .٨٠
 شرشال ٤٢ - ٤٦ - ٥٩ - ٥٧ - ٦٠ - ٦١ - .٧٠
حروف (ص)
 صبرة ٧٤ - ٩٠ - .١١٧
 الصحراء ٣ - ١١٠ - ١٠٧ - .١٧٢
 صحراء درعة ٦٧ - .٦٧
 صحراء الزاب ٤ - .١١
 صخرة أبي يياش ١١ - .٥٥
 صخرة عباد ١٦٦ - .٥٥
حروف (ض)
 ضواحي إفريقيا ٣ - .٣
حروف (ط)
 طرابلس ١٣٥ - .١٥٥
 طريف ٣٩ - ٤٥ - ٤٠ - ٥٨ - ٦١ - ٦٦ - .٧١ - ٧٤ - ٧٥ - ١٠٩ - ١٣٦
 طريف ٣٩ - ٤٥ - ٤٠ - ٥٨ - ٦١ - ٦٦ - .١٣٧ - ١٣٨ - ١٥٣ - ١٦٣ - ١٨١

- القصبة - بتطاوين .89
 القصبة (تونس) ١٨٥ - ١٧٠ - ١٦١ - ١٥٧ - ١٤٥
 القصبة (بطنجة) .202
 القصبة (بسبيتة) .115
 القصبة - بطنجة .67
 القصبة بفاس .١٦٤ - ٨٩ - ١٥ - ١٤
 القصبة (بمراكش) .١٧٤
 القصبة (بمكناس) .٤٤
 القصر .٩٩ - ٩٦ - ٦٨
 قصر الأجم .١٥٧
 قصر كلامة .٩٥ - ٨٣ - ٢٣ - ٢٠
 قصر المجاز .٥٨ - ٥٥ - ٤٥ - ٣٩ - ٣٨
 قصر مضمودة .٥٥ - ٤٢
 قصور نوات .٢٠٧
 القطر المغربي .٤
 قفصة .١٥٤ - ١٧٠
 قلعة بنى سعيد .١٣٧
 قلعة تازوطا .١٣
 قلعة تاغزوت .١٢٥
 قلعة تامزدكت .١٣
 قمارش .٤٠
 فنطرة ماريح .٨٩
 فنطرة وادي النجاة .٨٩
 القيروان ١٦٣ - ١٦٢ - ١٦١ - ١٦٠ - ١٥٧
 حرف (ك)
 كلدمان .٢٠
- .٥٤ - ٥٣ - ٥٢ - ٤٤ - ٤٣ - ٤٢ - ٣٨
 - ٧٦ - ٧٤ - ٧٣ - ٦٩ - ٦٧ - ٦٦ - ٥٨
 - ٩٤ - ٩٣ - ٩٢ - ٩٠ - ٨٨ - ٨٠ - ٧٩
 - ١٠٤ - ١٠٣ - ١٠١ - ٩٨ - ٩٧ - ٩٥
 ١١٣ - ١١٢ - ١١١ - ١١٠ - ١٠٦ - ١٠٥
 - ١٣٠ - ١٢٤ - ١٢٠ - ١١٨ - ١١٤ -
 ١٧٤ - ١٧٣ - ١٧٢ - ١٦٥ - ١٥٠ - ١٤٦
 - ١٨٢ - ١٨٠ - ١٧٩ - ١٧٧ - ١٧٦ -
 .٢٠٦ - ٢٠٤ - ٢٠٣ - ٢٠١ - ١٩٢
 فاس الجديد .١٦٤ - ١٢٤ - ١١١ - ١٠٧
 .٢٠١ - ١٨٢ - ١٦٥
 فحص أزغار .٩٤
 فرضة المجاز .٤٢ - ١٣٨
 حرف (ق)
 قابس .١٣٥ - ١٥٥ - ١٧٠ - ١٥٦ - ٢٠٢
 القاهرة .٨٤
 القاهرة بالسوس .١٩٠
 قبة مكناسة الزيتون .٩٥
 قبة الملعب .١٦٤
 القرافة .١٣٠
 قرطاجنة .١٧٦
 قربطة .٣٧ - ٤٦ - ٤٧ - ٥٦ - ٥٩
 قرمونة .٦١ - ٦٠ - ٥٩ - ١٨٥
 القرقوين .٢٠٦
 قرية مكول .٥٥
 قسنطينة .١٥٥ - ١٥٦ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٣
 .٢٠٣ - ٢٠٢ - ٢٠١ - ١٨٦ -
 قشتالة .٨٢
 القصبات .٥٤ - ٥٠

- 72 - 69 - 67 - 58 - 56 - 55 - 54 . الكندرتان 89.
- 107 - 95 - 94 - 93 - 92 - 85 - 77 . حرف (ل)
- 173 - 172 - 120 - 111 - 110 - 61 . لبلة
- . 201 - 174 . لمدينة 80 - 183 - 133 - 124 -
- مرس بجایة 170 . مازونة 80.
- مرسي غساسة 73 - 116 . مالقة 40 - 45 - 50 - 49 - 48 - 53 .
- مرسي سبتة 136 . مرسي المريعة 168 . 57 - 61 - 57 -
- مرية 66 . مريالا 113 -
- مرسي المنكب 168 . مالي 129 .
- المريعة 51 - 176 . مجريط 46 .
- مرفا سبتة 52 - 176 . مدرسة باب حسين بسلا 175 .
- مستغانم 80 . مدرسة الرخام - المدرسة المصباحية بفاس 176 .
- المسجد الجامع بتازا 90 . مدرسة الصهريج بفاس 176 .
- المسجد الجامع بفاس الجديد 89 . مدرسة العطارين بفاس 112 .
- مسجد الفتح 130 . المدرسة العظمى بطالعة سلا 175 .
- مسجد القرويين 113 . المدرسة العظمى بمراكش 175 .
- مسراته 157 . المدرسة العتانية بفاس 206 .
- مشروع كتابة 94 . المدينة 130 - 131 .
- المشرق 127 - 127 - 128 - 164 - 175 . المدينة البيضاء - فاس الجديد 44 - 45 -
- مصر 83 - 128 - 129 - 127 - 90 - 84 - 157 - 140 - 131 - 127 . 206 - 89 .
- معدن العوام 15 . مدينة شريش 46 .
- معقل 31 . مدينة 9 .
- 10 - 9 - 8 - 7 - 6 - 5 - 3 . مراكش 5 - 25 - 17 - 15 - 12 - 10 -
- 27 - 25 - 23 - 21 - 20 - 16 - 15 . 35 - 34 - 31 - 29 - 28 - 27 - 26 -
- 44 - 42 - 37 - 34 - 33 - 31 - 28 . 53 - 51 - 50 - 45 - 44 - 43 - 42 -

- | | | |
|------------------|------------|--|
| مملكة مالي | 151 | - 72 - 71 - 58 - 57 - 54 - 48 - 45 |
| المنصورة | 80 | - 87 - 84 - 83 - 82 - 80 - 77 - 76 |
| | .178 | 101 - 99 - 97 - 93 - 90 - 89 - 88 |
| المنكب | 51 | - 113 - 108 - 107 - 106 - 105 - |
| المهدية | 157 | 128 - 126 - 124 - 123 - 120 - 114 |
| ندرومة | 80 | - 157 - 155 - 151 - 147 - 138 - |
| | .155 | 166 - 165 - 164 - 161 - 160 - 158 |
| نقطة | 170 | - 178 - 175 - 172 - 171 - 170 - |
| نهر شنيل | 109 | - 203 - 187 - 186 - 185 - 179 |
| | .204 | |
| حرف (ن) | | المغارب الثلاثة 164 |
| هنين | 80 | - 88 - 68 - 35 - 3 - المغارب الأقصى 144 |
| حرف (ه) | | |
| وادي آش | 40 | .124 - 118 - 112 - 106 - المغاربان 12 |
| وادي أبي الأجراف | 165 | .135 - 127 - 118 - 100 |
| وادي أم الربيع | 14 | .183 - 155 - 151 - المغرب الأوسط 3 |
| | .24 | مقبرة الشيخ أبي بكر بن العربي 100 |
| وادي إسلبي | 16 | .158 - 130 - مكة 83 |
| وادي بهت | 12 | .158 - 130 - مكناسة 10 |
| وادي تافنا | 54 | .12 - 11 - 10 - 76 - ملوكية 19 |
| وادي تлагع | 54 | .72 - 20 - 18 - 13 - 12 - ملوكية 43 |
| وادي الزيتون | 165 | .176 - 171 - 165 - 156 - 139 - ملوكية 20 |
| وادي سبو | 7 | .124 - 80 - ملوكية 43 |
| | .176 - 118 | .151 - مملكة برنو 151 |
| وادي شلف | 183 | .151 - مملكة غانة 151 |
| وادي العبيد | 26 | .151 - مملكة كاغو 151 |
| ودغفو | 27 | .151 - مملكة المغرب 151 |
| وطاط | 13 | |

و طاط الحاج	19.
- 124 - 105 - 92 - 79 - 77 - 76 - و جدة	
.135 - 134 - 133	.124.
ح ر ف (ي)	
ي ش رب	.158.
ي ن يع ال ح ج ا ز	.88.
و ا د ي ف ا س	.89 - .176.
و ا د ي ق صر ك تا مة	.176.
و ه ران	80 - .124.
ال و ا د ي ال ك ب ي ر	.45 - .60.
و ا د ي ل ك	.59 - .63.
و ا د ي م ل و ي ة	.110 - 105 - .117.
و ا د ي ن ك و ر	.6.
و ا ق ع ة ا م الر ج ل ي ن	.24.
و ا ن ش ر ي ش	.80.